مصر بين روما وتدمر ٣٠ق.م. - ٢٧٣م

أ.د. محمد السيد عبد الغني
أستاذ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية

إن العلاقات بين مصر وروما لم تبدأ مع فتح الرومان لمصر عام ٣٠ ق.م، بعد انتصار أوكتافيان على كل من ماركوس أنطونيوس وكليوباترا السابعة في موقعة "أكتيوم" غرب اليونان، في سبتمبر عام ٣١ ق.م. إن هناك سجلاً طويلاً من العلاقات والتدخلات الرومانية في شئون مملكة البطالمة على مدى ما يزيد على قرن ونصف خصوصاً في عصر البطالمة الضعاف من عهد بطلميوس الخامس (إبيفانيس) من أواخر القرن الثالث ق.م. حتى عهد بطلميوس الثاني عشر أو ليتيس (الزمار) في منتصف القرن الأول ق.م. مما جعل مملكة البطالمة خلال تلك الفترة أشبه بمملكة تابعة تدور في فلك النفوذ الروماني[1]. أما تحت حكم آخر ملكات البطالمة كليوباترا السابعة (٥١-٣٠ ق.م.) فقد حدثت نقلة نوعية في العلاقات بين الطرفين استحوذت خلالها كليوباترا على قلوب وألباب اثنين من أهم القادة الرومان هما: يوليوس قيصر ثم ماركوس أنطونيوس، وشكلت خطراً داهماً على مصالح الرومان في الشرق حتى قضى أوكتافيان عليها هي وماركوس أنطونيوس، في أكتيوم، وأطاح بطموحاتها وآمالها وأخضع مصر لتصبح ولاية رومانية[2].

(١) مصر ولاية رومانية:

بعد هذه الإرهاصات والمقدمات الطويلة صارت مصر ولاية رومانية بصفة

---

(1) للإطلاع على تفاصيل تلك الفترة والتدخلات المستمرة من جانب روما في شئون مملكة البطالمة في مصر أنظر: مصطفى العبادي، العصر الهللينستي - مصر، دار النهضة العربية - بيروت، ١٩٨١، ص ص ٧٧- ٩٨.
N.Lewis, Life in Egypt Under Roman Rule, Oxford, 1984, pp. 9-14.

(2) مصطفى العبادي، المرجع نفسه، ص ص ٩٩ - ١٠٦.

رسمية عام ٣٠ ق.م. وإذا ما قارنا بين أحوال مصر تحت حكم البطالمة ثم تحت حكم الرومان لوجدنا الفارق جلياً من جهة أسلوب إدارة وحكم مصر من الجانبين. فنظراً لضعف السلطة الحاكمة البطلمية، في أغلب فترات حكم البطالمة، انعكس ذلك على ضعف الإدارة وإفلات الزمام من بين أيديها، وهو ما ترتب عليه إهمال الزراعة، وتدهور حالة قنوات الري والمصارف والجسور، وسوء الأحوال الاقتصادية. في ظل هذا الوضع المتردي. وأمام ضعف البيت البطلمي الحاكم قام المصريون بمحاولات عديدة للتمرد والثورة على الحكم البطلمي. وبرغم أن المحصلة النهائية، لهذه الثورات المصرية، لم تؤد إلى الخلاص من الحكم البطلمي، فإنها أضعفت كثيراً من موقف الملوك البطالمة، وجعلتهم يقدمون تنازلات وهبات سخية، من الأراضي والامتيازات، لقادة هذه الثورات وأغلبهم من الكهنة المصريين، وخصوصاً في الإقليم الطيبي بمصر العليا حيث بؤرة الوطنية المصرية(٣).

أما عن نمط تعامل الإدارة الرومانية مع المصريين – بعد إخضاع مصر كولاية رومانية – فقد كان مختلفاً كل الاختلاف. فإذا كان حكم البطالمة قد اتسم – في معظمه – بالضعف، نتيجة لعوامل عديدة، من أبرزها الصراعات على العرش بين

---

(3) F. Uebel, "Ταραχ→ των Α⇒γυπτιων, Eine Jenaer Papyruszeugnis der nationalen Unruhen Oberägyptens in der ersten Hälfte des 2. vorchristlichen Jahrhunderts", Archiv für Papyrusforschung 17 (Helft 2), 1962, SS. 147 - 62, Werner Huss, "Eine Revolte der Ägypter in der Zeit des 3. Syrischen Kriegs" Aegyptus 68, 1978, pp. 151 - 156, Alan B. Lloyd, "Nationalist Propaganda in Ptolemaic Egypt," Historia 31, 1982, PP. 33 - 55.

كما أن هناك عدة مقالات عن ثورات المصريين تحت حكم البطالمة فى أعداد من Chronique d'Égypte للأستاذتين Marie - Threse Lenger, Claire Préaux.

كذلك فإن الأستاذ W. Peremans قد تناول أوضاع "المصريين والأجانب Égyptiens et Étrangers" فى كافة جوانب الحياة فى مصر فى العصر البطلمى فى مقالات كثيرة فى الأعداد من ١ - ١٤ (١٩٧٠ - ١٩٨٣) من مجلة المجتمع القديم "Ancient Society" التى تصدر عن جامعة Leuven بهولندا.

أبناء البيت البطلمي الحاكم، مما أتاح الفرصة - في مناسبات عديدة - لثورات المصريين فإن الحكم الإمبراطوري الروماني الجديد قد تميز - في كل الأحوال - بالشدة والصرامة والبطش منذ البداية. إن الرومان أرادوا من بداية حكمهم أن يوجهوا للمصريين رسالة واضحة الدلالة وهي: أن إدارتهم ونظام حكمهم يختلف - من حيث المضمون والأسلوب - جذريا عن الإدارة البطلمية وإن لم يختلف كثيراً من حيث الشكل الإداري. وكان جوهر وفحوى هذه الرسالة: أن قبضة الرومان القوية لن تسمح لأي طرف في مصر بالتمرد على الحكم الروماني، وأن من يفعل ذلك لن يفلت من عقاب صارم. من هنا فإن أول الولاة الرومان في مصر، من قبل الإمبراطور أغسطس، وهو كورنيليوس جالوس (٢٩ - ٢٧ ق.م.) قمع يقظة غير مألوفة تمرداً للمصريين في الإقليم الطيبي قاموا به ضد جباة الضرائب الرومان وامتنعوا عن سداد الضريبة لهم. وقد فاخر هذا الوالي، في نقش معروف، بتدمير خمس مدن في الإقليم الطيبي، منها طيبة وقفط، وأنه أوقع في الأسر قادة التمرد.[1] كما قام ثالث هؤلاء الولاة وهو بترونيوس، بمصادرة أملاك المعابد المصرية من الأراضي الخصبة الممتدة لصالح الدولة الرومانية وعرض على كهنة تلك المعابد: إما استئجار هذه

---

(4) R.H. Barrow, A Selection Of Latin Inscriptions. Oxford, 1934, no. 7, p. 4: C. Cornelius Gn. F. Gallus, Eques Romanus..... Praefectus Alexandriae et Aegypti Primus, defectionis Thebaidis intra Dies XV, quibus hostem vi[cit bis a]cie, victor, V urbium expugnator, Boreseos, Copti, Ceramices, Diospoleos Megales, Ophieu, ducibus earum defectioum interceptis..... Etc.

كما أن المؤرخ ديون كاسيوس يشير (LIII, 23) إلى غرور كورنيليوس جالوس وتباهيه بما أحرزه من انتصارات على المصريين وتورطه في أوقاويل غير محترمة عن الإمبراطور أغسطس وسماحه بأن تقام له تماثيل وصور في كافة أرجاء مصر وأن تنقش قائمة بإنجازاته على الأهرامات. وتعرض من جراء ذلك لغضب الإمبراطور أغسطس عليه، ومن ثم لغضب ونقمة مجلس السناتو الذي صوت على إدانته في المحاكم ونفيه وتجريده من الضيعة الممنوحة له وإهدائها إلى أغسطس. ونتيجة لذلك كله داهمه الحزن والقهر وأخذ حياته بيده.

الأراضى – كبقية مزارعي أرض الدولة – مع تخفيض الإيجارات نسبياً لهم، أو حصول هذه المعابد على إعانات مالية محددة من جانب الإدارة الرومانية[٥]، مع ما في ذلك من تحكم في هذه المعابد، وتقييد لحركتها وتقليص لنفوذها، وإجهاض لإمكانية ثورتها فى الحالتين. وهكذا فقد تميز الحكم الروماني لمصر عموماً بالشدة والصرامة، سواء فى جباية الضرائب أو التكليف بالأعباء الجسمانية المرهقة على المصريين، من شق وتطهير القنوات وبناء الجسور والمصارف وغيرها[٦] مما خلق أزمات اقتصادية عديدة جعلت السكان يفرون أحياناً من قراهم، ويلجئون إلى المعابد أو زحام المدن الكبرى[٧].

أمام هذه القسوة الباطشة من جانب الرومان في التعامل مع المصريين والتي كانت لافتة وعلواناً وقاعدةً للحكم الروماني في مصر، كان الاستثناء يتمثل في بعض اللمحات والبوادر المتعاطفة من جانب قلة نادرة من حكام الرومان في مناسبات نادرة. ولعل من أبرز هذه الأمثلة النادرة فى التعاطف الإنساني مع المصريين ما فعله جرمانيكوس ابن شقيق الإمبراطور تيبريوس – الذي كان مقرراً أن يتولى عرش الإمبراطورية بعد عمه بناء على وصية الإمبراطور أغسطس – حين زار مصر عام

(5) R.S. Bagnall, "Publius Petronius, Augustan Prefect of Egypt", Yale Classical Studies. 28, 1985, PP. 85 - 93.

(6) N. Lewis, Inventory of Compulsory Services in Ptolemaic and Roman Egypt, (American Studies in Papyrology 3, Toronto, 1958), N.Lewis, "On The Starting Date of Liturgies in Roman Egypt", Transactions and Proceedings of The American Philological Association 100, 1969, PP. 255 ff.

(7) N.Lewis, "ΜΕΡΙΣΜΟΣ ΑΝΑΚΕΞΩΡΗΚΟΤΩΝ: An Aspect Of The Roman Oppression in Egypt", Journal Of Egyptian Archaeology 23, 1937, pp. 63 ff.

انظر ايضا: أبو اليسر فرح، ظاهرة الفرار فى مصر البطلمية والرومانية، رسالة دكتوراة غير منشورة - كلية آداب عين شمس - ١٩٨٤.

١٩م ضمن جولة كلفه بها عمه الإمبراطور، لتفقد أحوال ولايات الشرق. إذ قام بتخفيض أسعار القمح وفتح مخازن الغلال العامة أمام الناس في مواجهة نقص الحبوب في ذلك العام، كما كان يسير بين الناس بغير حراسة ويرتدى ثيابا إغريقية وينتعل خفاً في قدميه. (٨) وأمام هذا التعاطف النادر رد المصريون التحية بأعظم منها وأبدوا امتنانهم الشديد لصنيع الأمير الشاب، وكانوا يهتفون في حضرته هتافات يبتهاج تسبغ عليه قداسة وتعظيماً، وهو الأمر الذي استنكره جرمانيكوس، خشية أن يغضب أباه (عمه تيبريوس الذي تبناه) وجدته ليفيا، واصدر مرسوماً يعبر عن استنكاره لتلك الهتافات واستياءه منها. (٩) كما أن قسبسيان - الذي أدار معركة الصراع على العرش الإمبراطوري عام ٦٩م. من الإسكندرية التي مكث بها بضعة أشهر قبل أن يعود إلى روما ظافراً فى نهاية العام - لقي من آيات التكريم والحفاوة بل والتقديس من الناس في الإسكندرية ما جعلهم يلتمسون عنده الشفاء من أمراض مستعصية كالعمى والشلل. (١٠) ولكن هذا الاحتفاء بالإمبراطور الجديد من قبل السكندريين لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما اكتشفوا فيه جابى ضرائب لا يعرف الرحمة وبدلاً من أن يخفف عنهم الضرائب والمدفوعات القائمة، رداً لجميلهم حين كانوا أول من اعترف به إمبراطوراً إذا به يتفنن في اختراع كافة أنواع الضرائب والرسوم والمدفوعات - قديمها ومستحدثها - لتحصيل أكبر قدر من المال منهم. وأمام هذا الموقف لجأ السكندريون إلى سلاحهم التقليدي في هذه المواقف، وهو السخرية والاستهزاء، فأطلقوا على الإمبراطور ألقاباً ساخرة تهكمية، وتداولوا حوله نكاتاً فجة

---

(8) Tacitus, Annals 2. 59:
..... Germanicus Aegyptum proficiscitur ..... levavitque apertis horreis pretia frugum multaque in vulgus grata usurpavit. sine milite incedere, pedibus intectis et pari cum Grecis amictu.....

(9) S.B. (Sammelbuch) 3924, A.D. 19.

(10) Tacitus, Histories 4. 81.

أثارت غضبه، وجعلته يفرض عليهم ضريبة رأس رمزية – مهينة معنوياً – مقدارها ست أوبولات نحاسية (أي دراخمة واحدة). (١١)

هكذا نرى أن مجمل صورة الحكم الروماني لمصر، على مدى القرون الثلاثة الأولى من الإمبراطورية، بدت في إطار اهتمام خاص ومعاملة خاصة بهذه الولاية تخرج عن المألوف في معظم الولايات الأخرى. وتتمثل هذه المعاملة الخاصة في جعل هذه الولاية أشبه بضيعة خاصة للإمبراطور وتتبعه مباشرة، وفي حرص الأباطرة المتعاقبين على أن يعيّنوا بأنفسهم ولاة مصر من أبناء طبقة الفرسان – وليس من رجال السناتور والطبقة الأرستقراطية – وأن يكلفوهم بمهام ومسئوليات محددة لإدارة الولاية، مع المتابعة الدقيقة لهم، وفي استنزاف خيرات هذه الولاية الغنية حتى آخر قطرة، وهو ما أدى إلى معاناة شديدة للمصريين من قسوة الحكم الروماني وضرائبه الباهظة وأعبائه التي تفوق الاحتمال.

ولكن ما سبب هذه المعاملة الخاصة لمصر من جانب أباطرة روما ؟ عن هذا السؤال يورد بعض المؤرخين إجابات مباشرة لا تختلف كثير في فحواها ومضمونها. إن المؤرخ الروماني الكبير تاكيتوس – من أوائل القرن الثاني الميلادي، فيما تبقى من كتابيه "الحوليات" و "التواريخ" يركز – في أكثر من موضع – على أهمية مصر ووضعها المميز بين الولايات الرومانية وفي حسابات الأباطرة. ففي إحدى الفقرات المبكرة من مؤلف "التواريخ" – الذي يسرد فيه أحداث وتواريخ الأسرة الفلافية – يتناول تاكيتوس أوضاع الولايات الشرقية، ويأتي إلى ذكر مصر منذ أخضعها الرومان. ويذكر تاكيتوس أنه كانت هناك قوات رومانية للحفاظ على النظام بها، وأنها كانت تحت إدارة الفرسان الرومان الذين حلوا محل الملوك (البطالمة) منذ عهد أغسطس المؤله . ويركز تاكيتوس على مبررات وضع هذه الولاية تحت إشراف البيت الإمبراطوري المالك مباشرة، فيقول:

لقد بدا من الحكمة الإبقاء على هذه الولاية في قبضة البيت الإمبراطوري: هذه الولاية التي يصعب اقتحامها، وذات الحاصلات الوفيرة، المضطربة من جراء الخرافة والخلاعة،

(11) Dio Cassius Epitome of Book 65. 8.

التي لا دراية لها بالقوانين ولا علم لها بالموظفين المدنيين[١٢].

وبرغم التجني الواضح أو الجهل الفاضح من جانب تاكيتوس في زعمه بعدم دراية مصر بالقوانين أو بالموظفين المدنيين – وهو ما يناقض أدلة ثابتة وبراهين ساطعة في الوثائق المصرية منذ أقدم العصور – ومبالغته ونسبية رأيه فيما يتصل بالخرافة والخلاعة، فإن مما لا شك فيه أن حديثه عن مصر كولاية صعبة المنال وغنية بإنتاج الغلال يتسم بصواب الرؤية.

وفي ذكره لرد الفعل الغاضب من جانب الإمبراطور تيبريوس على زيارة ابن أخيه جرمانيكوس لمصر دون إذن منه يقول أنه:

خلفه تعليقا قاسيا للغاية على تجاوزه المرسوم الصادر عن أغسطس بدخوله الإسكندرية بغير إذن من الإمبراطور. فمن بين أسرار الهيمنة التي مارسها أغسطس أن قام بفرض عزلة على مصر من خلال الحظر الذي فرضه على دخول كافة أعضاء المناتور أو الأعضاء البارزين من طبقة الفرسان الرومانية إلى مصر بغير إذن (تصريح) وذلك لكي لا تتعرض إيطاليا لمجاعة على يد أي شخص قد يستولي على تلك الولاية والأماكن الإستراتيجية في البر والبحر عن طريق حامية متواضعة في مواجهة جيش جرار قوي[١٣]. ويؤكد المؤرخ

---

(12) Tacitus, Historiae 1, 11:
ita visum expedire, provinciam aditu difficilem, annonae fecundam superstitione ac lascivia discordem et mobilem, insciam legum, ignaram magistratuum, domi retinere.

(13) Tacitus, Annales 2, 59:
acerrime increpuit quod contra instituta Augusti non sponte principis Alexandriam introisset. Nam Augustus, inter alia dominationis arcana, vetitis nisi permissu ingredi senatoribus aut equitibus Romanis illustribus, seposuit Aegyptum, ne fame urgeret Italiam quisquis eam provinciam claustraque terrae ac maris quamvis levi praesidio adversum ingentis exercitus insedisset.

أنظر كذلك Annales 3, 54:
Vita populi Romani per incerta maris et tempestatum cotidie volvitur.
إن حياة الشعب الروماني تتقاذفها يوماً بعد يوم المقادير غير المضمونة الكامنة في تقلبات

ديو كاسيوس على هذه الحقيقة حين يعلق على اختيار الإمبراطور أغسطس لولاته على مصر – وأولهم كورنيليوس جالوس – من طبقة الفرسان وليس من أعضاء السناتور، بالقول:

فنظراً للكثافة السكانية للبلاد في مدنها وريفها وسلامة قياد سكانها وتقلبهم، وما يأتي منها من إمدادات الحبوب والأموال لم يكن (الإمبراطور) ليجرؤ على أن يولي عليها أحداً من أعضاء السناتور بل ولم يسمح لأحد منهم أن يقيم فيها إلا إذا وافق هو لأحد على ذلك بصفة شخصية وبالاسم[١٤].

وقد برهنت الأحداث اللاحقة بعد ذلك على صحة هذه المقولات وأكدتها. ففي الصراع على العرش الإمبراطوري في روما عقب انتحار نيرون – فيما يسمى بعام الأباطرة الأربعة عام ٦٨/٦٩– آلت السلطة الإمبراطورية إلى فسبسيان في الإسكندرية في أول يوليو عام ٦٩ حين أقسمت له القوات الرومانية هناك يمين الولاء بتوجيه من

البحر والعواصف (تعبيراً عن مصير السفن المحملة بالقمح من ولايتي مصر وإفريقيا وما قد يواجهها أثناء الرحلة من طقس سيئ قد يغرقها).

وكذلك Annales 12. 43:

nec nunc infecunditate laboratur, sed Africam potius et Aegyptum exerceemus, navibusque et casibus vita populi Romani permissa est.

ليس الجدب هو المشكلة الآن، وإنما نحن الذين نفضل أن نزرع أفريقيا ومصر لنجعل حياة الأمة الرومانية رهناً بحمولات السفن وضربات الحظ.

(14) Dio Cassius 51.17.1:

Πρ)ω τε γ□ρ τ) πολ/ξνδρον κα<> τ⊕ν π)λεσαν κα<> τ→ω ξ⊕ραω, κα<> πρ)ω τ) □ρ□διον τ) τε κουφον τ⊕ν τρ)πων α/τσν, τ↓ν τε σιτοπομπ<>αν κα<> τα ξρ→ματα, α/δεν<> βουλετ→ ο/ξ)πω εγξειρ<>σαι α/την ετ)λμεν, αλλ, ο/δΥ Υνεπιδημε<>ν εδωκεν, □ν μ→ τινι α/τ)ω)νομαστι συγξωρ→σ→

عن نفس النقطة أنظر كذلك: 14.2 :53.

عن الكم الهائل من الغنائم والأسلاب من مصر في الاحتفالات في روما بإخضاع مصر بعد عام من الانتصار الروماني في أكتيوم أنظر: 51.21.7.

والى مصر تيبريوس يوليوس الإسكندر، وظل يحتفل بهذا اليوم لاحقاً على أنه اليوم الأول من حكم فسبسيان.[١٥] وقد أصدر فسبسيان أوامره لقواته التي كانت في طريقها إلى إيطاليا، لتمهد له سبيل الاستيلاء عليها من فيتيلوس، ألا تتخطى عملياتها الحربية ميناء أكويليا في شمال شرق إيطاليا، وأن تنتظر قادمها موكيانوس – والى سوريا الذي بايع فسبسيان – هناك، وبرر هذه الأوامر قائلاً لهم أنه *طالما كانت مصر – المتحكمة في مؤن الحبوب (إلى إيطاليا) وذات أعلى دخل باعتبارها أكثر الولايات ثراءً – بين أيديهم فمن الممكن إجبار جيش فيتيلوس على الاستسلام من خلال شح الرواتب والإمدادات التموينية*.[١٦]

في ضوء المعطيات المذكورة عن مدى أهمية مصر وحساسية وضعها الاستراتيجي والاقتصادي بالنسبة للإمبراطورية أطبق عليها الرومان بقبضتهم الحديدية وظلوا يستنزفون خيراتها بصورة منظمة، مع رضوخ المغلوب على أمره من جانب المصريين أمام جحافل القوات الرومانية والمساعدة المدججة بالسلاح. لكن هذا الرضوخ لم يمثل استكانة مطلقة، وإنما كان الغضب يتأجج في الصدور يتحين مجئ الفرصة الملائمة للانطلاق وإن طال أمد الصبر. وقد حانت هذه الفرصة للمصريين – بعد طول ترقب وانتظار – في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس حوالي عام ١٧٠م. ففي ذلك

---

(15) Tacitus, Historiae 2, 79.

(16) Ibid., 3.8:

Quando Aegyptus, claustra annonae, vectigalia opulentissimarum provinciarum obtinerentur, posse Vitellii exercitum egestate stipendii frumentique ad deditionem subigi.

في نفس السياق كذلك أنظر "تواريخ" تاكيتوس: 3, 48.
حيث يتحدث عن وصول أنباء انتصارات قوات فسبسيان في كريمونا إليه وهو في مصر وكيف أسرع إلى الإسكندرية لكي يزيد من وطأة المجاعة على جيوش فيتيلوس المنهارة وعلى روما التي كانت دائماً بحاجة إلى عون من الخارج. وقد كان فسبسيان آنذاك يعد العدة لغزو افريقيا برا وبحراً بغرض منع إمدادات الحبوب عن إيطاليا لكي يبذر الشقاق في صفوف خصومه من جراء العوز والحاجة.

الوقت، كانت كتائب من القوات الرومانية في مصر قد انضمت للقوات الرومانيـة التـي تحارب ضد قبائل الدانوب في الشمال على حدود الدانوب، وبالتالي خفت قبضة الرومان نسبيا على البلاد. وهنا قامت جماعات من 'رعاة الأبقار βουκολοι' في الدلتا – فـي أحراش شمال الدلتا – بحرب عصابات ضد معسكرات وحاميات الرومان في تلك المناطق تحت قيادة كاهن مصري يُدعى إيزيدوروس. وكان هؤلاء الثوار المصريون يتخفون في أزياء النساء ويقتربون من المعسكرات الرومانية، ويروى ديوكاسيوس أنهم بهذه الحيلة جعلوا القائد الروماني ينخدع بهم، ويظن أنهم زوجات الرعاة (البقوليين) قـدمن إليـه ليقدمن ذهبهن فدية لأزواجهن. ولما اقترب منهم قتلوه، كما قاموا بالتضحية بجثة أحـد رفاقه، وأقسموا يمين (الحرب والكفاح) على أحشائه، ثم قاموا بالتهام هذه الأحشاء (وهو مشهد يصور مدى ما يعتمل في نفوس المصريين من غل تجاه الزمان). [١٧] ويبـدو أن نواة هذه الثورة قد انطلقت من قرية تدعى 'تيكوخيس' – قرب أحد مصبات النيل الفرعية في شرق الدلتا، هو الفرع البقولى الذي ورد ذكره بهذا الاسم عند هيرودوت، والذي ربما سميت هذه الثورة باسمه، إلى الشرق من فرع النيل المنديسى – كما يتضح من وثـائق بردية من تلك الفترة ومن فقرة مشهورة عند أخيليوس تاتيوس[١٨]. ثـم امتـدت هـذه

---

(17) Dio Cassius 72. 4.

(18) P. Thmouis Col. 104, II. 9 - 15, 114, II. 7 - 10, 116, II. 4 - 10 (167 - 69 A.D.), Achilles Tatius 4. 12. 7 - 8.
لمزيد من التفاصيل عن خلفية هذه الثورة واحداثها انظر بحثنا (بالانجليزية) فى مجلة مركز الدراسات البردية:
M. Abd - El - Ghani, The Crisis Of The Mendesian Nome Under The Reign Of Marcus Aurelius.
مجلة مركز الدراسات البردية بجامعة عين شمس - العدد الحادى عشر ١٩٩٤ - الصفحات ٥٧ - ١٠٨ (الجزء الأجنبى).
للإطلاع على هذا البحث باللغة العربية أنظر:
محمد عبد الغنى، جوانب من الحياة فى مصر فى العصرين البطلمى والرومانى فى ضوء الوثائق البردية، المكتب الجامعى الحديث - الإسكندرية - ٢٠٠١، ص ص ١٤١ - ٢١٠.

الثورة إلى الغرب في أحراش الدلتا، وبلغت حداً من الخطورة حتى كادت الإسكندرية نفسها أن تسقط في أيدي الثوار، لولا أن أرسلت الإدارة الإمبراطورية الرومانية والي سوريا – أفيديوس كاسيوس الذي سبق له أن تغلب على البارثيين قبل بضع سنوات ١٦٤ / ١٦٧ – للتعامل مع هذه الثورة الخطيرة بحكم سابق معرفته بمصر. وقد أفلح هذا القائد الكبير في أن يخطط ويدبر ليبدد شمل الثوار المتحدين، ويبذر بذور الفرقة بينهم.[١٩] وحين سقطوا في هاوية التناحر فيما بينهم سيطر عليهم وأخضعهم، وقد تم القضاء على هذه الثورة عام ١٧٢ / ١٧٣م.

وترتب على قمع هذا الوالي الروماني – السوري الأصل والذي كان أبوه أفيديوس هيليودوروس والياً على مصر خلال حكم هادريان – لثورة المصريين في أحراش الدلتا أن ارتفعت أسهمه بشدة في البلاط الإمبراطوري وأسند إليه الإشراف على شئون الشرق بأكمله عام ١٧٢. ولما كان الإمبراطور منهمكا آنذاك في الحرب ضد قبائل الدانوب، في الشمال، وكان معقل الصحة، تسربت شائعة قوية عام ١٧٥ – يقال أن مصدرها فاوستينا زوجة الإمبراطور – تفيد بأن ماركوس أوريليوس قد توفي، وعلى الفور ودون أن يتأكد من صحة الخبر أفصح عن نيته في اعتلاء العرش الإمبراطوري خلفاً للإمبراطور. وعلى الرغم من أنه علم فيما بعد بكذب الشائعة، فإنه لم يملك سبيلا للتراجع، ومضى في الطريق إلى النهاية، وضم إليه كل أملاك الرومان جنوب جبال طوروس، واستعد لانتزاع العرش بالقوة والحرب.[٢٠] وكانت هذه من المحن التي أحزنت ماركوس أوريليوس، وجعلته يستعد لخوض الحرب ضد كاسيوس، ولكن الأخير لقي حتفه على يد أحد ضباطه وأرسلت رأسه إلى الإمبراطور[٢١].

خصوصا الصفحات ١٨٢ - ١٨٨.

(19) Dio Cassius, Loc. Cit.
(20) Ibid. 72. 22 - 23.
(21) Ibid. 24 - 28. 1.

المهم هنا في هذه القضية، أن أفيديوس كاسيوس وجد من يناصره في أمره خلال الفترة التي ادعى فيها أحقيته بالعرش الإمبراطوري - قرابة مائة يوم من عام ١٧٥ - من بين أعضاء السناتور بل ومن البيت الإمبراطوري - إذ يذكر أن فاوستينا زوجة أوريليوس كانت ضالعة في الأمر - وتعامل معهم الإمبراطور بالرفق والتسامح. وهنا نعود على بدء إلى أهمية مصر وخطورة دورها إذ كان واليها آنذاك وهو فلافيوس كالفيسيوس من أنصار كاسيوس ومؤيديه، ومع ذلك فإن الإمبراطور - عندما زار الولايات الشرقية بعد انتهاء هذه الغمة عام ١٧٦ - لم يأمر بإعدامه أو تجريده من أملاكه، بل أمر بتحديد إقامته في إحدى الجزر، وأمر بإحراق السجلات التي كانت في حوزة ذلك الوالي، حتى لا يظهر ما يدينه ويسئ إليه أكثر من ذلك، كما عفا الإمبراطور عن شركائه في الجرم.[٢١] لكن هذا العفو كان بدافع من كرم ماركوس أوريليوس وسماحته، حيث كان فيلسوفاً رواقيا خيراً يكره سفك الدماء، ويعفو حين يقدر.

وبعد هذه الأحداث عادت مصر إلى سيرتها الأولى تعاني من وطأة الحكم الروماني بضرائبه وأعبائه وقسوته، وأضيف إلى كل هذه الضغوط زيادة التضخم المالي وانعدام الأمن منذ عصر كومودوس (١٨٠-١٩٢م) الذي انتشرت في عهده عصابات قطاع الطرق في إيطاليا والولايات، وتدهور الاقتصاد بدرجة مخيفة لم يسبق لها مثيل. ولعل من الجدير بالذكر أن كتاب جيبون الشهير "تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية" يبدأ الحديث عن هذا التدهور الذي أدى إلى السقوط من عهد كومودوس.[٢٢] وبعد أن تمكن سبتميوس سيفيروس (١٩٣-٢١١) من حسم الصراع بين قادة الجيوش الرومانية على العرش الروماني لمصلحته، بعد معارك حامية قضى فيها على خصومه وعاقب بشدة من وقفوا بجانبهم، انفرد هو وولداه باسيانوس (كاراكلا) وجيتا بحكم

---

(22) Ibid. 28. 2 - 29.

(23) سيد الناصري، التاريخ السياسي والحضاري للإمبراطورية الرومانية، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٨٨.

الإمبراطورية. وفى عهده اندلعت حروب عديدة فـى أرجـاء الإمبراطوريـة، واسـتمر الانهيار الاقتصادي وانعدام الأمن.[٢١] وخلال هذه الفترة لم تتحسن أحوال مصر إلا فـى جزئية واحدة شكلية وهى منح مجالس استشارية لكـل مدينـة مـن عواصـم الأقـاليم المصرية تتولى إدارة شئون الإقليم، ومنح المواطنة الرومانية في عهد ابنـه كـاراكلا (٢١١-٢١٧م) إلى جميع سكان الإمبراطورية "فيما عدا المستسلمين". وهـذا الامتيـاز الأخير تمتع به عدد كبير من السكان في مصر كما يتضح من لقب "أوريليـوس" الـذي اقترن بأسماء كثيرة يونانية ومصرية، بدءاً من عهد كاراكلا، وعلى مدى القرنين الثالث والرابع الميلاديين.[٢٥]

ولكن هذه لم تعدَ أن تكون امتيازات شكلية أو صورية لم تغير من واقـع الأمـر شيئاً بل إن أهمية مصر السياسية والاقتصادية تضاءلت خلال القرن الثالـث الميلادي ولم يعد لها ذاك البريق والنظرة الخاصة إلى وضعها. وليس أدل علـى ذلـك مـن أن أعضاء السناتور، الذين لم يكن يسمح لهم طيلة القرنين الأولـين مـن الإمبراطوريـة، بمجرد زيارة مصر بغير إذن صريح ومكتوب من الإمبراطور شخصياً، أصبح يسمح لهم الآن – في أوائل القرن الثالث – بشغل مناصب هامة في مصر. ومن أمثلة ذلـك أن أحد أعضاء السناتور ويدعى "ماريوس سـيكوندوس" عينـه الإمبراطـور مـاكرينوس (٢١٧- ٢١٨) الرجل الثاني في مصر بعد واليها جوليوس باسيليانوس، ولما انتـصر ايلاجابالوس (٢١٨-٢٢٢) على ماكرينوس، قام رجاله في مصر بقتـل سـيكوندوس، وفر باسيليانوس إلى إيطاليا.[٢٦] بل والأدهى من ذلك أن مصر أصبحت منفـى تـتخلص فيه الإدارة الإمبراطورية من الأشخاص الذين يسببون لها إزعاجـاً ومـن ترغـب فـي الخلاص منهم واتقاء شرهم. ففي أوائل عهد الإمبراطور سيفيروس الإسـكندر (٢٢٢-

(24) سيد الناصري، المرجع السابق، ص ص ٣١٠ - ٣٢٣.
(25) المرجع نفسه، ص ص ٣٣٠ - ٣٣٣.
(26) Dio Cassius 79. 35.

٢٣٥) تمردت قوات الحرس البريتوري على قائدها الجديد الـذي عينـه الإمبراطـور، وهو الفقيه اليوناني أوليبيانوس، واغتالته وكان هناك من قادة الحرس شـخص يـدعى إيباجاثوس كان يعتقد بضلوعه بصورة رئيسية في هذا الاغتيـال فأرسـله الإمبراطـور ليتولى حكم ولاية مصر – من الناحية الظاهرية – ولكن الهدف الحقيقـي كـان إبعـاده لتجنب حدوث قلاقل في روما، كما لو كان هذا المنصب نوعاً من العقاب لـه – حسب نص كلمات ديو كاسيوس – ومن مصر سحب إلى كريت حيث أعدم[٢٧].

ويبدو أن الأحوال الاقتصادية لمصر خلال القرن الثالث الميلادي قد استمرت في التدهور والانهيار مما أدى إلى فرار الكثيرين من المصريين مـن مـواطنهم الأصـلية وتجميع صفوف هؤلاء الفارين أو المطاريد– أو بعضهم علـى الأقـل – فـي شـكل عصابات من اللصوص وقطاع الطرق الذين كـانوا يعيثـون فـساداً فـي الريـف، ويسببون إزعاجاً بالغاً للقرويين البؤساء أو يتزاحمون في المدن الكبرى في بطالـة صريحة أو مقنعة. ويبدو أن الأمر في الحالتين كان مزعجاً وشـكل ظـاهرة لافتـة للنظر استدعت تدخل ولاة مصر، وأحياناً الأباطرة أنفسهم، من خلال إصدار مراسـيم وقرارات تتصدى لمثل هذه الظواهر وتقترح الحلول المتاحة لكيفية التعامـل معهـا، وتسهب في إبراز الآثار السلبية الناجمة عن فرار هؤلاء وأولئـك، وتحـض علـى عودتهم لمواطنهم للاهتمام بالأرض والزراعة، ولكن دون جدوى في أغلب الأحيان، بدليل تكرار مثل تلك المراسيم من حين لآخر.[٢٨] هذا الوضـع المتـردي أضـعف

---

(27) Ibid. 80. 2. 4.

(28) من الأمثلة على قرارات الولاة حول ظاهرة اللصوصية وقطع الطرق في مصر هناك قرارات الوالاة سوباتيانوس أكويلا تحت حكم سفيروس، وباربيوس جونكينوس تحت حكم كاراكلا:

P. Oxy. 1404, 11. 11 - 21. – (Sel. Pap. 224).

وعن طرد الكثيرين من المصريين من الإسكندرية أنظر مرسوم امبراطور كاراكلا نفسه في هذا الشأن:

P. Gissen 40, 11. 16 - 29, A.D. 215.

إنتاجية مصر من الحبوب – وهي السلعة الإستراتيجية التي جعلت لمصر مكانة متميزة في الإمبراطورية، على مدى القرنين الأولين من الإمبراطورية – في الوقت الذي ازدادت فيه إنتاجية – وبالتالي أهمية – ولاية أفريقيا الرومانية، واهتمام أباطرة القرن الثالث بها قدر اهتمامهم بمصر وربما أكثر[٢٦].

هذا الوضع الاقتصادي المتردي هو الذي جعل مصر تفقد بريقها في نظر رجال السناتور وصفوة القوم من الرومان بشأن زيارتها بغير إذن إمبراطوري، إذ أصبح يسمح لهؤلاء بالإقامة في مصر دون غضاضة، بل وتهاوت مصر من عليائها وصارت منفى لبعض الطموحين والمتمردين من علية القوم، كما أسلفنا. ومع ذلك ظل الاستنزاف الاقتصادي الروماني لمصر قائما على قدم وساق، وبصورة منظمة من خلال مجالس المدن في عواصم الأقاليم المصرية التي ينظر إليها تيرنر باعتبار أن الغرض من إنشائها على يد سيتميوس سيفيروس؛ كان نوعا من المناورة السياسية العملية التي تهدف إلى إرساء نمط قياسي في الشرق بأكمله؛ يكون فيه أعضاء هذه المجالس مسئولين مسئولية جماعية تضامنية عن الإشراف على الميزانية واختيار وتكليف بعض الناس للقيام بالأعباء والخدمات العامة غير مدفوعة الأجر، إذ يرى تيرنر أن الإيثار المجرد المنزه عن الهوى، لمصالح الناس والولايات، كان من الدوافع المفقودة والغائبة في السياسة الرومانية الإمبراطورية. وفي

---

(29) G. Rickman, The Corn Supply Of Ancient Roman, Oxford, 1980, Appendix 4 "Africa and Egypt", pp. 231 - 235.

برغم أن المؤلف يرى أنه كان لولاية أفريقيا دور كبير في إمداد روما بالحبوب منذ القرن الأول الميلادي. وأن قمح افريقيا قد بدأ يشق طريقه إلى روما - جنبا إلى جنب مع قمح أسبانيا وصقلية وسردينيا بعد هزيمة هانيبعل في موقعة زاما عام ٢٠٢ ق.م. قبل فتح مصر بزمن طويل. Ibid., pp. 67 - 68

CF. L. Casson, "The Grain Trade Of The Hellenistic World", Transactions of The American Philological Associatin 85, 1954, pp. 168 - 187, pp. 183 - 84.

المحصلة فإنه يرى أن إنشاء هذه المجالس قد أدى إلى إفقار الطبقة الوسطى المتأغرقة التي كانت وسطاً بين الفلاحين الفقراء والسادة الرومان. (٣٠).

ويقر دافيد توماس بأن الفترة من حكم سبتميوس سيفيروس، حتى منتصف القرن الرابع الميلادي، تختلف جوهريا - من حيث نظام الأعباء الإلزامية في مصر - عما سبقها طيلة القرن الثاني الميلادي، بسبب إصلاحات سبتميوس وعلى رأسها مجالس المدن βουλαι مما أدى إلى اختلاف كبير في طريقة ونظام أداء هذه الأعباء الإلزامية. (٣١)

ويظل التدهور على هذا الحال يمضي قدماً والأعباء تزداد وطأة والشواهد الوثائقية على ذلك تستمر خلال القرن الثالث الميلادي: فقرب منتصف ذلك القرن، ومن عهد الإمبراطور فيليب العربي (٢٤٤-٢٤٩) اتسم الحكم الروماني بالقسوة وزادت جباية الضرائب لمواجهة أعباء النفقات المتضخمة للإدارة ودفع رواتب ومؤن الجند، ودفع مبالغ الفدية عن الأسرى الرومان الذين وقعوا في يد الفرس - وسوف نتناول قضية الحروب الرومانية مع الفرس لاحقاً في إطار الحديث عن علاقة روما بتدمر - وأخيراً من أجل الحصول على أموال للاحتفال بالعيد الألفي لنشأة روما عام ٢٤٧. وهكذا لم تعد مصر البقرة الحلوب وكاد ضرعها يجف، وجأر بعض من يفترض فيهم الغنى واليسر بالشكوى من ثقل الأعباء وضيق ذات اليد، كما يتضح من وثائق من أوكسيرينخوس من تلك الفترة. ومما زاد الطين بلة، في تلك الفترة، فرض جباية ضريبية ثابتة ذات إجمالي محدد سنوياً، وبمعدل ثابت عن الفرد τακτον□π(. ورغم أن فيليب العربي حاول أن يقدم حلولاً ويتخذ إجراءات لمواجهة هذه الأزمة المستحكمة إلا أن تلك

(30) E.G. Turner, "Oxyrhynchus and Rome", Harvard Studies in Classical Philology 79, 1975, pp. 1 - 24, p. 16.

(31) J.D. Thomas, "Compulsory Public Service in Roman Egypt (Das Römisch-Byzantinishe-Ägypten-Akten Des Internationalen Symposions 26-30.September 1978 in Teier)pp. 35 - 39, p. 39.

الحلول قد أخفقت كما أخفقت من قبلها إجراءات سبتميوس سيفيروس في أوائل القرن، ومن بعدها محاولات وإجراءات دقلديانوس في أواخر ذلك القرن. لقد واجه الأباطرة الثلاثة نفس المشاكل وجربوا نفس الحلول، وأخفق الثلاثة في مواجهة تلك المشاكل، كما يخلص إلى ذلك بارسونز في مقالته عن فيليب العربي ومصر.(٣٢)

بعد هذا الرصد المكثف لوضع مصر تحت الحكم الروماني، حتى حوالي منتصف القرن الثالث الميلادي، وما واكبه من تغيرات في نظرة الرومان إليها من مرحلة لأخرى، مع ثبات أسلوب الصرامة والفظاظة في معاملة المصريين واستنزافهم في كل المراحل، ننتقل إلى المحور الثاني من هذا البحث حول:

(٢) علاقة روما بتدمر

إن أقدم واقعة تاريخية تتصل بتدمر في مصادر التاريخ الروماني هي ما أورده المؤرخ أبيانوس السكندري في مؤلفه (الحرب الأهلية) في سياق حديثه عن ماركوس أنطونيوس حين كان يتولى أمور الولايات الشرقية، وكان على علاقة حميمة بكليوباترا وأنجب منها أبناء وخاض حملات ضد البارثيين لم تكلل بالنجاح، يقول أبيانوس:

"عادت كليوباترا عن طريق البحر (إلى مصر)، وأرسل أنطونيوس فرسانه إلى بالميرا (تدمر) وهي مدينة تقع على مقربة من الفرات واصدر أوامره إليهم بنهبها. ولم يكن لديه من مآخذ على البالميريين – الذين تقع بلادهم بين الرومان والبارثيين – سوى سياستهم التي تتسم بالدهاء. وقد كان هؤلاء (البالميريون) تجاراً يأتون من بلاد فارس بسلع وبضائع الهنود والعرب ليبيعوها من جديد للرومان.

---

(32) P.J. Parsons, "Philippus Arabs and Egypt", JRS 57, pp. 134 - 141, pp. 140 - 41.

وفي الواقع فقد كان أنطونيوس يريد (من هذه الحملة) أن يحصل على مكاسب (غنائم) لفرسانه. ولكن البالميريين شعروا بالأمر (المدبر لهم) فعبروا نهر الفرات بأملاكهم وأمتعتهم، ولتامين أنفسهم نصبوا رماتهم على امتداد ضفة الفرات. وقد كان هؤلاء رماة مهرة للغاية. وقد هبط الفرسان (الرومان) على المدينة المهجورة وعادوا منها خاليي الوفاض ودون مقاومة تذكر"[٣٣].

هكذا نرى أن أقدم واقعة ربطت بين روما وتدمر في التاريخ الروماني (حوالي ٣٧-٣٥ ق.م.) – وإن ذكرت عند المؤرخ أبيانوس السكندري الذي ازدهر بعد منتصف القرن الثاني الميلادي – قد أشارت إلى ثراء تدمر (بالميرا) من خلال لعب دور الوسيط التجاري النشط في نقل سلع العرب والهنود والفرس إلى الرومان. كما أن هذه الفترة أبرزت بجلاء البراعة السياسية للتدمريين بموقعهم المتوسط بين الرومان والبارثيين، دون انحياز لأي من الخصمين اللدودين، وتحفظ روما – وربما حنقها – إزاء هذا الدور المحايد من جانب تدمر. ومن هنا كانت هذه الحملة الرومانية الطامعة في ثروة التدمريين ومدى تأهب هؤلاء وترقبهم لأي خطر داهم مما أحبط حملة الفرسان الرومان وعودتهم بخفي حنين. ومما يجدر بالذكر الإشارة في الفقرة إلى مدى براعة ومهارة الرماة التدمريين.

ومع ذلك هناك إشارة تاريخية رومانية إلى تدمر أسبق من إشارة أبيانوس السكندري السالفة الذكر – وإن لم تتطرق إلى اتصال مباشر بين الطرفين – ، وقد وردت هذه الإشارة عند "بليني الأكبر" (٢٣-٧٩م) في مؤلفه الشهير "التاريخ الطبيعي" الذي أهداه عام ٧٧ إلى صديقه الأمير تيتوس الذي كانت آنذاك ولي عهد أبيه الإمبراطور فسبسيان. يذكر بليني في هذه الإشارة إلى "تدمر" (بالميرا) في كتابه أنها *مدينة تتميز بموقعها وثروة أرضها (خصوبة تربتها) ومائها الزلال، وتحيط الرمال من كل جانب بهذه الواحة، وبذا عزلتها الطبيعة عن بقية أرجاء العالم. وهي تلعب دوراً*

(33) Appianus, Civil Wars, V. 9.

مميزاً بين الإمبراطوريتين الكبيرتين الرومانية والبارثية، ويخطب الطرفان ودهما كلما تجددت صراعاتهما[٣٤].

وهنا يشير بلينى إلى مزايا تدمر المتمثلة فى موقعها الاستراتيجى واستقلاله سياسياً – واقتصادياً كما نفهم بصورة ضمنية – وثروتها ومنعة موقعها المحصن طبيعياً. ولم يربط بلينى ذكر هذه المميزات لتدمر بواقعة بعينها كما فعل أبيانوس، وهو ما يرجح أنه يتحدث عن واقع حال تلك الواحة عند كتابته لمؤلفه "التاريخ الطبيعي" أي أنه كان يصف أمراً معاصراً له. ومعنى ذلك أن تدمر قد حافظت على استقلالها ولم تخضع خضوعاً مباشراً للحكم الرومانى، في الوقت الذي خضع فيه جيرانها الواحد تلو الآخر لحكم الرومان من فتوحات بومبى في المنطقة (٦٤–٦٣ق.م.) على مدى القرنين الأول ق.م. والأول الميلادي. إذ يذكر بلينى ذلك الدور المحايد والذكي لتدمر بين الإمبراطوريتين ومحاولة كل منهما الاستئثار بودها دون الآخر، فى أوقات الصراعات.

ولكن هذه القرائن والشهادات التاريخية من جانب المؤرخين الرومان تبدو غير مقنعة أو غير كافية عند بعض العلماء للدلالة على استقلال تدمر وحريتها بعيداً عن الخضوع للرومان. ويسوق هؤلاء العلماء عدداً من الشواهد التي ترجح – من وجهة نظرهم – فقدان تدمر لحريتها واستقلالها لصالح روما، منذ أوائل الحكم الإمبراطوري.[٣٥] ولنستعرض معاً مثل تلك الشواهد حسب ترتيبها التاريخي:

- فى خلال جولة جرمانيكوس الإشرافية فى ولايات الشرق (١٧–١٩م) بتكليف من عمه الإمبراطور تيبريوس، أرسل جرمانيكوس مبعوثاً تدمرياً يدعى إلكساندروس إلى مملكة ميسينى (خاراسينى) وعاصمتها خاراكس – وهى مملكة صغيرة مستقلة عند مصب الدجلة والفرات على رأس الخليج، وهى منطقة كان للتدمريين فيها مكاتب وتوكيلات

(34) Plinius, Natural History, V. 88.

(35) J. Starcky Et M. Gawlikowski, Palmyre, Paris, 1985, PP. 37 - 42.
ويستشهد المؤلفان هنا برأى مومسن وكوك وينفقان معهما فى أن تدمر قد فقدت استقلالها وصارت تابعة لروما P. 37.

وعلاقات تجارية - وربما كان الهدف من إرسال المبعوث التدمرى إلى هناك إقامة نوع من التوازن مع نفوذ البارثيين هناك.

- أقام قائد الفرقة العاشرة الرومانية فى سوريا ثلاثة تماثيل تكريما للإمبراطور تيبريوس ولابن أخيه جرمانيكوس وله شخصياً (مينوكيوس روفوس قائد الفرقة العاشرة) فى المعبد القديم للإله بعل فى تدمر، وتم العثور على النقش الإهدائى الذى يسجل إقامة هذه التماثيل قبيل الوفاة المفاجئة لجرمانيكوس عام ١٩م. وربما كانت مناسبة إقامة هذه التماثيل هى قدوم جرمانيكوس إلى تدمر، بصحبة قائد الفرقة العاشرة، بعد أن ثبت دعائم الحكم الرومانى والوصاية الرومانية على أرمينيا، ثم اتجه نحو مملكة الأنباط فى الجنوب، حيث استقبله الحارث الرابع ملك الأنباط.
- أن أحد فقرات التعريفة الضريبية لتدمر من عصر هادريان تذكر بأن جيرمانيكوس قد اشترط دفع الضريبة على الحيوانات بالعملة الرومانية.
- أن الرومان بدأوا يستعينون - منذ عصر قسبسيان - بالرماة التدمريين - المشهود لهم بالكفاءة - فى حروبهم. ويستشهد أصحاب هذا الرأى بفقرة وردت عند جوسيفوس (Jewish Wars III.4.1) استنتجوا منها مشاركة رماة تدمريين لتيتوس فى حربه ضد اليهود وتدميره للهيكل. إن الرماة التدمريين لم يكونوا يشكلون جزءاً من الجيش الرومانى، وإنما كان يتم الاستعانة بهم وقت الحاجة، ويبدو أن تراجان كان أول من شكل وحدة نظامية من التدمريين. ومن المعروف أن تراجان كان قد غزا حدود البارثيين فى بلاد الرافدين، واحتلها مؤقتا عام ١١٦، ولكن عاود البارثيون السيطرة عليها، ثم توفى تراجان بعد قليل عام ١١٧. وبرغم ذلك ظل التدمريون تحت حكم الأباطرة اللاحقين مسيطرين على نقاط حصنية - لصالح الرومان - فى أواسط الفرات حول دورا يوروبوس، وظل هذا الوضع قائما على الفرات حتى غزوات الساسانيين الفرس، أيام الملك أردشير، عام ٢٣٩ ثم شهبور عام ٢٥٣.

لكن هذه الشواهد - في تقديري - لا تكفي لإثبات أن تدمر قد خضعت للسيطرة الإمبراطورية الرومانية وفقدت استقلالها حتى عصر تراجان. إن هذه الأمور مثل إرسال مبعوث تدمري إلى مملكة خاراسيني من قبل جرمانيكوس، وإقامة تماثيل لتيبريوس وجراماتيكوس في معبد بعل بتدمر ربما كانت إشارات لعلاقة ودية بين روما وتدمر وإبداء لحسن النية من جانب تدمر نحو روما لاسيما بعد أن هدأت الأوضاع المتوترة بين الرومان والبارثيين، بعد الاتفاقية التي أبرمت بين الطرفين عام ٢٠ ق.م. كما أن الاستعانة بالرماة التدمريين ضمن الجيوش الرومانية كقوات حليفة أو مساعدة للرومان في أوقات الأزمات، ربما كان كذلك في إطار العلاقات الطيبة بين تدمر والإمبراطورية وهو اعتراف من الإمبراطورية بكفاءة الرماة التدمريين ودليل على حاجة روما إلى مساعدة قوات تدمر.

ويرى نفس هؤلاء العلماء الذين اعتبروا أن تدمر كانت خاضعة لروما، طيلة القرن الأول وفي أوائل القرن الثاني الميلادي أنها أصبحت مدينة حرة بعد أن زارها الإمبراطور هادريان عام ١٢٩م. وأسبغ عليها وضع "المدينة الحرة" وأنه أعاد بناءها من جديد مما حدا بالتدمريين أن يسموا أنفسهم "أهل مدينة هادريان" كما يذكر النحوي إيتيان البيزنطي من القرن الخامس الميلادي. كما أن هناك نقوشاً من تدمر ورد بها عبارات تدل على اقتران تدمر والتدمريين بهادريان مثل "تدمر الهادريانية" (كما ورد في تعريفة تدمر من عصر هادريان)، و"الهادريانى البالميري"، والإشارة إلى زيارة هادريان لتدمر في نقوش أخرى. كما أن هناك قرائن عديدة على ازدهار تدمر الاقتصادي الذي بلغ ذروته في عهد هادريان وإشارات إلى مجلس الشيوخ التدمري وتكوينه، وسلطاته وخصوصاً المالية والتجارية منها، وما كان يصدر عنه من قرارات تكريمية لعلية القوم في تدمر. كما أن هناك إشارات نقشية إلى وجود قوات رومانية في تدمر وكذلك أسماء قادة رومان هناك من عصر هادريان حتى

عصر كومودوس[٣٦].

إن كل هذه القرائن لا توحي بأن تدمر – كما يرى هؤلاء العلماء – قد تحولت من مدينة خاضعة لروما إلى "مدينة حرة" بل ربما كان العكس هو الصحيح برغم هذا المسمى الشرفي. وربما كان هذا التحول وهذا التقارب المتزايد من الرومان من جانب تدمر قد جاء برغبة التدمريين الذين وجدوا أن كفة مصالحهم تميل نحو الرومان أكثر من البارثيين. ولما كان الرومان يعرفون قدر تدمر وكفاءة رماتها، فربما وجدوا أن خير وسيلة للاستفادة المثلى من إمكاناتها هو أن تُنزل منزلتها وتشعر بقدرها، وبذلك يكون الرومان قد ضربوا عصفورين بحجر واحد: تقريب تدمر منهم، والاستفادة القصوى من إمكاناتها، واستقطابها لصفهم على حساب البارثيين، والثاني إسعار التدمريين بكرم وحسن سياسة روما. وفي إطار هذه العلاقات الوثيقة – أو ربما التحالف – بين روما وتدمر نجد الرماة التدمريين يقدمون يد العون للفرق الإمبراطورية في أرجاء عديدة بعيدة وقصية على حدود الإمبراطورية الرومانية، خلال القرن الثاني الميلادي. إذ نرى شواهد نقشية عديدة عن هؤلاء الرماة التدمريين على حدود الدانوب شمالاً وعلى تخوم الصحراء الكبرى الإفريقية جنوباً، بالإضافة – بطبيعة الحال – إلى خدمتهم في المناطق القريبة منهم في ولاية سوريا وفي جنوب لبنان. كما أن ضباطاً تدمريين ووحدات تدمرية قد أسهمت في الحملة الظافرة التي قام بها لوكيوس فيروس – شريك ماركوس أوريليوس في الإمبراطورية ١٦١-١٦٩ ضد البارثيين بقيادة الملك فولجاسيس الرابع، حين غزا الأخير ولاية سوريا الرومانية من جهة الفرات الأوسط، بعد تولي ماركوس أوريليوس العرش، وعلى أثر ذلك قام أفيديوس كاسيوس – والي سوريا – برد هجوم البارثيين – تحت الزعامة الاسمية لفيروس – وسحق قوات البارثيين عند دورا يوروبوس، واسترد بلاد ما بين النهرين، واستولى على سيليوقيا وكتيسيفون عاصمة البارثيين عام ١٦٤-١٦٥.

---

(36) Ibid, PP. 42 - 45.

وهناك قرائن تدل على أن وحدة من الفرسان المحليين فى دورا يوروبوس – من بينهم فرسان ورماة تدمريون – قد تركوا بعض الهدايا والنذور فى معابد لهم هناك فى المستوطنة التدمرية، من عامى ١٦٩ و ١٧٠م. كما تمركز رماة من تدمر فى بيرثا (فى الموقع المسمى الآن حلبية).

وهكذا فإن كل هذه الشواهد المتفرقة تثبت مدى تقدير الرومان لرماة تدمر المهرة حتى إنها كانت تسند إلى بعض الضباط التدمريين المتميزين، من العائلات الكبرى بالمدينة، قيادة بعض الكتائب والأجنحة.[٣٧] وفضلاً عن تميز جند وضباط تدمر من الرماة المهرة، فقد كانت هناك شخصيات تدمرية أخرى مرموقة حظيت بتقدير مواطنيها بل وبتقدير الرومان على أعلى المستويات. فها هو أحد شخصيات تدمر البارزة من القرن الثانى ويدعى سوادوس (سواد) يحظى بالتكريم من جانب الأباطرة هادريان ثم أنطونينوس بيوس ومن جانب مواطنيه فى تدمر، وفى المستوطنات التدمرية على طرق التجارة فى خاراكس على رأس الخليج وغيرها، الذين أقاموا له التماثيل تقديراً لورعه وحبه لمواطنيه، ومساعداته القيمة لمواطنيه وتجار القوافل والسفراء، وقد كان له نفوذ كبير فى مدينة تدعى فولوجسياد (ربما فى بلاد البارثيين أو قريبا منها كما يتضح من اسمها) حيث كان يسخو بماله وثروته ونفسه من أجل الآخرين.[٣٨]

والخلاصة أننا من خلال هذا الرصد لعلاقة تدمر بروما، على مدى القرنين الأولين من الإمبراطورية الرومانية، ربما أمكننا أن نميز بين مرحلتين: القرن الأول حين كانت علاقات روما بتدمر حيادية إلى حد ما، حيث كانت تدمر تحاول أن تقيم علاقات متوازنة نسبيا مع كل من الرومان والبارثيين، أما القرن الثانى فقد كانت تدمر

---

(37) Ibid. PP. 45 - 49.

(38) Ibid. pp. 49, 76, G.W. Bowersock, Roman Arabia, Harvard Univ. Press, 1983, p. 129 and note 28.

أكثر انفتاحاً على الرومان وارتباطاً بهم وإن ظلت" مدينة حرة لم تفقد حريتها واستقلالها برغم علاقتها الوطيدة بروما. إن ميزان علاقات تدمر مع القوتين الكبيرتين حولها شرقاً وغرباً؛ قد مال في القرن الثاني غرباً لصالح الرومان، وخصوصاً بعد انتصارهم على البارثيين في أواخر عصر تراجان.

ونأتي الآن إلى دور تدمر الحيوي النشط في الإمبراطورية الرومانية في ظل حكم الأسرة السيفيرية (١٩٣-٢٣٥م). من المعلوم أن أباطرة هذه الأسرة الحاكمة في روما كانوا من السوريين أو ممن لهم علاقة وطيدة بسوريا (أول أباطرة هذه الأسرة سبتميوس سيفيروس ١٩٣-٢١١ كان من ليبتس ماجنا أو لبدة قرب طرابلس في ليبيا الحالية، وكانت زوجته جوليا دومنا ابنة كبير كهنة إله الشمس في حمص بسوريا). ومن المعلوم كذلك الدور الخطير أو المهم الذي لعبته النساء الحاكمات السوريات من هذه الأسرة مثل "جوليا دومنا" زوجة سبتميوس سيفيروس وأم كاراكلا وجيتا، ثم أختها "مايسا" وابنتاها "جوليا سوايميس" و"جوليا مامايا" وتأثيرهن الطاغي على أولادهن الأباطرة أيلاجابالوس (٢١٨-٢٢٢) ثم سيفيروس الإسكندر (٢٢٢-٢٣٥)، ثم دور رجال القانون ورجال الحرس البرايتوري ذوي الأصول السورية مثل بابنيانوس وأولبيانوس في تسيير دفة الإدارة والحكم الإمبراطوري.

في ظل هذا المناخ السوري الذي صبغ وجه الحياة في روما كان من الطبيعي أن تنال تدمر - تلك الواحة المهمة الغنية في الصحراء السورية - وولاية سوريا إجمالاً؛ حظوة واهتماماً من أباطرة تلك الأسرة. وفي ظل هذا التطور نجد أن تجارة القوافل التدمرية - التي يبدو أنها تدهورت تحت حكم أخر الأباطرة الأنطونينيين - قد استعادت عافيتها وإن اكتنف الأمر بعض الصعاب، مثل استغلال بعض البدو المزعجين لحالة الحرب بين البارثيين والرومان، واضطرار الميليشيات التدمرية للتدخل بالقوة في مناسبات عدة. ومن الثابت أن سبتميوس سيفيروس قد جدد الحملات على البارثيين

الذين تراجعوا إلى بلادهم تلاحقهم قوات سيفيروس التى استولت على مدينة سيليوقية على نهر الدجلة، ثم مدينة كتيسيفون، وسيطرت على معظم بلاد الرافدين، ولكنها فشلت فى الاستيلاء على حصن "هاترا" مرتين عام ١٩٨، ثم مهاجمة كاراكلا للبارثيين فى أواخر حكمه ووصوله إلى أربيل شرق الدجلة، حيث اغتيل بأوامر من ماكرينوس عام ٢١٧. ويذكر فى هذا الصدد أن الحامية الرومانية فى تدمر قد تشكلت عام ٢٠٧ من الكتيبة الأولى الفلافية من الخالكيديين Cohors I Flavia Chalcidenorum التى كانت فى أفريقيا فى القرن الأول، ويرى البعض فى ذلك قرينة على تسارع وتيرة السيطرة Mainmise الرومانية على المدينة منذ عهد سبتميوس سيفيروس.[٣٩] إننى لا أرى – فى الواقع – سيطرة رومانية على تدمر من خلال هذا الإجراء، بل اهتمام من جانب سبتميوس سيفيروس بموطنه الإفريقى (ليدة وطرابلس) وموطن زوجته (ولاية سوريا) وحرص على تقليل الفوارق بين هذه الولايات وروما، وعمله على رفع شأنها وحمايتها من أى عدوان من جانب البارثيين. ولعل دليلى على ذلك أن أول شهادة على عضو فى مجلس الشيوخ الرومانى من تدمر تأتينا من عهد الإمبراطور سبتميوس سيفيروس.[٤٠]

ثم يأتى كاراكلا ابن سبتميوس سيفيروس ويمضى فى طريق أبيه قدماً فيعظم من شأن تدمر ويقربها أكثر من المدن والمستوطنات الرومانية ويمنحها عام ٢١١ وضع المدن الإيطالية وحقوق المواطنة الإيطالية Ius Italicum مثلما فعل مع حمص. وفى عام ٢١٢ أصدر كاراكلا الدستور الأنطونينى الشهير الذى منح بمقتضاه حقوق المواطنة الرومانية لكل الرعايا الأحرار فى الإمبراطورية والذى أصبح الحاصلون على المواطنة بمقتضاه يحملون لقب "أوريليوس" قبل أسمائهم

---

(39) J. Stareky Et M. Gawlikowski, op. cit, p. 52.

(40) Corpus Inscriptionum Semiticarum II. 4202 Apud G.W. Bowersock, op. cit.,p.129 and n. 27.

(نسبة إلى ماركوس أوريليوس أنطونينوس باسيانوس / أى كاركللا)، وفى تدمر أصبح مواطنوها يحملون لقبى "جوليوس أوريليوس" قبل أسمائهم (تكريما لجوليا دومنا أم الإمبراطور وللإمبراطور).[٤١] وفى ظل حكم سيفيروس الإسكندر حدثت تطورات مهمة على الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية، حين سقطت دولة البارثيين وحلت محلها الدولة الفارسية الساسانية التى أسسها أردشير عام ٢٢٣/٢٢٤، والذى استولى عام ٢٢٦ على مملكة خاراسينى (ميسينى) على رأس الخليج الفارسى، والتى كان موقعها مؤثرا للغاية فى التجارة البحرية للتدمريين، ثم اتجه نحو آسيا الصغرى. وفى عام ٢٣٢ أجبر سيفيروس الإسكندر أردشير على إخلاء منطقة ما بين النهرين، وتمركز جزء من القوات الرومانية آنذاك فى تدمر باتجاه الفرات، وقد مر الإمبراطور نفسه بواحة تدمر كما يشير إلى ذلك نقش لتانى اللغة (إغريقى له تكملة باللتدمرية) مقدم من مجلس الشيوخ والشعب فى تدمر تكريما لأحد قادة تدمر من علية القوم، وورد بالنقش ما يفيد وصول الإمبراطور سيفيروس الإسكندر، حين كان ذلك المكرم يتولى قيادة المستوطنة.[٤٢] ومن هناك كان سيفيروس فى طريقه إلى "دورا يوروبوس" على الفرات، حيث لابد أن يكون قد شاهد وقرأ النصب التذاكارى التكريمى الذى أقيم له ولأمه جوليا مامايا عام ٢٣٠ من جانب الكتيبة العشرين التدمرية الملقبة بـ "السيفيرية" التى كانت كتيبة من الرماة الخيالة التدمريين فى "دورا يوروبوس".[٤٣] وهذه الكتيبة كونها سبتميوس سيفيروس، وأول شاهد على وجودها يرجع إلى عام ٢٠٨-٢٠٩، وليس هناك من أمثلة أخرى على "كتيبة تدمرية" أى وحدة تدمرية أدمجت بالكامل فى الجيش

(41) J. Starcky Et M. Gawlikowski, op. cit., pp. 49 - 52.

(42) C.I.S. II. 3932.

(43) F. Cumont, Fouilles De Doura - Europos (1922 - 1923), 2 Vols, Paris, 1926, p. 357, See Also J. Starcky Et M. Gawlikowski, op. cit., pp. 53 - 54.

الرومانى. وهذا يدل على مدى الاهتمام الذى أولاه الأباطرة السوريون لعاصمة الصحراء السورية، وحرصهم على إبراز ذلك الاهتمام.

وفى سياق انتشار القوات التدمرية من الرماة سواء من الخيالة أو على ظهور الهجن فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية وعلى تخومها القصية؛ يمكننا أن نرصد وجوداً عسكرياً تدمرياً استعان به الرومان فى مصر. إن هناك إشارات إلى وجود تجارى تدمرى فى الصحراء الشرقية المصرية، وفى قفط ودندرة من أواخر القرن الثانى الميلادى.[٤٤] أما عن الوجود العسكرى التدمرى فى هذه المنطقة فقد حل "الجناح الطراقى الهرقلى" Ala Thracum Herculanea "الذى كان مقره تدمر؛ محل جناح آخر من الخيالة يدعى Ala Vocontiorum فى قفط بصعيد مصر عام ١٨٣ - ١٨٥.[٤٥] ثم نجد فى قفط نقشا يونانيا مؤرخاً بعام ٢١٦م. (أى من أواخر حكم كاراكالا) يتحدث عن أحد أفراد وحدة من "الرماة الهادريانيين التدمريين الأنطونيانيين".

οʃηφλλ□ριοω □Αδριαυ⊕ν Παλμυρην⊕ν □Αντωνιαν⊕ν τοφοτ⊕ν

قام بتقديم نذر لإله التدمرى الشهير يارحيبول.[٤٦] وفى هذا دليل أكيد على استعانة الأباطرة السيفيريين بالرماة التدمريين فى حراسة طرق القوافل التجارية فى الصحراء الشرقية المصرية

---

(44) J. Schwartz, "Les Palmyreniens et L'Egypte", Bulletin De La Soci été Archeologique d'Alexandrie (BSAA) 46, 1953, pp. 63 - 81, pp. 64 - 65.

(45) L'Année Epigraphique 1933, Nos. 208, 209, 214, J. Lesquier, L'Armée Romaine d'Egypte, Le Caire, 1918, pp. 78 - 83, M.P. Speidel, "Numerus Or ala Vocontiorum at Palmyra ?" Roman Army Studies I, 1984, 167 - 69.

(46) Inscriptiones Graecae ad Res Romanas Pertinentes I 1169 =S.B. 8810.
حول تناول هذا النقش ومحتواه أنظر:
M.P. Speidel, "Palmyrenian Irregulars At Koptos", Bulletin Of The American Society Of Papyrologlists (BASP) 21, 1984, PP. 221 - 24, Starcky Et Gawlikowski, Op. Cit., P. 54, J. Schwartz, Art. Cit., Loc. Cit.

بين البحر الأحمر والنيل، حيث كانت فقط تلعب دورا رئيسياً. هذه الاستعانة بالرماة التدمريين في هذه المنطقة لحراسة قوافل التجارة البرية؛ ربما كان مرده تشابه الظروف بين الصحراء الشرقية المصرية والصحراء المحيطة بتدمر، وربما كان مقصوداً منه كذلك إعطاء دفعة للتجارة الهندية التي كانت مجزية ومربحة لتدمر. كما أن هناك إشارة أخرى إلى هؤلاء الرماة التدمريين في فقط، وردت في أحد النقوش اليونانية المنقوشة على جدران معبد حتشبسوت (الدير البحري) في البر الغربي بالأقصر، وإن كان ناشر النقش يؤرخه بعام ١٠٠م تقريبا من خلال خط النقش.(٤٧)

ونخلص بعد هذا المسح المكثف لطبيعة العلاقات بين روما وتدمر، منذ بداية الإمبراطورية، إلى أن هذه العلاقات كانت قائمة منذ - بل وقبل - نشأة الإمبراطورية، ولكن هذه العلاقات بين الطرفين قويت وتوثقت منذ بدايات القرن الثاني الميلادي، وإن لم تعبر عن هيمنة وسيطرة رومانية على تدمر؛ بقدر ما عبرت عن إعجاب وتقدير لشجاعة وكفاءة الرماة التدمريين، واستعانة بهم في أرجاء عديدة من الإمبراطورية، ومن بينها صحراء مصر الشرقية.

هكذا رأينا كيف لعبت تدمر دوراً حيوياً في الحفاظ على سلامة وأمن الإمبراطورية الرومانية والذود عن حدودها - على مدى القرن الثاني الميلادي وفي ظل حكم الأسرة السيفيرية، من سبتميوس سيفيروس حتى نهاية حكم سيفيروس الإسكندر (١٩٣-٢٣٥م.) - من خلال مشاركة فرسانها المهرة من رماة السهام مع القوات الرومانية في كافة أرجاء الإمبراطورية؛ لقد حظيت هذه المساهمة التدمرية بتقدير واضح من جانب الرومان. ولكن على الجانب الآخر ومع حلول منتصف القرن الثالث الميلادي أو بعده بقليل ربما استشعر التدمريون أن غيرهم من العرب قد سبقوهم في

(47) M.p. Speidel, "Palmyrenian Irregulars....., PP. 221 - 222. E.H. Warmington, The Commerce Between The Roman Empire and India, Cambridge, 1928 (Reprint: London and New York 1974) PP. 136 - 37.

التطلع إلى – والفوز بـ – مراكز مرموقة فى سُدة الحكم فى الإمبراطورية الرومانية، وهى مراكز كانوا هم أجدر بتوليها بحكم تاريخهم الطويل فى خدمة الإمبراطورية الرومانية والولاء لها[٤٨]. فحتى ذلك التاريخ كانت نساء الأسرة السيفيرية جوليا دومنا (زوجة سبتميوس سيفيروس وأم كاراكلا وجيتا) ثم شقيقتها جوليا مايسا، وابنتاها الأرملتان جوليا سوايميس وجوليا مامايا، قد لعبن أدواراً مؤثرة للغاية فى البلاط الرومانى، حيث كُنّ – بلا مبالغة – صانعات الأباطرة ولهن الكلمة العليا فى الحياة السياسية الرومانية؛ هؤلاء النسوة السوريات كُنّ ينحدرن من عائلة كبرى ثرية فى حمص، كانت تتمتع بمركز كهنوتى كبير فى عبادة رب الشمس الفينيقى فى تلك المدينة. وبعد سنوات قليلة من سقوط تلك الأسرة؛ ما لبث أن اعتلى العرش الرومانى عربى آخر هو الإمبراطور "فيليب العربى" (٢٤٤-٢٤٩م.) من حلب الشهباء فى سوريا. هذا الإمبراطور ذو الأصل العربى؛ تصادف أن احتفل – خلال فترة حكمه القصيرة – بالعيد الألفى لنشأة مدينة روما عام ٢٤٧م. فى احتفالات باذخة وأثار حنق المصادر الرومانية اللاحقة التى أوسعته ذماً وقدحاً وتجريحاً بسبب أصوله العربية[٤٩]. وبعد سقوط فيليب العربى ببضع سنوات تجددت وتواصلت الأعمال العدائية من جانب الدولة الفارسية الساسانية – التى كان فيليب الأول قد أبرم اتفاقية سلام معها – واختار الفرس بقيادة ملكهم الشهير شهبور الأول فترة الفوضى التى أعقبت مصرع الإمبراطور ديكيوس لشن هجوم وغزو كبير على الولايات الرومانية فى سوريا عام ٢٥٣. إن النقش الشهير للملك الفارسى شهبور الأول – ثانى ملوك

---

(48) G. W. Bowersock, op. cit., p. 129.

(49) محمد السيد عيد الغنى، "الإمبراطور فيليب العربى فى المصادر الرومانية - رؤية نقدية للعنصرية الرومانية" فى ("الندوة العالمية لعلاقات الجزيرة العربية بالعالمين اليونانى والبيزنطى - القرن الخامس ق.م. إلى القرن العاشر الميلادى" / ٦ - ١٠ ديسمبر ٢٠١٠ - الرياض) المنشور فى سجل أبحاث الندوة - الرياض - ٢٠١٢ - المجلد الأول - ص ص ٢٥٥-٢٧٥.

الإمبراطورية الفارسية الساسانية (٢٤١-٢٧٢م.) - والمعروف بـ Res Gestae divi Saporis (RGDS) والذى يسجل فيه حملاته ومنجزاته العسكرية؛ يُعلمنا أنه قد قام بحملة عسكرية وصلت إلى أنطاكية غرباً، وتضمنت القضاء على أعداد كبيرة من القوات الرومانية، كما أن مصدراً يونانياً متأخراً هو Malalas يسجل لنا سقوط أنطاكية فى ذلك العام فى أيدى الفرس، ويعزوه إلى خيانة من الداخل على يد مغامر من أهلها يُدعى Mariades[٥٠]. ويواصل نفس المصدر المتأخر (مالالاس) حديثه عن تلك الحملة للملك الفارسى شهبور الذى حاول كذلك الاستيلاء على مدينة حمص ولكن محاولته باءت بالفشل نتيجة للمقاومة الشديدة التى أبدتها تحت زعامة كاهن لأفروديتى (عشتار) فى المدينة يُدعى Sampsigeramus[٥١].

إن هذا الكاهن الحمصى يستدعى منا أن نتوقف أمامه قليلاً، بحكم أنه يمثل امتداداً للشخصيات العربية السورية التى تطلعت إلى ارتقاء عرش الإمبراطورية الرومانية، وتلك التى اعتلته فعلياً منذ بدايات القرن الثالث الميلادى. فمثلما حدث مع فيليب العربى تصدر المشهد تلك الشخصية العربية البارزة لمجابهة الأزمة الناجمة عن التهديد الفارسى، وترتب على ذلك انسحاب الملك الفارسى شهبور بقواته عبر الفرات بعد محاولته الفاشلة الاستيلاء على حمص. وهناك شبه إجماع بين العلماء على أن هذا الكاهن الحمصى هو نفسه القائد الذى أقدم على اغتصاب العرش الرومانى الإمبراطورى عام ٢٥٣م. تحت اسم L. Julius Aurelius Sulpicius Uranius Antoninus واشتهر باسم Uranius واتخذ لقب أنطونينوس فى ختام اسمه، لكى يصطنع لنفسه ثمة علاقة وصلة بالأباطرة العرب الأنطونيين من عائلة جوليا دومنا. إن أول من لفت الانتباه إلى أن (أورانيوس أنطونينوس) مُدّعى (مغتصب) العرش الرومانى - الذى لم يحظ بأى

(50) G. W. Bowersock, op. cit., p. 127; G. Downey, Ancient Antioch, Princeton, 1963, p. 112.

(51) Malalas, Chronographia by L. Dindorf, Bonn, 1831, pp. 295-96.

اعتراف رسمي – هو نفسه الكاهن الحمصي سامبسيجيراموس – هو العالم H. R. Baldus في كتابه عن أورانيوس أنطونينوس[٥٢]. فقد ربط هذا العالم بين ظهور عملات تحمل اسم أورانيوس أنطونينوس كإمبراطور روماني جديد – وهي العملات التي سكت في حمص عام ٢٥٣ – وبين تصدي الكاهن الحمصي سامبسيجيراموس لمحاولة الفرس الاستيلاء على حمص وردهم على أعقابهم في ذات العام. ومن هذا التزامن خلص Baldus إلى أن الشخصيتين المشار إليهما في المصدر الأول (مالالاس) والعملات الحمصية، هما ذات الشخصية، لاسيما وأن الحدثين يؤرخان بذات العام، ومن نفس المدينة حمص. ومن هنا استنتج بالدوس أن اسم أورانيوس أنطونينوس ما هو إلا الاسم المتأغرق لذلك الكاهن العربي الذي كان يُدعى باللغة المحلية سباسميجيراموس. وقد لقي هذا الرأي قبولاً وإقراراً لدى عدد من العلماء من بعده[٥٣].

لنعد الآن مرة أخرى إلى المواجهات الفارسية – الرومانية في الشرق في أثناء فترة حكم شهبور الأول لاسيما في بقية عقد الخمسينيات من القرن الثالث الميلادي. لقد شهد عام ٢٥٣ السالف الذكر ارتقاء إمبراطور جديد هوفاليريانوس عرش الإمبراطورية وكان هو خامس إمبراطور روماني على مدى السنوات الخمس السابقة المضطربة، وهم بالترتيب: فيليب، وديكيوس، وتريبونيانوس جالوس، وأيميليانوس، ثم أخيراً فاليريانوس. هذه الأوضاع المضطربة – وعدم قدرة الرومان على مجابهة الخطر الفارسي الرابض على الحدود الشرقية أو بلورة سياسة خارجية متماسكة وصادة – قدمت فرصاً سانحة لاستمرار بروز وتقدم قيادات عربية تحتل صدارة المشهد في القسم

(52) H. R. Baldus, Uranios Antoninus; Münzenprägung und Geschichte (1971), pp. 236-250.

(53) L. de Blois, "Odaenathus and the Roman-Persian War of 252-265 A.D.", Talanta 6, 1975, pp. 7-23, p. 9; Idem, The Policy of the Emperor Gallienus, Leiden, Brill, 1976, p. 2; G. W. Bowersock, op. cit., pp. 127-128.

الشرقى من الإمبراطورية الرومانية[٥١]. وقد كان آخر تلك الأمثلة حتى الآن القائد الكاهن أورانيوس / سباسميجبراموس الذى طمع فى العرش الإمبراطورى الرومانى، وسك عملات باسمه فى حمص، زاعماً أنه إمبراطور رومانى جديد، برغم عدم الاعتراف به مطلقاً فى عاصمة الإمبراطورية فى روما. ولكن بعد اعتلاء فاليريانوس العرش الرومانى تغير المشهد السياسى فى شرق الإمبراطورية الرومانية بعض الشئ: لقد أدرك فاليريان أنه بصدد اضطرابات خطيرة فى الشرق، ولذلك قرر أن يذهب إلى هناك بنفسه عام ٢٥٤، ووصل إلى أنطاكية واستردها عام ٢٥٥ فى يناير من ذلك العام – كما هو ثابت من أحد النقوش – وأعاد الأمن والنظام إلى سوريا وكابادوكيا، واستأصل شأفة أورانيوس أنطونينوس الذى لم يرد له أى ذكر بعد عام ٢٥٤، وعاد بعد ذلك فى العاشر من أكتوبر عام ٢٥٦ إلى روما. وتظهر العملات الصادرة عن دار المسك فى روما، من عامى ٢٥٦ و٢٥٧، فاليريانوس وابنه جالينوس الذى كان شريكاً فى الحكم مع أبيه فى الفترة من ٢٥٣–٢٦٠[٥٢]، وهما يحتفلان بعودتهما إلى روما وتولى منصب القنصلية عن عام ٢٥٧[٥٣].

ولكن الأمور فى الشرق لم تقف عند هذا الحد، بل دخلت الحرب بين الفرس والرومان مرحلة جديدة: ففى عام ٢٥٥ فرض الفرس حصاراً طويلاً وممتداً على دورا – يوروبوس – الحصن الرومانى على نهر الفرات منذ عام ١٦٥م. – وانتهى هذا الحصار بإسقاط دورا يوروبوس فى أيدى الفرس الساسانيين عام ٢٥٦ أو ٢٥٧[٥٤]. وعلى أثر ذلك اجتاح الفرس سوريا وخربوها مرة أخرى، وأعادوا الاستيلاء على

---

(54) Ibid.

(55) M. Grant, The Roman Emperors, New York, 1985, pp. 163-164, 168.

(56) L. de Blois, "OGaenathus and the Roman-Persian War ...", p. 9.

(57) Simon James, "Dura-Europos and the Chronology of Syria in the 250s A.D." in Chiron 15, 1985, pp. 111-124; David MacDonald, "Dating the Fall of Dura-Europos" in Historia 35, 1986, pp. 45-68.

أنطاكية فى هجوم مباغت[٥٨]، وساعدهم فى إنجازه ذلك المغامر الأنطاكى الخائن ماريادیس (كيرياديس/باليونانية) الذى سبقت الإشارة إليه. وعلى أثر تلك الأحداث عاد فاليريانوس من جديد إلى الشرق عام ٢٥٦ ومعه جيش كبير يقارب السبعين ألفاً من كافة أرجاء الإمبراطورية الرومانية، إذا صدقنا ما جاء فى نقش الملك شهبور (نقش رستم) RGDS. فى بداية هذه الحملة استعاد فاليريانوس أنطاكية وأحرز بعض النجاحات المحدودة، ولكن فى العام التالى ٢٥٨ اجتاح القوط القسم الغربى من آسيا الصغرى، وعاث برابرة آخرون فساداً ونهباً فى كابادوكيا؛ التى كان يتهددها كذلك غزو فارسى قادم من أرمينيا. وقد نقل فاليريانوس مقر قيادته من أنطاكية إلى ساموساطا (سيميساط عند أعالى نهر الفرات) وسار بمعظم جيشه نحو كابادوكيا لمجابهة المخاطر هناك، ولكن جيشه عانى من المجاعة، إذ كانت المنطقة قد عانت من الخراب الشديد، كما أهلك الوباء خيرة جنوده (Zosimus 36.1). وفى عام ٢٥٩ عاود شهبور هجماته على المواقع الرومانية فى منطقة بين النهرين وطوّق مدينة إديسا (الرها) دون أن يحقق نجاحاً مشهوداً. وقد شجع صمود إديسا فاليريان على السير بجيشه لملاقاة الجيش الفارسى بقيادة شهبور. ولكن هذا الأخير انتصر على الجيش الرومانى وأسر الإمبراطور فاليريان بكلتا يديه، طبقاً لنقش شهبور، وقد حدث ذلك – حسب رأى عدد من العلماء – فى صيف عام ٢٥٩[٥٩]. إن هذا الأسر المهين للإمبراطور فاليريان، من جانب الملك شهبور، مثّل وصمة عار لا تُمحى فى جبين الإمبراطورية الرومانية، حيث تعرض الإمبراطور لإذلال بالغ ومات وهو فى الأسر[٦٠].

---

(58) Ammianus Marcellinus 23.5.3 and Libanius, Orationes, 24, 38.

(59) L. de Blois, "Odaenathus .....", pp. 10-11 and n. 18; idem, The Policy of the Emperor Gallienus, p. 2.

(60) Zosimus 36.2.26-28:
καὶ ἂν ἀξιολόγου τιμῆς καταστῶ παρὰ Πέρσαις τὴν βέβαιον ἐπέλπισεν, μεγίστην αἰσχύνην ἂν τοῦτο μετὰ ταῦτα τῷ Ῥωμαίων ὀνόματι καταλελοιπὼς.

وبعد أسر فاليريان غزا الفرس سوريا واستولوا على أنطاكية، وشقوا طريقهم إلى قيليقيا وكابادوكيا، وأطلقوا العنان لأعمال السلب والنهب، وخرجوا عن نطاق النظام والسيطرة، وتحولوا إلى عصابات للسلب والنهب، إلى أن تصدى لهم – في شكل حرب عصابات – كل من ماكريانوس في ساموساطا وباليمنا في قيليقيا (الأول هو أمين الخزانة الإمبراطورية وسكرتير الإمبراطور، والثاني ضابط نظامي في الجيش الروماني)، وقد أحرزا بعض النجاحات التي أجبرت عصابات النهب الفارسية على التراجع. لقد وقعت تلك الأحداث فيما تبقى من عام ٢٥٩ والأشهر الأولى من عام ٢٦٠[٦١].

في تلك الظروف العصيبة المأسوية التي أعقبت أسر فاليريان، وانطلاق أعمال السلب والنهب الفارسية للمناطق الشرقية من الإمبراطورية الرومانية (في آسيا) من عقالها، برز على مسرح الأحداث – وبقوة – شخصية عربية تدمرية شهيرة تمثلت في أذينة ملك تدمر الذي مثّل طوق النجاة للرومان، والذي أنقالهم من كبوتهم وحفظ لهم قدراً من ماء الوجه. إن هذا الظهور القوي والمفاجئ لشخصية أذينة، بعد أسر الإمبراطور فاليريان وما أعقبه من اجتياح فارسي لولاية سوريا عام ٢٥٩ – ٢٦٠م، وعدم ورود أي ذكر له ولأنشطته – قبل ذلك التاريخ، في المصادر الرومانية – يثير أسئلة عديدة عن الكيفية التي دفعت به إلى بؤرة الضوء والشهرة، بعد هجماته المباغتة على الفرس في ذلك الوقت. كما يثير ذلك أيضاً تساؤلات عن دوره وأنشطته قبل ذلك التاريخ، وهل كانت تدمر طرفاً محايداً في الصراع الروماني – الفارسي، أم كانت حليفاً نشطاً لأحد الطرفين؟ إن أحد الباحثين يحاول الإجابة عن هذه الأسئلة المحيّرة، ويرصد مراحل صعود أذينة ودوره في الصراع الفارسي الروماني. ويخلص هذا الباحث – من خلال رصده وقراءته لبعض الروايات اليهودية عن يهود بابل في تلك الفترة، وبعض روايات التلمود البابلي التي يفسرها على أنها تشير إلى أذينة تحت اسم بابا بن ناصور،

(61) L. de Blois, "Odaenathus ....", p. 11 n. 19; idem, The Policy ....., pp. 2-3.

متفقاً فى ذلك مع بعض التأويلات السابقة – إلى أن أذينة كان محارباً نشطاً وحليفاً للرومان ضد الفرس من قبل عام ٢٥٩[٦٢]. ويؤكد ذلك الباحث على أن أذينة (أو بابا بن ناصور بحسب المصدر اليهودى Sherira[٦٣] الذى يتشكك بعض العلماء فى مصداقيته[٦٤] ولكن يدافع الباحث بقوة عنه) قد كان بالفعل حليفاً نشطاً للرومان يتمتع بمكانة مرموقة، وربما كانت هناك قوات رومانية تحت تصرفه، قبل أن يُمنى فاليريان بتلك الهزيمة الساحقة على يد شهبور عام ٢٥٩.

ويروى أحد المصادر أن أذينة – خلال المراحل الأولى من الصراع الفارسى الرومانى الممتد بين عامى ٢٥٢–٢٦٤ – كان يعتزم أن يأخذ جانب الفرس ويدير ظهره للرومان، لاسيما وأن الفرس قد اثبتوا وبرهنوا فى تلك المرحلة أنهم قوة كبرى. ويقول المصدر: إن أذينة قد بعث بسفارة إلى الملك شهبور، وأن سفراءه قد عرضوا على الملك شهبور هدايا وطلبوا منه إبرام معاهدة، فما كان من الأخير إلا أن ألقى بالهدايا فى نهر الدجلة وطالبهم بالخضوع غير المشروط لسلطته[٦٥]؛ وعليه بدّل أذينة موقفه وانحاز إلى صف الرومان ضد الفرس. أما عن توقيت هذا التغير فى موقف أذينة؛ فيرى L. de Blois أنه قد حدث قبل عودة فاليريان إلى الشرق للمرة الثانية بعد أن كان الفرس قد قاموا بحملتهم الناجحة عام ٢٥٥/٢٥٦ والتى أسفرت عن سقوط دورا – يوروبوس، وأن أذينة ظل حنيفاً مخلصاً لفاليريان، وأنه حصل – بمقتضى ذلك – على لقب التميز القنصلى Vir Clarissimus Consolaris عام

(62) Idem., "Odaenathus...", pp. 12-18.

(63) Iggereth Rav Sherira Gaon, ed. B. Lewin, Haifa, 1921.

(64) J. Neusner, A History of the Jews in Babylonia, II: The Early Sassanian Period, Leyde, 1966, p. 50.

(65) Petrus Patricius, FHG IV (Muller), Paris, 1885, p. 187, fr. 10 apud L. de Blois, "Odaenathus...", p. 18 and note 50; G.W. Bowersock, op. cit., p. 130 and note 29.

٢٥٨[٦٦].

هذه كانت البداية المميزة للتحالف بين أذينة والإمبراطور الرومانى فاليريان (وابنه وشريكه فى الحكم جالينوس)، ولكن دوره الحقيقى والبالغ الأهمية سوف يتجلى كحامى للحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية على أثر الهزيمة الساحقة والأسر المهين للإمبراطور فاليريان عام ٢٥٩.

رأينا، أعلاه، اجتياح الفرس عام ٢٥٩ وأوائل ٢٦٠ لمدن سوريا ومناطق من آسيا الصغرى، وأعمال السلب والنهب والتخريب التى اقترفتها عصاباتهم هناك، إلى أن تصدى لهم – فى صورة حرب عصابات – كل من ماكريانوس وباليستا، وأجبروهم على التراجع والانسحاب نحو الشرق. وفى أثناء انسحاب القوات الفارسية هاجم أذينة تلك القوات وألحق بها هزيمة ساحقة[٦٧]. كما أنه من الجدير بالذكر فى هذا المقام: أن الجنود الرومان فى الشرق قد هتفوا بأبناء ماكريانوس أباطرة، وتوجه ماكريانوس وابنه الأكبر إلى أوروبا ومعهم معظم القوات التابعة لهما وذلك لحسم الموقف مع جالينوس ابن فاليريان – الإمبراطور الشرعى – وقد لقى الأب وابنه الأكبر (ماكريانوس الأصغر) حتفهما بعد هزيمة قواتهما فى ميدان المعركة فى بانونيا، على يد أوريولوس أحد قادة جالينوس الكبار[٦٨]، الذى انشق على جالينوس وأعلن نفسه إمبراطوراً فى الليريكوم. أما فى الشرق فقد أكمل أذينة المهمة بالقضاء على الابن

---

(66) L. de Blois, loc. cit.; see CISem. II 3945=IGR III 1031 [λαμπ(ρ)τατου | πατικ]ίου, Palmyra, datd August 258 (the restorations are assured by the Syriac version) apud A.H.M. Jones, The Prospography of the Later Roman Empire, Cambridge, 1971, vol. I, p. 638 under Septimius Odaenathus.

(67) L. de Blois, "Odaenathus...", p. 11 and n. 29.

(68) S.H.A., The Two Gallieni 2.7: sed victus est Macrianus cum filio Macriano nomine deditusque omnis exercitus Aureolo imperatori; 3.6: Sed Gallienus, cognito quod Macrianus cum suis liberis esset occisus ...

الأصغر لماكريانوس - المدعو كويتوس - إذ أنه حين علم بمصرع ماكريانوس وولده؛ أسرع لإلقاء القبض على الابن الأصغر لماكريانوس والسيطرة على جيشه؛ ولكن حدث أن انقلبت قوات كويتوس عليه وقتلته وعلقت جثته فوق الأسوار واستسلمت هذه القوات بأعداد كبيرة لأذينة - بإيعاز من باليستا الذى ظل مع كويتوس بعد توجه أبيه إلى الغرب - وهكذا أصبح أذينة إمبراطوراً على معظم مناطق الشرق، وبرغم ذلك عبّر عن ولاءه - الشكلى - للإمبراطور جالينوس فى روما، وأحاطه علماً بمجريات الأمور فى الشرق[٦٩]. ويقول كاتب سير التاريخ الأغسطى Trebellius Polio الذى تحدث عن أذينة - كواحد من ثلاثين مدعياً للعرش Tyranni Triginta، أو اختصاراً TT - فى عهد كل من فاليريان وولده جالينوس - أنه لو لم يمسك أذينة أمير تدمر - بمقاليد السلطة الإمبراطورية فى الشرق بعد أسر فاليريان - عندما أنهكت قوة الدولة الرومانية - لضاع كل شئ (على الإمبراطورية) فى الشرق - Nisi Odaenathus, Princeps Palmyrenorum ..... sumpsisset imperium, in oriente perditae res essent، لقد اتخذ بعد ذلك لقب ملك (تدمر) وكانت معه زوجته زنوبيا وابنه الأكبر هيروديس، وقد حشد جيشاً وانطلق لمجابهة الفرس collecto exercitu contra Persas profectus est.

---

(69) Ibid. 3. 1-3:

..., ubi Odaenathus comperit Macrianum cum filio interemptum, ..., festinavit ad alterum filium Macriani cum exercitu, si hoc daret fortuna capiendum. sed ii qui erant cum filio Macriani, Quieto nomine, consentientes Odaenatho auctore praefecto Macriani Ballista iuvenem occiderun missoque per murum corpore Odaenatho se omnes affatim dediderunt. totius prope igitur orientis factus est Odaenathus imperator ...

3.5: Odaenathus inter haec, quasi Gallieni parties ageret, cuncta eidem nuntiari ex veritate faciebat.

وتذكر تلك السيرة أن أذينة قد أخضع لنفوذه نصيبين Nisibis ومعظم الشرق وكافة بلاد ما بين النهرين ثم ألحق الهزيمة بالملك نفسه وأجبره على الفرار، وظل يلاحق الملك الفارسي وأبناءه حتى كتيسيفون وأوقع في الأسر محظياته واستولى على غنائم وأسلاب كثيرة[٧٠]. هذه الأحداث والحملات المظفرة وقعت على مدى الأعوام ٢٦٢-٢٦٤، وأكسبت أذينة شهرة ذائعة وأسبغ جالينوس عليه - طوعاً - ألقاباً تكريمية وشرفية مميزة[٧١]: "مصلح الشرق - Corrector Orientis" و"إمبراطور الشرق كله totius Orientis Imperator" و"ملك التدمريين وصاحب السلطان على الشرق بأكمله (V. Gall. 10. 1): Odaenathus rex Palmyrenorum obtrnuit totius orientis imperium". ولعل أبرز ما يلخص ما حظي به أذينة من تكريم واعتراف بمكانته المرموقة من جانب جالينوس ما ورد في "سيرة جالينوس" في الفقرة التالية ونصها: "في عام قنصلية أخيه فاليريان وقريبه لوكيللوس (٢٦٥) عندما علم (جالينوس) أن أذينة قد سبق له أن قام بتخريب ونهب (أرض) الفرس وأخضع نصيبين وكارهاى لسلطان روما، وجعل كل ما بين النهرين ملكاً لنا، ووصل أخيراً إلى كتيسيفون وجعل الملك يولي الأدبار، وأسر الولاة وقتل أعداداً كبيرة من الفرس، أشركه معه في السلطة الإمبراطورية وأنعم عليه بلقب أغسطس وأمر أن تُسك عملات تكريماً له تظهره وهو يسوق الأسرى الفرس"[٧٢]. ويبدو أن جالينوس قد أراد

---

(70) S.H.A. (Loeb) vol. III, Tyranni Triginta 15. 1-4, (3-4):
Nisibin primum et orientis pleraque cum omni Mesopotamia in potestatem receipt, deinde impsum regem victum fugere coegit. Postremo Ctesiphonta usque Saporem et eius liberos persecutes captis concubinis, capta etiam magna praeda ...
See also: S.H.A.: V. Valeriani 4, 2-4; V. Gallieni 10. 1-8, 12.1.

(71) A.H.M. Jones, op. cit., pp. 368-69; See: S.H.A. (TT. 15, note 1, pp. 104-105) and the index of vol. III under: Odaenathus, p. 504.

(72) S.H.A. (V. Gall. 12.1):
nam consulate Valeriani fratris sui et Lucilli propinqui, ubi comperit

– فضلاً عن أوجه التكريم والمشاركة فى الحكم التى أسبغها علـى أذينـة – أن يـأمن جانب أذينة فى الشرق فأبرم معه معاهدة سلام بعد أن احتفل بمرور عشرة أعوام علـى اعتلائه العرش فى روما (V. Gall. 21. 5):

cum constet et decennalia Romae ad eodem celebrate et post decennalia Gothos abeo victos, cum Odaenatho pacem factam

ويوجز لنا زوسيموس مجمل الدور الذى قام بـه أذينـة فـى إنقـاذ مـصالح الإمبراطورية الرومانية فى الشرق من الانهيار أمام هجمـات الفـرس بقيـادة الملـك شهبور، ولكنه – فضلاً عن المعلومات الموجزة التى أوردها ونعلمها بتفصيل أكثر مـن مصادر أخرى – يدلى بملحوظة جديرة بالتوقف والاهتمام حـين يقـول: *"لقـد كانـت الأوضاع فى الشرق مزرية، كذلك أصدر (جالينوس) تكليفه لأذينـة – وهـو شخـصية تدمرية اعتبرت جديرة بالتقدير بالنظر إلى ما أسداه أسلافه للأباطرة – لتقـديم العـون (للإمبراطورية)"*[٧٣]. إن فى هذه الإشارة من جانب زوسيموس اعتراف من روما بفضل التدمريين ومشاركاتهم النشطة والإيجابية فى حماية حدود الإمبراطورية الرومانية منـذ البدايات المبكرة للإمبراطورية، من خلال كتائب فرسانهم ورماتهم المهرة – كما رأينـا أعلاه – والتى انتشرت فى بقاع عديدة وقصية من الإمبراطورية.

وهكذا نرى مدى أهمية الدور الذى لعبه أذينة فى الحفاظ علـى حـدود وهيبـة الإمبراطورية الرومانية فى الشرق، بعدما تعرضت للمذلة والهوان بعـد أسـر الفـرس

---

ab Odaenatho Persas vestatos, redactam Nisibin et Carrhas in potestatem Romanam, omnem Mesopotamiam nostrum, denique Ctesiphontem esse perventum, fugisse regem, captos satrapas, plurimos Persarum occisos, Odaenathum participato imperio Augustum vocavit eiusque monetam, qua Persas captos traheret, cudi iussit.

(73) Zosimus 39.1:
τοῖῳ δ' περ<= τ↓ν ∞∠αν πρ!ηµασιν ο|σιν Λν □πογν@σε βοηψε∏ν □Οδα<>ναψον ƒταφεν, □νδρα Παλµυρην∫ν κα<= Λκ προγ)νων τ°ω παρ∏ τ↓ν βασιλ.Γων □φιεπψ Γντα τιµ°ω.

لفاليريان. لقد كان من العدل – والحال كذلك – أن يتقاسم أذينة حكم الإمبراطورية كشريك فى الحكم فى قسمها الشرقى مع الإمبراطور الضعيف المتخاذل جالينوس ابن فاليريان الذى بارك وحبّذ قيام أذينة بهذا الدور لأنه لم يكن أمامه خيار آخر!. إن كاتب "سيرة جالينوس" فى S.H.A يشن هجوماً لاذعاً على ضعف جالينوس وتخاذله وانغماسه فى الرذيلة وحياة الدعة والخمول وعدم حماسه لإطلاق سراح أبيه من هوان الأسر الفارسى، ويثنى على الدور العظيم الذى قام به أذينة فى حفظ ماء وجه الرومان وتحقيق انتصارات كبيرة على الفرس[٧٤]. ويروى "كتبة تاريخ الأباطرة" أن جانباً من التوفيق والإنجازات التى تحققت على أيدى أذينة كان يُعزى – فضلاً عن جسارته الفائقة وقوة احتماله الهائلة – إلى زوجته "زنوبيا" التى تحلت بشجاعة غير عادية ربما فاقت شجاعة زوجها، من وجهة نظر الكثيرين: quae multorum sententia fortiori marito fuisse perhibetur. كما يُعزى إلى الإمبراطور أوريليان أنه ربما لا يجاوز الحقيقة إن قال إن انتصار أذينة على الفرس وإجباره شهبور على الفرار وتقدمه حتى (عاصمة الفرس) كتيسيفون كان من صنعها:

possum dicere illius esse quod Odaenathus Persas vicit ac fugato Sapore Ctesiphonta usque pervenit. (S.H.A. TT. 15. 8 and 30. 6).

على أى الأحوال، فإن أذينة – بعدما حظى بهذه المرتبة الرفيعة، وأعاد الأمن والنظام لمعظم مناطق الشرق – قُتل – هو وابنه هيروديس – على يد ابن أخيه مايونيوس – ربما نتيجة لمؤامرة دبرها هذا الأخير – فى عام ٢٦٧ فى حمص، أثناء الاحتفال بأحد الأعياد السنوية هناك[٧٥]. وعلى الرغم من أن أتباع مايونيوس تلذوا به

---

(74) S.H.A. (V. Gall. 10).

(75) S.H.A. (TT: Odaenathus. 15.5:
composito igitur magna ex parte orientis statu a consorbrino suo Maconio, ..., interemptus est cum filio suo Herode; Zosimus 39.2:
Ἀπεκ δ' διατρεσβαν κατ τν Ἔμισαν κακ τινα γενΤψλιον

إمبراطوراً – بعد مقتل أذينة – فإنه لم يكن يحظى بشعبية بين الجيش، بسبب ولعه بالبذخ والرفاهية، ولذلك فما إن وصلت إلى حمص أنباء عن الاعتراف بزنوبيا ملكة في تدمر حتى لقي حتفه على أيدى الجند[٧٦]. وقد أثيرت بعض الأقاويل عن ضلوع زنوبيا مع مايونيوس في مؤامرة اغتيال أذينة وابنه هيروديس[٧٧]. – من زوجة سابقة على زنوبيا – وعزت الشائعات ذلك إلى حنق زنوبيا وخوفها من أن يؤول العرش في تدمر والشرق إلى ابن زوجها – ذلك المخنث المولع بالدعة والترف والحياة الناعمة[٧٨] – على حساب ولديها من أذينة، ولكن يبدو أن تلك الأقاويل لم تكن تستند إلى أدلة قوية[٧٩].

أيا كانت الحقيقة فإن المؤكد أن زنوبيا[٨٠] وابنها الأكبر وهب اللات[٨١] قد

□γαν ∞ορητ↓ν ∧φ ∧πιβουλ°ω □νηρΥψη.

(76) E. S. Bouchier, Syria as a Roman Province, Oxford, 1916, p. 144. See S.H.A. (TT. 17. 2-3):
Sed hic (Maeonius) quoque spurcissimus fuit. quare imperator appellatus per errorem brevi a militibus pro suae luxuriae meritis interemptus est.

(77) Ibid. 17.2.:
dicitur autem primum cum Zenobia consensisse (sc. Maeonius), quae ferre non poterat ut privignus eius Herodes, priore loco quam filii eius, Herennianus et Timolaus, principes dicerentur.

(78) S.H.A. TT. 16.1:
Non Zenobia matre sed priore uxore genitus Herodes cum patre accepit imperium, homo omnium delicatissimus et prorsus orientalis et Graecae luxuriae, ... etc.

(79) E. S. Bouchier, loc. cit.

(80) Zosimus 39.2:
... ∧φ ∧πιβουλη□νηρΥψη, τ□ν ∧κεῖσε πραγμ□τσν □ντιλαμβ□νεται Ζηνοβ∈ϑα, συνοικο\σα μ'ν □Οδαιν□ψ⊗; S.H.A.: V. Gall. 13.2-3; TT. 27.1; 30.2-3; V. Aurel.

(81) من الغريب أن "كُتّاب سير الأباطرة S.H.A." لم يشيروا إلى "وهب اللات" سوى إشارة واحدة فى "سيرة الإمبراطور أوريليان" ففى مواضع التوثيق فى الحاشية السابقة

اشتركا معاً في حكم الشرق، وورثا كافة السلطات التي سبق أن منحها الرومان (الإمبراطور جالينوس) لأذينة. لقد جذبت شخصية زنوبيا اهتمام الكتّاب الرومان الذين تحدثوا عن هذه الشخصية المرموقة بحماس وثناء بالغ نادراً ما أبدوه تجاه عدو انتصروا عليه في نهاية المطاف. وقبل أن نفيض في الحديث عن سمات شخصية وتميز زنوبيا، كما تجلت في المصادر الرومانية يجدر بنا – بحكم أن عنوان هذا البحث "مصر بين روما وتدمر" – أن نبرز علاقة زنوبيا بمصر كما ألمحت إليها هذه المصادر ذاتها. إذ تذكر تلك المصادر من "كتبة التاريخ الأغسطي S. H. A." أن زنوبيا كانت "تفاخر بانتماءها إلى عائلة الكليوباترات والأسرة الحاكمة البطلمية"[٨٢] وأنها "كانت تتحدث اللغة المصرية بطلاقة"[٨٣] وأنها "كانت ترتاد – هي وأولادها –

(من كتّاب التاريخ الأغسطي سير الأباطرة) نجد زنوبيا قد تسلمت السلطة بعد اغتيال زوجها أذينة لأن ولديها (هيرينيانوس وتيمولاوس) كانا طفلين قاصرين فاضطلعت هي بمهام السلطة وحكمت لفترة طويلة كوصية عليهما. ولكن مترجم هذا الجزء (الثالث) من سير الأباطرة في طبعة لويب D. Magie أبدى - أكثر من مرة - تعليقاً على هذه المعلومة مفاده أن (S.H.A.) هو المصدر الوحيد الذي أورد سيرة هذين الابنين لأذينة وزنوبيا، وليس هناك من مصدر آخر يؤكد تلك المعلومة. ويؤكد أن ابن أذينة الذي تلاه في تولي عرش تدمر عام ٢٦٦ / ٢٦٧ - بالمشاركة مع أمه زنوبيا - هو "وهب اللات / أثينودوروس"؛ ويُضيف أن الإبنين الآخرين - المشار إليهما أعلاه - لم يحكما مطلقاً بحكم كونهما الابنين الأصغر - هذا إن صدقنا أنهما قد وُجدا من الأساس. أنظر: (TT. 27.1, note; 30.1-3, notes)

ولكن كاتب سيرة الإمبراطور أوريليان قطع الشك باليقين ونفى تلك المقولة - التي يبدو أنها كانت شائعة - عن هذين الأميرين الصغيرين (هيرينيانوس وتيمولاوس) حين ذكر (V. Aurel. 38.1):

"إنني اعتقد أن زنوبيا قد تقلدت السلطة الإمبراطورية التي شغلتها بالفعل باسم ولدها وهب اللات وليس باسم ولديها تيمولاوس وهيرينيانوس".

... arbitror, Vaballathi filii nomine Zenobiam, non Timolai et Hereaniani, imperium tenuisse quod tenui.

(82) TT. 30.2: ... nomine Zenobia, de qua multa iam dicta sunt, quae se de Cleopatrarum Ptolemaeorumque gente iactaret, ...

(83) Ibid. 30. 21:

المجالس العامة وهى فى زى الرجال، وقد احتذت فى ذلك حذو ديدو وسميراميس وكليوباترا مؤسسة أسرتها، وآخريات غيرهن»[٨٤].

إن تشبه زنوبيا بكليوباترا يتجلى أكثر ما يتجلى فى الجوانب الفكرية والثقافية، إذ كانت زنوبيا تولى عناية خاصة برجال الفكر والأدب واللاهوت المسيحى واليهودى، ولعل من أبرز الأسماء اللامعة التى اقترنت بزنوبيا الفيلسوف المشهور لونجينوس والأسقف بول السيمساطى، أسقف أنطاكية الشهير والمثير للجدل من عهد زنوبيا[٨٥]. وكانت – مثل كليوباترا –[٨٦] واسعة الاطلاع وعلى إلمام بعدد من اللغات – فضلاً عن إجادتها للعربية والمصرية – كاليونانية والآرامية واللاتينية، وقد كتبت مؤلفاً قصيراً عن تاريخ الإسكندرية والشرق، من نتاج علمها الوفير بهذه الموضوعات، كما قرأت تاريخ الرومان باليونانية، لأنها رغم معرفتها اللاتينية إلا أنها لم تكن تجيدها وكانت تتهيب الحديث بها، وإن حرصت على اتقان أولادها للاتينية[٨٧].

---

loquebatur et Aegyptiace ad perfectum modum.

(84) Ibid. 27.1:
... adhibens contionibus, quas illa viriliter frequentavit, Didonemet Semiramidem et Cleopatram sui generis principem inter cetera praedicans.

(85) للمزيد من التفاصيل حول البيئة الثقافية والفكرية المتنوعة والثرية فى تدمر وانطاكية ومنطقة سوريا فى عهد زنوبيا،انظر المقالة الغنية والمتميزة لـ F. Millar
Fergus Millar, "Paul of Samosata, Zenobia and Aurelian: The Church, Local Culture and Political Allegiance in Third Century Syria", J.R.S. 61, 1971, pp. 1-17.

(86) Plutarch, Parallel Lives, Marcus Antonius 27.
انظر كذلك: محمد السيد عبد الغنى، مجتمع الإسكندرية القديم، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٨، البحث الثالث "مكتبة الإسكندرية وعصر كليوباترا السابعة" ١٢١ - ١٣٢.

(87) S.H.A. TT. 30. 20-22:
filios Latine loqui iusserat, ita ut Graece vel difficile vel raro

أما من حيث جمالها الأنثوى فربما فاقت كليوباترا إذ يروى كاتب سيرتها أنها كانت ذات جمال أخاذ، وأسنانها كحبات اللولو ناصعة البياض، مع سمرة بشرتها وسواد عينيها، وإن كان صوتها واضحاً أشبه بصوت الرجال، وكانت تتسم بحزم الطغاة وسماحة الأباطرة الطيبين، حسب مقتضى الحال، فلكل مقام مقال[٨٨].

ولنا هنا وقفة قصيرة وملاحظة سريعة جديرة بالتنويه والتفسير: على الرغم من أن كلتا الملكتين كليوباترا (السابعة) وزنوبيا قد شكلتا تهديداً مباشراً وخطراً داهماً على مصالح الرومان فى شرق المتوسط، برغم الفاصل الزمنى الذى يناهز ثلاثة قرون بينهما – وعلى الرغم من أن زنوبيا كانت تفاخر – كما رأينا – بأنها من سلالة البطالمة والكليوباترات، وعلى الرغم من أن مصير كلتيهما كان الهزيمة على يد الرومان فى نهاية المطاف، فإن مواقف المصادر الرومانية من كل منهما تباينت بصورة تدعو إلى العجب! فقد هجت المصادر الرومانية – فى عهد اغسطس ومن بعده – كليوباترا ولم تترك نقيصة إلا ورمتها بها، ولا سباباً بذيئاً فاحشا إلا ونعتتها به، فى حين تحمست المصادر الرومانية اللاحقة على زنوبيا لها إلى أبعد حد، واسبغت عليها المديح والثناء والتمجيد كما رأينا وسنرى، وهو الأمر الذى يثير تساؤلاً حتمياً عن سبب هذا التباين فى مواقف ورؤى الرومان تجاه هذه وتلك! هناك تأويلات عديدة يمكن أن تسهم فى تفسير هذا التباين، ويأتى على رأس هذه التأويلات أن زنوبيا – عكس كليوباترا – لم تقم أية علاقة عاطفية أو خاصة مع أى من أباطرة أو قادة الرومان، وبالتالى لم تُحدث شرخاً أو تصدعاً فى كيان الإمبراطورية، كما فعلت كليوباترا من خلال علاقاتها مع قيصر، ثم ماركوس أنطونيوس، والتى جلبت عليها نقمة الرومان وسبابهم، من خلال الآلة الإعلامية الرهيبة فى البلاط

---

loquerentur. ipsa Latini sermonis non usque quaque gnara, sed ut loqueretur pudore cohibito; loquebatur et Aegyptiace ad perfectum modum. historiae Alexandrinae atque orientalis ita perita ut eam epitomasse dicatur; Latinam autem Graece legerat.

(88) Ibid. 30. 15-16.

الإمبراطوري من عهد أوكتافيان (أغسطس) وبعده. كما أن زنوبيا – برغم أنوثتها وجمالها – كانت غاية في الحزم وتشبهت بالقادة الرجال، وحمت – هي وابنها وهب اللات ومن قبلها زوجها أذينة – الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية – وإن كانت هي الحاكم الفعلي مع سيادة إسمية للرومان – ضد عدوان الفرس في عهد واحد من أقوى ملوك الأسرة الساسانية، وهو شهبور الأول صاحب النقش الشهير RGDS والذي سبق أن أوقع الإمبراطور فاليريان في الأسر. لعل هذا هو ما شفع لزنوبيا عند الرومان، فضلاً عن شخصيتها القوية وحكمتها البالغة.

ولعل خير ما يدلل على مدى إعجاب الرومان بسمات شخصية زنوبيا ذلك الخطاب المنسوب إلى الإمبراطور أوريليان والوارد في سيرة زنوبيا عند "كتبة التاريخ الأغسطي SHA". إذ يذكر كاتب تلك السيرة الموجزة: أن البعض قد وجه اللوم إلى أوريليان لأنه – وهو أشجع الرجال vir fortissimos، ساق في موكب نصره إمرأة كما لو كانت قائداً. ورداً على هذا النقد بعث أوريليان برسالة إلى السناتو والشعب الروماني يدافع فيها عن نفسه، ويسوق مبرراته في الأمر، جاء فيها:

" لقد سمعت – أيها الآباء المُسجلون – أن البعض يلومني على تصرفي غير الرجولي حين سقت زنوبيا في موكب النصر. ولكن في الحقيقة فإن هؤلاء الأفراد أنفسهم الذين يلومونني سوف يهيلون عليّ الثناء إذا ما علموا كنه وماهية هذه السيدة: وكم هي حكيمة في المشورة، ورابطة الجأش في تصرفاتها، وحازمة تجاه جنودها، وكم هي سمحة كريمة عندما تقتضي الضرورة وصارمة حين يجد الجد ويستدعي النظام. ولا أبالغ إن قلت أن الفضل في انتصار أذينة على الفرس – حين أجبر شهبور على أن يولي الأدبار وتقدم في طريقه إلى كتيسيفون – يعود إليها. وقد أضيف إلى ذلك أن باعث الخوف والرهبة الذي بثته تلك المرأة في نفوس شعوب الشرق وكذلك المصريين كان كبيراً بدرجة أنه حال دون تمرد العرب أو البدو (سكان الخيام) أو الأرمن عليها. ولم أكن لأعفو عنها وأبقيها على قيد الحياة لولا علمي بأنها قد أسدت خدمة كبيرة للدولة

الرومانية حين احتفظت بالسلطة الإمبراطورية في الشرق لنفسها أو لأولادها ... "[٨٩].

إن بقية ما جاء في هذا الخطاب يبين بجلاء كيف استمرت زنوبيا وأولادها (وعلى رأسهم وهب اللات) تحكم مناطق الشرق الروماني - بعد اغتيال زوجها أذينة - في ظل حكم الإمبراطور جالينوس ثم كلاوديوس القوطي (٢٦٨-٢٧٠م.) وصولاً إلى حكم أوريليان (٢٧٠-٢٧٥) الذي تمكن من إلحاق الهزيمة بزنوبيا وأسرها، وقضى على حكمها في تدمر والشرق عام ٢٧٢. ففي هذا الخطاب المنسوب لأوريليان يستكمل حديثه السابق مُردفاً:

"لذلك فعلى من لا يعجبهم شئ أن يحتفظوا بسموم ألسنتهم لأنفسهم. إذ لو كان من غير اللائق التغلب على امرأة وسوقها في موكب النصر، فما قولهم وما بالهم بجالينوس الذي حكمت (هذه السيدة) الإمبراطورية بكفاءة احتقاراً له؟ وماذا عن كلاوديوس (القوطي) المؤله، ذلك القائد المبجل المحترم الذي يُقال إنه تحمل - بسبب انشغاله بحملاته ضد القوط - أن تُمسك هي بزمام السلطة الإمبراطورية؟ لقد فعل ذلك عن عمد وبصورة حكيمة، حتى يتسنى له أن يكمل بسلام ما أنجزه بنفسه، في الوقت الذي تتولى هي فيه حراسة الحدود الشرقية للإمبراطورية"[٩٠].

هكذا ظلت الأمور مستتبة ومستقرة لحكم زنوبيا وأولادها في الشرق، في أواخر حكم جالينوس، وتنامى وتوطد نفوذها في ظل حكم كلاوديوس القوطي الذي انهمك في حملاته ضد القوط، تاركاً أمر الشرق لزنوبيا التي توسعت دائرة نفوذها في عهده ووصلت لمصر - كما سنرى - وبلغ النفوذ التدمري أقصى درجاته في بدايات حكم أوريليان، حين أصبح وهب اللات شريكاً رسمياً لأوريليان في حكم الإمبراطورية الرومانية (في الشرق) كما يظهر على العملات[٩١] الرومانية من تلك الفترة. هذه

(89) Ibid. 30. 4-8.

(90) Ibid. 30. 9-12.

(91) A. Alföldi, Studien zur Geschichte der Weltkrise des 3 jahrhunderts nach Christus. Darmstadt, 1967, 55. 155-209 (Die römische

التطورات أزعجت الإمبراطور القوى أوريليان، وأوعزت إليه القضاء على الشريك التدمرى المزعج فى الشرق، وهى تطورات طويلة ومعقدة وجدلية - ليس هنا مجالها - أدت فى النهاية إلى انتصار أوريليان على زنوبيا وجيوش تدمر[٩١] عام ٢٧٢، وأسر زنوبيا وعرضها فى مواكب النصر فى انطاكية ثم روما.

(٢) الحكم التدمرى فى مصر:

استعرضنا، أعلاه بتركيز مكثف، محورين مهمين من محاور هذا البحث المطول. المحور الأول يتصل بالاحتلال الرومانى لمصر فى أعقاب سقوط مملكة البطالمة عام ٣٠ ق.م. والقبضة الصارمة - بل والباطشة فى أحيان كثيرة - على الأوضاع فى مصر والحياة البائسة لغالبية المصريين فى ظل الحكم الرومانى، على مدى القرون الثلاثة الأولى من الحكم الإمبراطورى الرومانى. والمحور الثانى يدور حول العلاقات المتنامية بين روما وتدمر، على مدى القرنين الأول والثانى للميلاد، واختلاف العلماء - كما أسلفنا - فى توصيف ماهية هذه العلاقات، وهل كانت علاقة تبعية من جانب تدمر لروما، أم كانت علاقة ود وتقدير من جانب روما لبسالة ومهارة الخيالة ورماة السهام التدمريين، وما أسدوه من خدمات لحماية حدود الإمبراطورية، بمشاركاتهم النشطة مع القوات الرومانية فى أرجاء الإمبراطورية، ومنها مصر. وامتداداً لهذا المحور رصدنا ما تمتعت به تدمر من مكانة مميزة مرموقة فى ظل أباطرة الأسرة السيفيرية (١٩٣-٢٣٥م.) ذوى الأصول الأفريقية والسورية، ثم صعود شخصيات عربية إلى سدة الحكم فى روما كالإمبراطور فيليب العربى (٢٤٤-٢٤٩)، وغيرهم ممن أدعياء العرش الرومانى مثل أورانيوس / سباسميجيراموس كاهن حمص الشهير (٢٥٣-٢٥٥)، وصولاً إلى الشخصيات التدمرية الشهيرة: أذينة، ثم أرملته زنوبيا، وابنه وهب اللات،

Münzprägung und die historischen Ereignisse im Osten zuischen 260 und 260 n. Chr.).

(92) G. Downey, "Aurelian's victory over Zenobia at Immae, A.D. 272" TAPA 81, 1950, pp. 57-68.

وما قاموا به من أعمال بطولية فى مواجهة الإمبراطورية الفارسية الساسانية، فى زمن الملك الأشهر شهبور الأول، وحمايتهم القوية للحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية، وما ترتب على ذلك من مشاركتهم الفاعلة والحقيقية فى حكم الشرق – مع سيادة رومانية أسمية – فى ظل حكم الإمبراطور جالينوس وكلاوديوس القوطى (٢٦٨-٢٧٠) الذى اتسعت فيه طموحات التدمريين لتضم مصر إلى بقية نفوذهم وسيطرتهم المتنامية على الشرق.

استناداً على ما سبق: نأتى الآن إلى المحور الثالث من هذه الدراسة، والخاص بانتزاع التدمريين لمصر – مؤقتاً من ٢٦٨ إلى ٢٧٣م. – من الحكم الرومانى وإخضاعها للحكم التدمرى. لقد سبق أن رأينا أن الوجود التدمرى فى مصر لم يكن أمراً جديداً إذ كانت كتائب الفرسان والخيالة ورماة السهام التدمريين تنتشر فى صحراء مصر الشرقية، وفى بعض المحطات على النيل مثل قفط، كما كان مشهد التجار التدمريين – ضمن جنسيات أخرى عديدة – أمراً مألوفاً فى مصر. هذه المرة لا يتعلق الأمر بمجرد وجود عسكري أو تجارى تدمري فى مصر – فى ظل الحكم الرومانى – بل بسيادة تدمرية فعلية فى مصر. يبدو أن البصمة المصرية على دوائر الحكم والنفوذ فى تدمر كانت ملحوظة: فقد رأينا كيف كانت زنوبيا تفاخر بانتسابها إلى كليوباترا وتعتبرها أصل أسرتها وتحاكيها فى مآثرها الثقافية وملكاتها اللغوية، وتتحدث المصرية بطلاقة. ويبدو أن بعض المصريين من ذوى الشأن كانوا معجبين بهذا المد التدمرى الجامح فى الشرق على عهد جالينوس، وكانوا يودون لو تصير بلادهم جزءاً من المنظومة التدمرية القوية، تكاية فى الرومان الذين ساموا مصر العذاب على مدى ثلاثة قرون، وهو ما سنراه فى التفاصيل التالية.

إن أكثر الروايات تفصيلاً عن الغزو التدمرى لمصر إبان حكم الإمبراطور كلاوديوس القوطى (٢٦٨-٢٧٠ م.) يرد عند المؤرخ زوسيموس (أواخر القرن الخامس الميلادي) (Zosimus I. 44. 1-2) إذ يقول: "في الوقت الذي تبدد فيه

شمل المسكوثيين – كما أسلفت – وفقدوا جزءاً كبيراً منهم راودت زنوبيا مشروعات أكثر طموحاً وأرسلت زابداس إلى مصر استناداً إلى أن مصرياً هو تيماجينيس كان قد استحوذ على حكم مصر لصالح التدمريين

μειζ)νων ϕιεμΥνη " Ζηνοβ⇔α πραγμ□των Ζ□βδαν ϕπ⇐ τ↓ν Α∂γυπτον ϕκπΥμπει, Τιμαγ Υνουω □νδρ)ω Α⇒γυπτ⇔ου τ↓ν □ρξ±ν τ°ω Α⇒γ(πτου Παλμυρηνοῖ̂ω καταπραττομΥνου.

وقد تم حشد جيش مؤلف من التدمريين والسوريين والبرابرة يقدر بسبعين ألفاً، في حين قام المصريون بتعبئة مضادة قوامها خمسون ألفاً، ووقعت معركة عنيفة وأحرز التدمريون نصراً كاسحاً على عدوهم ثم قفلوا عائدين بعد أن ثبتّوا حامية منهم قوامها خمسة آلاف رجل:

..., μ□ξηω καρτερ□ω γενομενηω, περι°σαν ο↓ Παλμυρηνοῖ̂ παρ□ πολ↓ τ® πολΥμ⊗, κα⇐ φρουρ□ν ϕκαταστ→σαντεω πεντακισξιλ⇔ων □νδρ⌢ν □νεξ⊕ρησαν.

وعندما علم بروبوس – الذي كان قد كلّف من قبل الإمبراطور بتطهير البحر (المتوسط) من القراصنة – بأن مصر قد تم الاستيلاء عليها من جانب التدمريين، هاجمهم بقوة كانت تحت إمرته، كما كان معه كل من لم ينضامن مع التدمريين من المصريين، وطارد حامية التدمريين. لكن التدمريين عاودوا الكرّة ثانيةً، وفي المقابل حشد لهم بروبوس جيشاً من المصريين والليبيين، وكانت الغلبة للمصريين الذين طردوا التدمريين خارج حدود مصر. وسيطر بروبوس على جبل قريب من بابيلون (جبل المقطّم) وبذلك أغلق الطريق المؤدي إلى سوريا في وجه التدمريين. ولكن لما كان تيماجينيس على دراية بالمواقع والأماكن فقد استولى – بصحبة ألفين من التدمريين – على قمة الجبل وانقضّ على المصريين بصورة مباغتة ومزقهم إرباً وفي تلك الظروف تم أسر بروبوس فأخذ حياته بيده (انتحر):

Τιμαγ Υνηω □τε δ↓ ιδριω τ⌢ν τοπων, □μα δισξιλ⇔οιω Παλμυρην⌢ν τ↓ν □κραν το\ |ρουω κατασξ⊕ν, □δοκ→τοιω

πιστ□ω τοῖω Α⇒γυπτ⇐οιω διΥφψειρεν. ∧ν ο∑ω κα⇐ J Πρ⟩βοω □λο| ω ωαυτ∫ν □ποσφ□ττει.

إن هذه الفقرة عند زوسيموس تشير إلى عدة نقاط مهمة: أولها أن النفوذ التدمرى في المناطق الشرقية من الإمبراطورية الرومانية، المتاخمة لحدود الإمبراطورية الفارسية الساسانية كان قد بلغ درجة كبيرة من الرسوخ والاستقرار ولم يعد هناك من خطر أو تهديد يتوقعه التدمريون من الشرق من جانب الفرس. هذا الوضع الآمن من جانب التدمريين جعل الأحلام التوسعية تراود مخيلة زنوبيا ووالدها وهب اللات واتجهت تلك التطلعات صوب الغرب إلى مصر التي كان للتدمريين معها علاقات وروابط تجارية وعسكرية، من خلال مشاركة الخيالة التدمريين للقوات الرومانية في صحراء مصر الشرقية (العربية) - كما رأينا من قبل - والتي كانت زنوبيا تفاخر بانتسابها إلى كليوباترا آخر ملكاتها من البطالمة. النقطة الثانية: أن التدمريين كانوا يخططون بطريقة عملية لتحويل هذه التطلعات إلى واقع على الأرض فاستمالوا إليهم شخصيات من ذوى الشأن من المصريين، ليمهدوا لهم الطريق لغزو مصر وضمها، وكان على رأس هؤلاء المصريين تيماجينيس الذي يبدو أنه استمال كثيرا من المصريين إلى صفوفه، وجعلهم متعاطفين ومتحمسين لقدوم التدمريين وحكمهم في مصر - كما في بقية الشرق - على حساب الرومان. النقطة الثالثة: أن تدمر كانت ترصد بدقة تحركات الرومان - على مستوى الإمبراطورية وعلى مستوى ولاية مصر - لكي تتحين الفرصة الملائمة لغزو مصر. فقد استغلت زنوبيا انشغال الإمبراطور كلاوديوس - وهو إمبراطوري قوى تعتدحه المصادر الرومانية اللاحقة ولاسيما .S.H.A - في حروبه الناجحة ضد القوط لاستكمال مخططاتها التوسعية. وفي مصر جعلت حليفها تيماجينيس يمهد الأرضية للغزو التدمرى ويتزايد نفوذه لصالح تدمر، كما يتضح من عبارة "استحوذ على حكم مصر لصالح التدمريين" في الفقرة المقتبسة أعلاه. ومن الواضح أن تيماجينيس قد زوّد التدمريين بالتوقيت

المناسب لغزو مصر فى غياب واليهـا الرومـانى "تيناجينو بروبـوس Tenagino Probus"[٩٣] الذى كان الإمبراطور كلاوديوس قد كلفه بالتصدى للقراصنة فى شـرق البحـر المتوسـط Πρ)βοω δ' καψ°ραι τ⊂ν καταποντιστ⊂ν: τ↓ν ψ□λατταν ⁄κ βασιλΥως ταξψε⇔ω, ... etc.

ويبدو جلياً أن تيماجينيس قد أبلغ التدمريين بتلـك الفرصـة السـانحة، ومـن ناحيتهم يبدو أن التدمريين كانوا على أهبة الاستعداد لاقتناص تلك الفرصة فأرسلوا لتلك المهمة سبعين ألفاً من الجند من التدمريين ومن يدينون لهم بالولاء - تحت قيادة أشهر وأمهر قادة تدمر آنذاك وهو زابداس الساعد الأيمن لزنوبيا فى أغلب معاركها - الـذين أحرزوا نصراً كاسحاً على خصومهم من القوات الرومانية والمساعدة المتمركـزة فـى مصر، والذين يُطلق عليهم زوسيموس مسمى (المصريين) إجمالاً، والذين يقدر عـددهم بخمسين ألفاً.

ولنا هنا وقفة حول هذه المعلومات من الفقرة المقتبسة نسـترشد فيهـا بـرأى جاك شفارتز[٩٤] الذى يرى فى تيماجينيس مصرياً كان يشغل - على الأرجح - منـصباً مهماً، وأن خبرته ودرايته بالمواقع وبالمناورة والتكتيك ترجح أنه كان قائداً عـسكرياً، وأنه ربما كان هو من أسند إليه بروبوس - فى فترة غيابه لملاحقة القراصنة - قيـادة البلاد أو حامية محصنة، وأنه استدعى - أثناء غياب بروبـوس - التـدمريين بقيـادة زابداس، وأن الدافع وراء خيانته للرومان لصالح التدمريين غير معروفـة. أمـا عـن مسألة أعداد القوات التدمرية وخصومهم (المصريين) - حسب تعبيـر زوسـيموس - فيراها جاك شفارتز مبالغاً فيها فيما يخص الحملة الأولى التى غـزا فيهـا التـدمريون مصر. ويدلل على ذلك بالقول بأن عدد القوات الرومانية فى مصر فى تلك الفتـرة كـان

(93) M. Grant, The Roman Emperors, p. 180; J. Schwartz, "Lex Palmyreniens et l'Egypte", p. 66.

(94) Ibid., p. 68.

– فى المعتاد – فرقة واحدة. فإذا ما أضفنا إليها القوات المساعدة، فإن العدد لا يتجاوز خمسة عشر ألفاً، كان جزء منهم مرافقاً لبروبوس فى حملته ضد القراصنة. كما يدعم رأيه بأن الأعداد التى ذكرها زوسيموس نفسه – بعد تلك البداية – لم تكن بتلك الضخامة: فقد ترك التدمريون حامية خلفهم فى مصر تُقدر بخمسة آلاف جندى فقط. وأن القوة التى رافقت تيماجينيس – فى خدعته التى انقضّ بها من قمة الجبل على بروبوس وجنده وأبادهم وأسر قائدهم – لم تتجاوز ألفين من التدمريين.

النقطة الرابعة الجديرة بالملاحظة: أن الوالى "تيناجينو بروبوس" حين علم – وهو يؤدى المهمة التى كلفه بها الإمبراطور خارج مصر – باستيلاء التدمريين على مصر وتركهم حامية فيها؛ شنّ عليهم هجوماً "بالقوة التى كانت تحت إمرته ومعهم كل من لم ينضو تحت لواء التدمريين من المصريين":

□μα τ≈ συν α/τ® δυν□μει κα∈⇐ A⇒γυπτ∈⇔ων |σοι μ↓ τ□ Παλμυρην⌐ν φρονο\ντεω ƒτυξον...

إن أهمية هذه العبارة أنها تفيد أن المصريين (هنا يقصد المصريين بحق من بين الجنود) كانوا منقسمين إلى فريقين، ما بين مؤيدين للتدمريين أو للرومان.

والتعليق الأخير: أنه إذا كان التدمريون – فى حملتهم الأولى الناجحة أثناء غياب الوالى بروبوس – قد عادوا إلى وطنهم بعد أن تركوا فى مصر حامية قوامها خمسة آلاف رجل كرمز للسيادة التدمرية على مصر، فإنهم فى المرة الثانية – بعد خدعتهم الناجحة وانقضاضهم المباغت، من فوق قمة جبل المقطم، على قوات بروبوس المرابطة فى الجبل وتمزيقها إرباً، وأسر وانتحار الوالى بروبوس – استولوا على مصر التى صارت خاضعة لحكمهم كما يتبين من الفقرة التالية عند زوسيموس (Zosimus I.45.1):

τ°ωA⇒γ/πτου το∈⇔νυν | π∫ Παλμυρηνο∫ῖω γενομΥνηω[٩٥].

---

(95) Ibid., p. 69.

كانت هذه هى الرواية التفصيلية التى أوردها زوسيموس، عن الحملة التدمرية التى ترتب عليها إخضاع التدمريين لمصر، على عهد الإمبراطور كلاوديوس القوطى. وهناك روايات أخرى موجزة عن هذا الأمر عند كُتّاب سير الأباطرة S.H.A.، ولكنها تحتوى على بعض المغالطات التى تحتاج إلى تصويب من جرّاء التداخل والتشوش بين بعض الشخصيات.

ففى سياق الحديث عن سيرة الإمبراطور كلاوديوس القوطى يذكر كاتب السيرة فى هذا الخصوص ما يلى:

"فى الوقت الذى كانت فيه تلك الأمور (الحروب والانتصارات ضد القوط: أنظر S.H.A. Vita Claudii IX) تتم على يد كلاوديوس المؤله شن التدمريون بقيادة سابا (زابداس) وتيماجينيس حرباً ضد المصريين، لكنهم انهزموا من خلال عناد ومثابرة المصريين التى لا تعرف الكلل. ولكن بروباتوس - قائد المصريين - لقى حتفه بحيلة ومكيدة تيماجينيس. ولكن كافة المصريين خضعوا للإمبراطور الرومانى وأقسموا يمين الولاء لكلاوديوس برغم أنه لم يكن حاضراً"[٩٦].

إن هذه الرواية منحازة بوضوح إلى الجانب الرومانى واختزلت القصة كلها لصالح الرومان على حساب التدمريين وعلى حساب الحقيقة التى وافانا زوسيموس بتفاصيلها - رغم المبالغات العددية - كما رأينا أعلاه. فهى لم تورد شيئاً عن الانتصار الكبير للتدمريين فى المواجهة الأولى، وإنما اكتفت بذكر محصلة المواجهة الثانية - بعد عودة بروبوس - والتى تمثلت فى الانتصار المؤقت لبروبوس وقواته

(96) S.H.A. Vita Claudii XI. 1-2:
Sed dum haec a divo Claudio aguntur, Palmyreni ducibus Saba et Timagene contra Aegyptios bellum sumunt atque ab his Aegyptia pervicacia et indefessa pugnandi continuatione vincuntur. dux tamen Aegyptiorum Probatus Timagenis insidiis interemptus est. Aegyptii vero omnes se Romano imperatori dederunt in absentis Claudii verba iurantes.

على الحامية التدمرية. كما أن هذه الرواية تجاهلت الهزيمة الساحقة لقوات بروبوس واكتفت بذكر مصرع بروبوس (بروباتوس) من خلال حيلة وكمين تيماجينيس. وقد ختمت هذه الرواية بكذبة كبرى مفادها: أن المصريين - بعد كل ذلك - خضعوا للإمبراطور الروماني (كلاوديوس القوطي) وأقسموا له يمين الولاء في غيابه. إن هذا الأمر يجافي الحقيقة التي أوردها زوسيموس عن خضوع مصر لحكم التدمريين، ولا يعدو أن يكون مديحاً وتزلفاً للإمبراطور كلاوديوس - بعد وفاته - وتمجيداً للإمبراطورية الرومانية حتى في كوارثها !.

وهناك نقطتان جديرتان بالتعليق كذلك في هذه الرواية: الأولى أن كاتبها قد عطف تيماجينيس على سابا (زابداس) في عبارة "شن التدمريون (بقيادة سابا وتيماجينيس) حرباً ضد المصريين" وكأن تيماجينيس قائد تدمري، ولم يورد شيئاً عن كونه مصرياً ! والنقطة الثانية: أنه أورد اسم والي مصر تيناجينو بروبوس الذي لقي حتفه على يد التدمريين في ختام المواجهة الثانية معهم باسم (بروباتوس) ربما لكي يميزه عن الإمبراطور بروبوس الذي حدث خلط بينه وبين ذلك الوالي، عند ذكر هذه الواقعة، كما سنرى بعد قليل في موضع آخر من "سير الأباطرة".

ذلك الموضع الآخر المشار إليه أعلاه نجده في سيرة الإمبراطور بروبوس (ماركوس أوريليوس ايكويتيوس بروبوس ٢٧٦ - ٢٨٢م.) إذ يخلط كاتب السيرة بوضوح بين هذا الإمبراطور وبين الوالي تيناجينو بروبوس الذي لقي حتفه على يد التدمريين في الخدعة التي دبرها تيماجينيس، وتحدث عنها زوسيموس أعلاه. إذ ينسب إلى هذا الإمبراطور - على سبيل الخطأ، حيث أن المقصود هو الوالي -[٩٧] أنه "حارب ببسالة فائقة ضد سكان ماريماريكا في أفريقيا وانتصر عليهم، وأنه انتقل من ليبيا إلى قرطاجة وأنقذها من المتمردين...". كما يتحدث النص عن أعماله ومنجزاته في مصر فيقول: "ولا نزال نرى في مدن كثيرة من مصر أشغالاً عامة مرتبطة به كان قد أمر

(97) J. Schwartz, art. cit., p. 66, and notes 3 and 4.

الجند بتشييدها. وفضلاً عن ذلك فقد أنجز الكثير على نهر النيل حتى إن جهوده وحدها قد أضافت الكثير إلى ضرائب الحبوب. كما أقام الجسور والمعابد والأروقة ذات الأعمدة والبازيليكات – كل ذلك بجهود الجند – وفتح الكثير من مصبات النهر، وجفف قدراً كبيراً من الأحراش وأحل محلها حقول ومزارع الحبوب"[٩٨].

أما الفقرة التى يتضح فيها بجلاء الخلط بين الشخصيتين فهى الفقرة التالية: "كما حارب ضد التدمريين من أنصار أذينة وكليوباترا (يقصد زنوبيا)، وحارب فى أول الأمر بنجاح، ولكنه تراخى بعد ذلك وتهور حتى وقع فى الأسر تقريباً، ولكنه – حين استردت قواته عافيتها – أعاد مصر ومعظم الشرق إلى سيادة أوريليان"[٩٩].

إن هذه الفقرة وما حوته – فى مقدمتها – من معلومات مطابقة لما أورده زوسيموس، وما ورد – بإيجاز مُخِلّ – عند كاتب سيرة الإمبراطور كلاوديوس عن والى مصر تحت حكم كلاوديوس (تيناجينو بروبوس)[١٠٠] تقطع بأن المقصود من هذا القول هو ذلك الوالى وليس (ماركوس أوريليوس بروبوس) الذى سيصبح – لاحقاً – إمبراطوراً (٢٧٦–٢٨٢). كما أن الخطأ يتأكد حين يتحدث عن مصير بروبوس الذى حارب ضد التدمريين حتى وقع فى الأسر تقريباً **paene**، ولم يذكر أنه انتحر أو قُتل – كما أكد زوسيموس وكاتب سيرة الإمبراطور كلاوديوس – بل إنه حين تعافت قواته فيما بعد استرد مصر لصالح أوريليان ! إن هذا الجزء الأخير من الفقرة الخاص باسترداد

---

(98) S.H.A. Vita Probi Ix. 1-4.

(99) Ibid., IX. 5:
pugnavit etiam contra Palmyrenos Odaenathi et Cleopatrae partibus Aegyptum defendentes, primo feliciter, postea temere, ut paene caperetur; sed postea refectis viribus Aegyptum et Orientis maximam partem in Aureliani potestatem redegit.

(100) A. Stein, Die Präfekten von Ägypten in römischer Zeit, Bern, 1950 (1951), pp. 148-150.

بروبوس (الإمبراطور اللاحق) لمصر ومعظم أجزاء الشرق لسلطة أوريليان يشير في دلالة قاطعة لا تقبل اللبس إلى أن ذلك الإمبراطور اللاحق قد لمع نجمه في عهد أوريليان كأحد أبرز جنرالاته[١٠١] الذين ساهموا معه في الانتصار على التدمريين واسترداد الشرق - بما فيه مصر - من بين أيديهم.

بهذا ينجلي اللبس وينقشع الغموض الذي يكتنف الشخصيتين، ويتضح أن الحديث عن بروبوس الذي حاول إخراج التدمريين من مصر، لكنه أخفق في ذلك والتحر، هو حديث ينصبّ على (تيناجينو بروبوس) والي مصر في زمن الإمبراطور كلاوديوس القوطي، ولا علاقة له البتة بالإمبراطور - اللاحق - (ماركوس أوريليوس بروبوس) الذي كان - على الأرجح - أحد أبرز القادة في الجيش الروماني في عهد الإمبراطور أوريليان (٢٧٠-٢٧٥).

لنرجع الآن إلى فترة الحكم التدمري القصيرة في مصر، ونرى ما تبقى من آثارها وشواهدها. إن ما تبقى من شواهد هذه الفترة في مصر قليل ويكاد ينحصر في العملات التي سُكّت في دار سك الإسكندرية باسم حكام تدمر في ظل حكم كلاوديوس وأوريليان. فعلى أثر انتصار التدمريين بقيادة زابداس والمصري تيماجينيس على القوات الرومانية، في معركتين متتاليتين في عهد كلاوديوس القوطي دانت السيادة للتدمريين على مصر وسُكّت سلسلة من العملات في الإسكندرية باسم حكام تدمر (زنوبيا ووهب اللات) تحمل نقوشاً وكتابات يونانية[١٠٢] وحين اعتلى الإمبراطور أوريليان سدة العرش الروماني كان مضطراً - لبعض الوقت في بدايات حكمه - إلى التعامل مع أقرانه الذين نصّبوا أنفسهم حكاماً على الشرق من التدمريين تعاملاً متأنياً. وتظهر على العملات السكندرية من عامي ٢٧٠-٢٧١م. صوراً نصفية لكل من "وهب اللات" و"أوريليان"، وقد نقش

(101) M. Grant, op. cit., p. 191.
(102) E. S. Bouchier. op. cit., p. 145.

تحت صورة "وهب اللات" باللغة اليونانية ما يقابل "صاحب السلطة القنصلية consularis" و"الإمبراطور / القائد الأعلى imperator"، كما حملت بعض اللوحات الإرشادية للطرق الرومانية أسماء كل من أوريليان و"زنوبيا أغسطا" متجاورين. كما أن عملات تحمل صور الأمير "وهب اللات" بدأت تظهر منفردة وعليها ألقاب "قيصر" أو "أغسطس" دون أن تظهر معها صورة أوريليان[١٠٣] في دور السك في أنطاكية والإسكندرية.

ونأتي الآن إلى النقطة التي بدأ الحكم والنفوذ التدمري ينحسر عندها عن مصر. يعود بنا زوسيموس إلى نقطة البداية في المواجهات بين أوريليان وحكام تدمر زنوبيا وابنها وهب اللات. فإذا كان أوريليان قد اضطر – على مضض – في بداية حكمه أن يغض الطرف عن تنامي سلطة ونفوذ التدمريين في الشرق، من أجل الأخطار والمشكلات المحدقة بإيطاليا وفي بانونيا، فإنه – بعد أن فرغ من تلك المشكلات – بدأ يستعد لخوض نزال حاسم ضد التدمريين في الشرق. وفي ذلك يقول زوسيموس: "بعد أن حسم الإمبراطور (أوريليان) على هذا النحو المشكلات القائمة في إيطاليا وبانونيا فكر في إرسال (توجيه) حملة ضد التدمريين الذين كانوا يسيطرون فعلياً على ولايات مصر وكافة ولايات الشرق حتى أنقرة في جالاتيا، وكانوا يرغبون في بسط نفوذهم من بيثنيا حتى خلقدونيا لولا أن هؤلاء قد أطاحوا بالسيادة التدمرية حين علموا أن أوريليان قد صار إمبراطوراً"[١٠٤]. ويمضي زوسيموس في الفقرات التالية من كتابه الأول (I.

---

(103) Ibid., p. 146; G. Downey, Ancient Antioch, p. 114; S. Alföldi, Studien zur Geschichte der Weltkrise des 3 jahrhunoderts nach Christus, Darmstat, 1967, pp. 155-209 (Die römische Münzprägung ... im Osten zwischen 260 und 270 n. Chr.), especially pp. 180-209; A. H. M. Jones, op. cit., under: Vabalathus.

(104) Zosimus I. 50.1:
Διαπεμψάμενος δὲ καὶ τῶν περὶ τὴν Ἰταλίαν καὶ Παιονίαν, ὡς βασιλέα στρατεύσων ἐπὶ Παλμυρηνοὺς ἔχειν διενοεῖτο,

(61-50 في سرد تفاصيل المعارك التي دارت رحاها بين أوريليان والتدمريين في أنطاكية وحمص وانتصار أوريليان في تلك المعارك وأسر زنوبيا ومقتل وهب اللات في نهاية المطاف، واستسلام تدمر للحكم الروماني[١٠٥].

نعود إلى موضوعنا ونسأل: أين مصر من هذا الصراع الروماني - التدمري في عصر أوريليان؟ إن الفقرة المحورية في سيرة الإمبراطور بروبوس - التي حدث في جزء منها خلط بينه وبين الوالي في عهد كلاوديوس، تيناجينو بروبوس - هي تلك التي تذكر أنه أعاد مصر ومعظم الشرق إلى حكم أوريليان (الحاشية رقم ٩٩). لقد برز هذا القائد اللامع من قادة أوريليان والذي صار من بعد إمبراطوراً - كما أسلفنا - ولعب أدواراً مهمة مع أوريليان وهو تحت قيادته. فحين أزمع أوريليان عام ٢٧١ شن الحرب على التدمريين حاول التدمريون إحباط هجوم الإمبراطور عن طريق محاولة الاستيلاء على غرب آسيا الصغرى، ولهذا السبب سحب التدمريون جزءاً من قواتهم في مصر. وكان من نتيجة هذا التصرف أن جاء في غير صالحهم، إذ استغل الرومان - تحت قيادة بروبوس - الموقف واستردوا مصر لصالح أوريليان. كما أن أوريليان - بعد انتصاره في موقعة حمص على التدمريين - تلقى تعزيزات من القوات الرومانية في مصر بقيادة بروبوس نفسه، حين كان الإمبراطور في طريقة لحصار تدمر - المعقل الأخير لزنوبيا - وواجه مقاومة شرسة من أعوان زنوبيا وهو في طريقة لحصار تدمر[١٠٦].

هكذا يتضح أن مصر لم تستمر تحت الحكم التدمري إلا فترة قصيرة لم تتجاوز

κρατο\νταω □δη τ⌐ν τε Α=>γυπτιακ⌐ν Λιν⌐ν κα<= τ°ω ∞∠αω □π□ισηω κα<= μΓξριω □Αγκ∫ραω τ°ω Γαλατ<>αω, Λιελ→σανταω δ' κα<= Βιψυν<>αω μΓξρι Ξαλκηδ)νοω □ντιλαβΓσψαι, ε=> μ↓ βεβασιλευκΓναι γν)ντεω Α∫ρηλιαν∫ν την Παλμυρην⌐ν □πεσε<>σαντο προστασ<>αν.

(105) See also S.H.A. Vita Aureliani 25-30; E.S. Bouchier, op. cit., pp. 146-148.

(106) Ibid., pp. 146, 148.

ثلاث سنوات تقريباً (٢٦٨-٢٧١)، ولكن فصول القصة لم تُختم بصورة نهائية عند هذا الحد. إذ لم يكد أوريليان يهنأ بانتصاره على التدمريين ويأخذ زنوبيا أسيرة إلى روما، حتى وصلته أنباء - وهو فى طريق عودته لروما - باندلاع تمرد غير محدود فى تدمر، إذ قتلوا ساتداريو الذى كان أوريليان قد أسند إليه قيادة الحامية الرومانية فى تدمر، ومعه ستمائة من رماة السهام، واستولوا على الحكم لصالح شخص يُدعى أخيليوس من أقارب زنوبيا. وردا على ذلك عاد أوريليان من فوره إلى تدمر، وأعمل فى المدينة القتل والتدمير بمنتهى القسوة والوحشية، وإن أعاد بناء وتجميل معبد رب الشمس فى المدينة الذى دمره ونهبه جنوده فى تلك العودة الانتقامية[١٠٧].

وبصورة متزامنة تقريباً مع هذا التمرد التدمرى؛ كان هناك تمرد آخر فى مصر تزعمه شخص يدعى فيرموس استولى على مقاليد الأمور فى مصر بلا سند قانونى، ودون أن يتقلد الشارات الإمبراطورية، كما لو كان يهدف إلى جعلها دولة حرة[١٠٨].

دعنا الآن نتعرف على شخصية هذا الرجل الذى حاول اغتصاب ولاية مصر من أيدى الرومان، كما يرسمه لنا كاتب سيرته الموجزة فى S.H.A.: بادئ ذى بدء، فإن كاتب هذه السيرة الموجزة (وغيرها من السير) هو نفس الكاتب الذى

---

(107) S.H.A. Vita Aureliani 31.

(108) Ibid. 32.2:

interim res per Thracias Europamque omnem Aureliano ingentes agente Firmus quidam exstitit, qui sibi Aegyptum sine insignibus imperii quasi ut esset civitas libera, vindicavit.

رغم أن النص هنا يشير إلى فترة زمنية فاصلة بين قمع تمرد تدمر وعقابها عقابا قاسيا متوحشا وبين توجه أوريليان إلى الإسكندرية للقضاء على فيرموس مغتصب الحكم - حيث قام بين الحدثين بانجازات كبرى فى طراقيا وأوروبا - فإن زوسيموس (I. 61) جعله يتوجه مباشرة من تدمر للإسكندرية حيث قام بسرعة بإخضاع السكندريين الذين أثاروا القلاقل وكانوا يزمعون العصيان:

Ἀφεὶς τὴν Παλμύραν ἐλαύνει διὰ Φοινίκης δ' τὴν πόλιν ἀλόντα καὶ κατασκάψαντα ... εἰς τὴν δ' καὶ Ἀλεξάνδρειαν στασιάσαντα καὶ πρὸς ὑπόστασιν ἐπανάστασιν παραστησάμενον ...

دون سيرة الإمبراطور أوريليان ضمن مجموعة التاريخ الأغسطى) وهـو Flavius Vopiscus Syracusius / فلافيوس فوبيسكوس السيراكيوزى. وقد تراجع هـذا الكاتب عما ذكره عن فيرموس أعلاه - ضمن سيرة الإمبراطور أوريليان - مـن أن فيرموس حين اغتصب حكم مصر لم يتقلـد شـارات الإمبراطوريـة. ففـى سـيرة فيرموس التى كتبها لاحقاً - كما يظهر من حديثـه - اتـضح لكاتـب السـيرة أن فيرموس قد ارتدى الرداء الأرجوانى (رمز السلطة الإمبراطورية الرومانية) وأطلـق على نفسه لقب أغسطس فى العملات التى سكّها باسمه، وأن أحد رفـاق الكاتـب قـد أتى له ببعض العملات الخاصة بفيرموس، وأثبت له من خلال كتب بـاللغتين اليونانيـة والمصرية؛ أن فيرموس أصدر مراسيماً لقّـب نفـسه فيهـا بـالإمبراطور[١٠٩]. لكـن الإمبراطور أوريليان حين تخلص منه وقضى عليه لم يذكر أنـه قـد تخلـص مـن مغتصب للحكم، بل قال إنه خلّص الإمبراطورية من قاطع طريق؛ ويعلق الكاتب على ذلك، بأنه من الطبيعى والمنطقى أن يصف الأبـاطرة العظـام مـن قتلـوهم، ممـن اجترأوا على استلاب العرش، باللصوص وقطاع الطريق[١١٠].

يذكر كاتب السيرة أن فيرموس الذى يعنيه هنا - إذ كان هناك فى ذات الفتـرة ثلاثة من الشخصيات البارزة يحملون ذات الاسم - هو شخصية سورية من سـليوقرية، وأنه كان صديقاً وحليفاً لزنوبيا، وأن جنون المصريين قد حفزه على الاسـتيلاء علـى

---

(109) S.H.A. (Firmus, Saturninus, Proculus and Bonosus) 2.1:
... dicentes illum et purpura usum et percussa moneta Augustum esse vocitatum, cum etiam nummos eius Severus Archontius protulit, de Graecis autem Aegyptiisque libris convicit illum αὐτοκράτορα in edictis suis esse vocatum.

(110) Ibid. 2.2:
... quod dicebat Aurelianum in edicto suo non scripsisse quod tyrannum occidisset, sed quod latrunculum quondam a re publica removisset, proinde quasi ... aut non semper latrones vocitaverint magni principes eos quos invadentes purpuras necaverunt.

الإسكندرية ولكن سحقه أورليان[١١١].

لقد كان فيرموس هذا ثرياً جداً وهناك روايات كثيرة عن مدى ثرائه: إذ يُحكى مثلاً أنه كان يزين منزله بألواح زجاجية مربعة مثبتة بالقار ومواد أخرى لاصقة، كما كان يمتلك كميات كبيرة من الورق؛ جعلته يصرح علناً في أوقات كثيرة: أنه بوسعه أن يزود جيشاً بالورق والصمغ. وكان يتمتع بأوثق العلاقات مع البليميين وبدو الصحراء، وكان كذلك يبعث بسفنه التجارية إلى الهنود بصفة مستمرة، بل يُقال حتى إنه كان يمتلك نابين من عاج الفيلة يبلغ طول الواحد منهما عشرة أقدام[١١٢].

أما السمات الشخصية لفيرموس، فيذكر كاتب سيرته أنه كان ضخم الجثة، جاحظ العينين بشكل بارز، مُجعّد الشعر، وله ندبة في جبهته، وكان وجهه ذا لون داكن (أسمر) في حين كان بقية جسده أبيض اللون، برغم أنه كان خشن الملمس وذا شعر كثيف، حتى لقد أطلق عليه الكثيرون الكيكلوبس. وكان يأكل كميات كبيرة من اللحم، حتى ليُقال إنه التهم نعامة في يوم واحد. وكان يحتسي قليلاً من النبيذ، ولكنه كان يغبّ الكثير والكثير من الماء. وكان ثابت العزم عليداً، وفي غاية القوة في عضلاته وأوتاره، واكتسب شهرة ذائعة بذلك. وبرغم عدم إفراطه في الشراب؛ إلا أنه كان بمقدوره أن يغبّ كميات كبيرة من النبيذ، دون أن يثمل أو يفقد وعيه[١١٣].

تلك كانت صفات الرجل الذي استولى - لبعض الوقت - على السلطة الإمبراطورية في مصر، مناوئاً لأورليان، بغرض الدفاع عما تبقى من مُلك زنوبيا وأنصارها. ولكن تمكن أورليان من هزيمته وسحقه في المعركة، ثم القبض عليه

---

(111) Ibid. 3.1:

Firmo patria Seleucia fuit, ... eo tempore ipso tres fuisse Firmos, quorum ..., tertius iste Zenobiae amicus ac socius, qui Alexandriam Aegyptiorum incitatus furore pervasit, et quem Aurelianus ... contrivit.

(112) Ibid. 3.2-4.

(113) Ibid. 4.1-4.

وإخضاعه للتعذيب ثم الإجهاز عليه ونحره. إذ يزف أوريليان البشرى إلى الشعب الروماني قائلاً:

"لقد أرسينا دعائم السلام في كافة أرجاء العالم على أقصى اتساعه، كما أن فيرموس - قاطع الطريق الذي كان بمصر - والذي هبّ متمرداً مع برابرة وحشد بقايا أنصار امرأة عديمة الحياء - ولن أفيض في ذلك - فقد سحقناه وألقينا القبض عليه وعذبناه ثم نحرناه. ليس هناك الآن ما قد يثير فزعكم أيها المواطنين الرفاق يا أبناء روموليوس. إن إمدادات القمح من مصر - التي انقطعت على يد ذلك اللص الآثم - سوف تستمر الآن في التدفق غير منقوصة"[١١٤].

لعل هذه الجملة الأخيرة تصلح ختاماً لهذا البحث المطوّل. إن مغزى هذه الجملة ودلالاتها قاطعة منذ أن اغتصب الرومان مصر على عهد أوكتافيان أغسطس وحتى أوريليان وما بعده. إن مصر كانت بالنسبة للرومان الدجاجة التي تبيض ذهباً وتغدق القمح على مواطني روما. وقد عزّ عليهم أن يسلبها التدمريون منهم، لذلك زف إليهم أوريليان البشرى بعودة ذلك الكنز المفقود إليهم عام ٢٧٣م. بصفة دائمة ووصل ما انقطع لبعض سنوات.

---

(114) Ibid. 5.3-4:

Amantissimo sui populo Romano Aurelianus Augustus salute dicit. Pacato undique gentium toto qua late patet orbe terrarum, Firmum etiam latronem Aegyptium, barbaricis motibus aestuantem et feminei propudii reliquias colligentem, ne plurimum loquar, fugavimus, obsedimus, cruciavimus et occidimus, nihil est, Romulei Quirites, quod timere possitis, canon Aegypti, qui suspensus per latronem improbum fuerat, integer veniet.

مصر والشام في كتابات الرحالة والجغرافي يوحنا ماندفيل ١٣٤٦ ـ ١٣٤٧م

أ. د. محمود سعيد عمران
أستاذ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية

يعرف عن الرحالة والجغرافي يوحنا ماندفيل John Mandeville أنه رجل دولة وفارس إنجليزي، ولد في مدينة القديس ألبان St. Albans، التي تقع على أحد فروع نهر التايمز Thames، إلى الشمال بحوالي ثلاثة وعشرين ميلاً، وأنه بدأ رحلته في يوم عيد القديس ميخائيل St. Michal، الذي يقع في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٣٢٢م، وأن رحلته اشتملت على العديد من الدول والجزر، ومن هذه الدول الإمبراطورية البيزنطية، وهو ما أشار إليه بكلمة Bezanzon وهو استخدام جديد وغير مألوف في مصادر العصور الوسطى، والأتراك في آسيا الصغرى وبلاد الأرمن، وبلاد فارس وسوريا ومصر وليبيا، وأثيوبيا أي الحبشة، والهند وسومطره وغير ذلك.

وما يعنينا في هذا البحث هو مصر والشام، وأن الرحالة عبر عن كلمة بلاد الشام بعبارة سوريا Syria، أو أرض الميعاد أو أرض الوصايا؛ وأحياناً يذكر كلمة فلسطين[1].

والحقيقة: أن الرحالة يوحنا ذكر أنه توجد طرق كثيرة تؤدى إلى الأراضي المقدسة، ومن هذه الطرق القدوم من أوروبا إلى القسطنطينية ثم إلى آسيا الصغرى، فإلى الجنوب حيث بلاد الشام، أو القدوم بحراً إلى إحدى جزر البحر المتوسط، أو

---

(1) John Mandeville, The Travels, London 1900. pp. 5 – 7. 48.

مباشرة إلى موانئ بلاد الشام، ويمكن الوصول كذلك إلى بلاد الشام عبر الأراضي المصرية، ثم إلى صحراء سيناء، ومنها شمالاً إلى الأراضي المقدسة[٢].

وعندما بدأ الرحالة حديثه عن مصر؛ وضع عنواناً ذكر فيه "أسماء سلاطين مصر وقلعة بابليون"، وتحت هذا العنوان ذكر الرحالة أنه يوجد في مصر، ويقصد القاهرة، كنيسة للسيدة العذراء، حيث مكثت سبع سنوات[٣]، وهي معلومة خطأ، فقد ورد في إنجيل متى "وبعد ما انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلاً قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك. لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه. فقام وأخذ الصبي وأمه ليلا وانصرف إلى مصر. وكان هناك إلى وفاة هيرودس"[٤]. كما ذكرت أحد المصادر المعاصرة أن هيرودس مات في مارس عام ٤م[٥]. وهذا يعني أن المدة التي قضتها العائلة المقدسة في مصر لا تزيد عن ثلاث سنوات وبضعة شهور.

وذكر الرحالة أن القاهرة هي مقر سلطان مصر، وهو يقيم في القلعة، والمقصود هنا قلعة صلاح الدين، حيث يقوم بخدمته حوالي ستة آلاف شخص، وهم يعيشون على ما يقدم لهم من بلاط السلطان. ويضيف الرحالة أنه يعرف هؤلاء الأشخاص جيداً، لأنه عاش معهم فترة حروب السلطان مع بدو سيناء، ويقصد به السلطان المظفر زين الدين حاجي (١٣٤٦ – ١٣٤٧م) وهو الذي كان يحكم مصر أثناء رحلة يوحنا كما ذكر بنفسه. وأن السلطان عرض على الرحالة أن يزوجه إحدى الأميرات، إذا اعتنق الديانة

---

(١) John Mandeville, op. cit., pp. 15 – 16, 20 – 23.

(٢) John Mandeville, op. cit., p. 23.

(٣) إنجيل متى: ٢: ١٣ – ١٥.

(٤) Josephus, The Jewish War, Tran. G.A. Williamson, Penguin 1974, p. 402.

الإسلامية، ولكن الرحالة لم يوافق[٦].

وذكر الرحالة أن سلطان مصر يحكم خمس ممالك هي: مصر ومملكة القدس، ولعله يقصد فلسطين، ومملكة سوريا ومركزها دمشق، ومملكة حلب، وأخيراً مملكة الجزيرة العربية، وأن المواطنين يلقبون السلطان بالخليفة، وكلمة الخليفة أفضل عندهم من كلمة ملك[٧]. وهنا اختلط الأمر على الرحالة بين السلطان المملوكي والخليفة العباسي الذي عاش في القلعة كذلك، بعد نهاية الخلافة العباسية في بغداد.

وذكر الرحالة أن أول من حكم مصر من السلاطين هو شيركوه، الذي يرجع أصله إلى بلاد ميديا Media، وهو والد صلاح الدين الأيوبي الذي حكم مصر بعدما ذبح الخليفة، ولعله يقصد آخر الخلفاء الفاطميين وهو الخليفة العاضد ٥٥٥ – ٥٦٧هـ/ ١١٦٠ – ١١٧٠م[٨]. وهي معلومة غير دقيقة. وصلاح الدين هو الذي عاصر وحارب ريتشارد قلب الأسد Richard The Lion heart ملك انجلترا (١١٨٩ – ١١٩٩م) الذي قدم على رأس القوات الإنجليزية في الحملة الصليبية الثالثة على بلاد الشام، وبعد صلاح الدين حكم ابنه بورادين Boradin، وبعده ابن عمه[٩] ويلاحظ أن المعلومات التي قدمها الرحالة عن سلالة صلاح الدين غير دقيقة.

وبعد هذا الزمان حكم مصر الكوماتيون Comanians والكلمة منسوبه إلى عناصر الكومان Coman التي سكنت شمال البحر الأسود، ويقصد بهم الرحالة العناصر المملوكية الذين كانوا يختارون السلطان من بينهم، ومنهم الملك الصالح أيوب

---

(٦) John Mandeville, op. cit., p. 24.

(٧) John Mandeville, op. cit., p. 24.

(٨) John Mandeville, op. cit., p. 24.

(٩) John Mandeville, op. cit., p. 24.

(١٢٤٠ – ١٢٤٩)[١٠] – ويلاحظ أنه كان من سلالة صلاح الدين الأيوبي، ولم يكن من العناصر المملوكية.

والملك الصالح هو الذي عاصر حملة القديس لويس St. Louis ملك فرنسا (١٢٢٦ – ١٢٧٠م) على مصر، وقد انتصر عليه الملك الصالح وأسره وأطلق سراحه مقابل فدية معينة، وبعده حكم ابنه توران شاه (١٢٤٩ – ١٢٥٠م) الذي قتله الأمراء المماليك. ويلاحظ أن الرحالة قدم لنا مادة تاريخية غير دقيقة عن أسماء السلاطين الذين حكموا مصر، ومنهم بيبرس البندقداري (١٢١٠ – ١٢٧٧م) وحملة الأمير الانجليزي إدوارد Edward (١٢٧١م) والسلطان الأشرف خليل بن قلاوون (١٢٩٠ – ١٢٩٣م) الذي استولى على مدينة عكا (١٢٩٢م) من الصليبيين، وبعض أسماء السلاطين الذين حكموا مصر، في معلومات غير دقيقة، حتى وصل إلى السلطان المظفر زين الدين حاجي، الذي عاصره الرحالة، وهو السلطان الذي كان تحت أمره حوالي عشرين ألف مقاتل في مصر، بخلاف القوات الشامية، وغيرها من البلاد الذين يمكن أن يكون مجموعهم في حدود خمسين ألف مقاتل، بخلاف بعض القوات الأخرى[١١].

ويلاحظ أن مرتب الجندي كان ستة فلورينيات Florins[١٢]، وكان عند كل فارس ثلاثة خيول وجمل. كما كان يحكم كل مدينة صغيرة أو كبيرة حاكم يتولى أمر المدينة، وكان بعض الحكام يحكمون أربع أو خمس مدن أو أكثر. وكان لبعض السلاطين أربع زوجات إحداهن مسيحية والباقي من المسلمات، وكانت إحداهن تعيش في بيت المقدس، والأخرى في دمشق، والثالثة في عسقلان، وإلى جانب هؤلاء العديد من

---

(١٠) John Mandeville, op. cit., p. 24.

(١١) John Mandeville, op. cit., pp. 24 – 25.

(١٢) لم يذكر الرحالة إذا كان هذا الراتب شهري أو موسمي أو سنوي، والفلورين عملة إيطالية ذهبية كانت تزن ثلاثة ونصف جرام من الذهب. أنظر: محمود سعيد عمران: النقود في أوروبا العصور الوسطى – دار المعرفة الجامعية ٢٠١١م – ص ٢٥٩.

المحظيات[١٣].

وفى الفصل السابع، من كتاب الرحالة يوحنا ماندفيل، سجل بعض المعلومات عن مصر تحت عنوان "البلاد المصرية – طائر العنقاء، ومدينة القاهرة وكيفية التعرف على نبات البلسم، ومخازن سيدنا يوسف عليه السلام[١٤]. وذكر أن البلاد المصرية بلاد طويلة في خط مستقيم ضيق، ولم يتوسع المواطنون فى الأراضى داخل الصحراء لقلة المياه الموجودة في نهر النيل التي تأتى مع الفيضان[١٥]. كما ذكر الرحالة أنه يوجد ميناء يتجه إلى بلاد الحبشة، ولعله يقصد ميناء عيذاب، والآخر يتجه إلى البلاد العربية، ولعله يقصد ميناء القلزم، وأن مصر هى أرض الرعامسة وأرض جوشن Goshen، أى أرض مصر أيضاً[١٦]. ويلاحظ أن البلاد المصرية قوية وبها موانى متعددة، وأن البحر الأحمر يقع إلى الشرق منها، وفى غربها تقع بلاد ليبيا، والأخيرة أراضيها جافة مجدبة الثمار[١٧].

وذكر الرحالة أن مصر مقسمة إلى خمس مقاطعات، الأولى هى Sahythe ولعلها الصعيد، والثانية هى Demeseer ولعلها دمنهور، والثالثة هى رشيد وهى تقع على نهر النيل، ولعله يقصد مصب نهر النيل في البحر المتوسط، والإسكندرية، ودمياط

---

(١٣) John Mandeville, op. cit., p. 26.

(١٤) ذكر هذه المعلومات حوالى عام ٦٠٠م المؤرخ جريجورى التورى. أنظر:
Gregory of Tours, The History of The Franks tran. Lewis Thorpe. Penguin 1974. pp. 74 – 5.

(١٥) فيما يخص نهر النيل، فقد ذكر الرحالة فى موضع آخر من كتابه عندما كان يتحدث عن أقاليم بلاد المغول وبلاد فارس، أن نهر النيل هو أحد الأنهار الأربعة التى تنبع من الجنة، وذكر أن الأول هو نهر الكانج Pison والثانى هو نهر النيل والثالث دجلة والرابع الفرات.
John Mandeville, op. cit., p. 170, 201 – 202.

(١٦) ورد هذا الأسم فى التوراة، راجع يوشع: ١١: ٦.

(١٧) John Mandeville, op. cit., p. 31.

والأخيرة مدينة غير محصنة، وأن الصليبيين هاجموها مرتين، والمقصود الحملتين الصليبيتين الخامسة والسابعة على المدينة، رغم برجها وأسوارها، ويلاحظ أنه قد تم هدم المدينة القديمة، وبناء مدينة دمياط الجديدة، وهي إحدى موانى القطر المصري. أما مدينة الإسكندرية فهي مدينة محصنة للغاية، ويأتي إليها الماء عن طريق قناة تتصل بنهر النيل، وأن أهل المدينة يخزنون المياه في خزانات خاصة بهم. ويلاحظ قلة وجود القلاع في مصر، لأنها محصنة بطبيعتها[١٨].

وسجل يوحنا ماندفيل بعض المعلومات عن الصحراء المصرية في شكل أسطوري، وذكر أنه كان بالصحراء ناسك يستحق التقدير، وقد تقابل مع الهولا، وذكر أيضاً مدينة عين شمس، وأنه كان بها معبد مثل معبد بيت المقدس، ثم تحدث عن طائر العنقاء، ومراسم كانت تتم قبل خمسمائة عام قبل زيارته لمصر[١٩].

وتحدث الرحالة عن حقول مصر المملوءة بالأشجار والثمار، وهي تزرع سبع مرات في العام، وعلى ذلك فالإنتاج متوفر ورخيص الثمن، وسجل الرحالة ملاحظة هامة، وذكر أن السماء إذا أمطرت مرة واحدة في الصيف فإن البرك تملأ الأراضي[٢٠].

وانتقل الرحالة وتحدث عن سوق العبيد لغير المسلمين، كما ذكر أنه توجد في مصر عدة منازل بها حضانات لتربية الأوز والبط والدجاج، وأن الناس يحضرون بيض هذه الطيور ويعودون بعد ثلاثة أسابيع أو شهر ويأخذون الأفراخ، وأن العمل في هذا المجال يتم على مدار العام[٢١].

---

(١٨) John Mandeville, op. cit., p. 31.

(١٩) John Mandeville, op. cit., p. 32.

(٢٠) John Mandeville, op. cit., p. 32.

(٢١) John Mandeville, op. cit., p. 32.

وسجل الرحالة أيضاً أنه يوجد في مصر نوع من التفاح المستطيل، وهو يباع في كل فصول السنه، ويطلق عليه المصريون إسم تفاح الجنة وله مذاق طيب، ولكن هذا النوع من التفاح يتلف بعد ثمانية أيام، ولذلك فإن هذا التفاح لا ينقل إلى مسافات بعيدة، وإلى جانب هذا النوع يوجد نوع آخر يسمى تفاح آدم، وهو يتميز بأن عليه علامة على سطحه تشبه القضمة، وبمصر نوع من التين يسميه المصريون تين فرعون[٢٢].

ويقول الرحالة، وفى ضواحى القاهرة نجد أشجار البلسم، وأن هذه الأشجار لا ترتفع أكثر من ارتفاع قامة الإنسان، وأن في هذا المكان يوجد سبعة أبيار، ظهر واحد منها بضربة من قدم السيد المسيح عندما كان يلعب مع الصبيان[٢٣]، ولعل – المقصود هنا ضاحية المطرية، ويسجل الرحالة أن هذا المكان الذي يشبه الحقل هو مكان مفتوح، وأن الناس يدخلونه على مسئوليتهم، وعاد الرحالة وتكلم عن نبات البلسم كثيراً، والمنتجات التي تستخرج منه، مثل الزيوت بعد عملية التقطير التي تجرى عليه[٢٤].

وتحدث الرحالة أيضاً عما أسماه صوامع غلال سيدنا يوسف، وذكر أنها تقع في ضواحي القاهرة، في المنطقة الصحراوية الواقعة بين مصر وإفريقية، وأنها استخدمت في مرحلة السنين العجاف، وأن هذه المخازن مصنوعة من الأحجار بطريقة رائعة، وأن إثنين منها مرتفعة جداً، والثالث ليس عالياً بدرجة كبيرة، وأن إحدى هذه الصوامع لها بوابة يمكن الدخول فيها، وهى مرتفعة عن مسطح الأرض، ويلاحظ أن هذه المنطقة مملوءة بالثعابين، كما يوجد على جدران هذه الصوامع نقوش بلغات مختلفة، وأن

---

(٢٢) John Mandeville, op. cit., p. 33.

(٢٣) John Mandeville, op. cit., p. 34.

(٢٤) John Mandeville, op. cit., pp. 34 – 5.

وسجل الرحالة أيضاً أنه يوجد في مصر نوع من التفاح المستطيل، وهو يباع في كل فصول السنه، ويطلق عليه المصريون إسم تفاح الجنة وله مذاق طيب، ولكن هذا النوع من التفاح يتلف بعد ثمانية أيام، ولذلك فإن هذا التفاح لا ينقل إلى مسافات بعيدة، وإلى جانب هذا النوع يوجد نوع آخر يسمى تفاح آدم، وهو يتميز بأن عليه علامة على سطحه تشبه القضمة، وبمصر نوع من التين يسميه المصريون تين فرعون[٢٢].

ويقول الرحالة، وفى ضواحى القاهرة نجد أشجار البلسم، وأن هذه الأشجار لا ترتفع أكثر من ارتفاع قامة الإنسان، وأن في هذا المكان يوجد سبعة أبيار، ظهر واحد منها بضربة من قدم السيد المسيح عندما كان يلعب مع الصبيان[٢٣]، ولعل – المقصود هنا ضاحية المطرية، ويسجل الرحالة أن هذا المكان الذي يشبه الحقل هو مكان مفتوح، وأن الناس يدخلونه على مسئوليتهم، وعاد الرحالة وتكلم عن نبات البلسم كثيراً، والمنتجات التي تستخرج منه، مثل الزيوت بعد عملية التقطير التي تجرى عليه[٢٤].

وتحدث الرحالة أيضاً عما أسماه صوامع غلال سيدنا يوسف، وذكر أنها تقع في ضواحي القاهرة، في المنطقة الصحراوية الواقعة بين مصر وإفريقية، وأنها استخدمت في مرحلة السنين العجاف، وأن هذه المخازن مصنوعة من الأحجار بطريقة رائعة، وأن إثنين منها مرتفعة جداً، والثالث ليس عالياً بدرجة كبيرة، وأن إحدى هذه الصوامع لها بوابة يمكن الدخول فيها، وهى مرتفعة عن مسطح الأرض، ويلاحظ أن هذه المنطقة مملوءة بالثعابين، كما يوجد على جدران هذه الصوامع نقوش بلغات مختلفة، وأن

---

(٢٢) John Mandeville, op. cit., p. 33.

(٢٣) John Mandeville, op. cit., p. 34.

(٢٤) John Mandeville, op. cit., pp. 34 – 5.

الجميع يعرف أن هذه الصوامع هي مخازن غلال سيدنا يوسف، وهذا مسجل في مخطوطاتهم وحولياتهم التاريخية. هذا من جانب، ومن جانب آخر، إذا كانت هذه المباني أضرحه، فلا داعي لأن تكون فارغة ولها بوابات للدخول إليها، كما أنه لا ضرورة لمثل هذا الحجم الهائل والارتفاع الشاهق إذا كانت أضرحة، ولذلك فالإنسان لا يصدق أنها قبور[٢٥].

وذكر الرحالة أن في مصر لغات متعددة وحروف هجائية متعددة كذلك، وهذا ليس موجوداً في أي بقعة من بلاد العالم[٢٦]. ولعل الرحالة يقصد بذلك لهجات متعددة ولغات متعددة يتم استخدامها في مصر، وخاصة مع حركة التجارة في الإسكندرية ودمياط، ووجود قناصل للدول الأجنبية في الإسكندرية[٢٧].

وانتقل الرحالة في كتابه إلى الحديث عن مدينة الإسكندرية، وذكر أن بها كنيسة رائعة الجمال، ولعله يقصد كنيسة القديس مرقص، وأنها بنيت من الحجارة البيضاء دون طلاء، وكذلك كل الكنائس المسيحية، لأن كل البيمة[٢٨] Paymins والعرب تركوها بيضاء حتى يمكن رسم القديسين عليها. وسجل الرحالة أن عرض مدينة الإسكندرية حوالي أربعة أميال إلا قليلاً، وأن طولها حوالي عشرة أميال، وأنها مدينة رائعة وأن أكثر سكانها من النبلاء، ثم قدم الرحالة بعض المعلومات المضطربة المعنى، ولكننا نستخلص منها أنه في نهر النيل الكثير من الأحجار الكريمة، والفحم الحجري،

---

(٢٥) John Mandeville, op. cit., pp. 35 – 6.
ويلاحظ أن السنوات العجاف وردت في التوراة راجع سفر التكوين ٤١: ٣٥ – ٣٦.

(٢٦) John Mandeville, op. cit., p. 36.

(٢٧) سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك – دار النهضة العربية– لبنان – د. ت – ص ٣٩٥ – ٣٩٤.

(٢٨) أهل البيمة بالقبطية وتفسيرها نسل أربعين: وذلك أن الروم البيزنطيين لما خرجوا من مصر تخلف منهم أربعون رجلاً فتناسلوا وكثروا وتوالدوا بأسفل أهل مصر. سعيد بن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق – بيروت ١٩٠٩م – ص ٥٧.

والأعشاب التي تأتي من الجنة الصالحه لاستخراج المواد الطبية[٢٩].

وذكر الرحالة أنه يوجد طريق بين الإسكندرية والقاهرة – حيث يقيم السلطان – وهو طريق يسير بحذاء نهر النيل، وهو قصير ومباشر، وأنه سوف يتحرك من القاهرة إلى صحراء سينا حيث دير القديسة كاترين St. Catherine[٣٠]، وعلى الإنسان أن يجتاز الصحراء العربية التي قاد فيها سيدنا موسى شعب بني إسرائيل، والمقصود هنا فترة التيه.

وفي هذه المنطقة سوف يمر الزائر على بئر سيدنا موسى الذي صنعه بيده وسط الصحراء، عندما كان الناس لا يجدون الماء ليشربوه، ثم مر بنو إسرائيل على بئر يسمى مارة Marah، حيث كان الماء غير صالح للشرب[٣١]، وعندما زرع بنو إسرائيل شجرة في هذا المكان أصبح الماء عذباً وصالحاً للشرب. ثم توجه بنو إسرائيل إلى إيليم، حيث كان بها اثنتا عشر عين ماء واثنان وسبعون نخلة مثمرة، فنزلوا هناك عند الماء[٣٢]، ثم توجهوا إلى جبل سينا[٣٣].

وتكلم الرحالة عن طريق آخر من القاهرة إلى دير القديسة كاترين، في جبل الطور[٣٤]، وذلك عن طريق البحر الأحمر، وهو ذراع المحيط، والمقصود به المحيط الهندي، وعبر البحر الأحمر مر سيدنا موسى مع بني إسرائيل عندما انشق البحر وجف، هرباً من فرعون ملك مصر، ويلاحظ أن عرض البحر الأحمر ستة أميال، ولعله

---

(٢٩) John Mandeville, op. cit., p. 38.

(٣٠) عن القديسة كاترين السيناوية، انظر:
Altwater, D., Dictionary of Saints, Penguin 1975, pp. 211 – 2.

(٣١) الخروج: ١٥: ٢٣ – ٢٥.

(٣٢) الخروج: ١٥: ٢٤ – ٢٧.

(٣٣) John Mandevill, op. cit., p. 38.

(٣٤) عن اهتمام الأمبراطور جستنيان الأول Justinian (٥٢٧ – ٥٦٥م)، بالدير انظر:
Procopius, Buildings, tran. H. B. Dewing, London 1971, pp. 355 – 6.

يقصد خليج السويس، حيث غرق فرعون وجيشه. ويذكر الرحالة أن البحر الأحمر ليس أحمر اللون ولكنه سمي كذلك، وهو بحر يمتد من الصحراء العربية وفلسطين إلى الجنوب. ويلاحظ أن أهل سيناء لا يستخدمون الخيول، حيث ندرة الطعام والماء، ولذلك يستخدمون الجمال التي تتغذى على أوراق الشجر، وأن بإمكانها أن تعوش دون ماء لمدة يومين أو ثلاثة، وهو ما لا تتحمله الخيول[٣٥].

والعرب يسمون جبل سيناء بصحراء سيناء، وفي جبل سيناء، والمقصود به جبل الطور، توجد شجرة العليقة المشتعلة، لأن سيدنا موسى رأى الله في شكل نار وتحدث معه[٣٦]. وعند سطح هذا الجبل يوجد دير للرهبان، وهو بناء حسن يغلق ببوابات حديدية لمنع دخول الحيوانات المفترسة، وبالدير رهبان من العرب واليونانيين، وهم لا يشربون الخمر إلا في المناسبات، وهم رجال ورعون ويعيشون في بساطة وتقوى[٣٧].

ويوجد في هذا المكان كنيسة القديسة كاترين، وهي مزينة بمصابيح تضاء بزيت الزيتون، وهو متوفر بالدير لأعمال الإضاءة والأكل أيضاً، وهذه الوفرة في الزيت ترجع إلى معجزة من عند الله، وهي أن الطيور تجمع أغصان الزيتون كل عام وتطير بها إلى الدير، وكأنها في حالة حج. وفي هذا المكان الذي يقع خلف مذبح الكنيسة رأى سيدنا موسى الله في شكل نار. وعندما يدخل الرهبان إلى هذا المكان، فإنهم يخلعون نعالهم لأن الله قال لسيدنا موسى أخلع حذاءك من رجليك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة[٣٨]، وأن الرهبان يسمون هذا المكان دوزوليل Dozoleel، وهو ما يمكن

---

(٣٥) John Mandevill, op. cit., p. 39.

(٣٦) الخروج: ٣: ٢ - ٤.

(٣٧) John Mandeville, op. cit., p. 40.

(٣٨) سفر الخروج: ٣: ٥.

ترجمته إلى "ظل الله". وإلى جانب المذبح توجد ثلاث درجات صاعدة مصنوعة من المرمر، وتحتها يوجد رفات القديسة كاترين، وأن الرهبان يعرضون رفات القديسة على الزائرين أي الحجاج. كما وضعت عظام القديسة كاترين في وعاء فضي، ومن هذا الوعاء يخرج قليل من الزيت له طعم ورائحة جميلة[٣٩]. والرهبان يقدمون القليل من هذا الزيت كهدية للحجاج. وفي هذا المكان أيضاً توجد رأس القديسة كاترين وملابسها التي كانت ترتديها، عندما حمل الملاك جثمانها إلى جبل الطور حيث تم دفنها. وبإمكان الزائرين أن يشاهدوا العليقة المشتعلة والمكان الذي كلم الله فيه سيدنا موسى[٤٠].

ويضيف الرحالة في هذا الموضع من كتابه: أن رهبان الدير أبلغوه أنه إذا مات أحد الرهبان فإن مصباحه ينطفئ، وعندما يتم اختيار أحد الرهبان، فإن مصباحه يضاء تلقائياً إذا كان رجلاً صالحاً، وذلك بفضل الله ودون تدخل من أحد، ولكل راهب في الدير مصباحه الذي ينطفأ تلقائياً إذا اقترب موعد وفاته، وإذا تم اختيار أحد الرهبان، وهو لا يستحق هذا المقام، فإن مصباحه لا يضيء. وكما ذكر الرحالة أيضاً أن أحد رجال الدين أبلغه أنه إذا حضر أحدهم الموت، فإن اسمه يظهر على المذبح، ويظهر كذلك اسم من سيتم اختياره[٤١].

ويسجل الرحالة أنه لا توجد ذبابة أو ضفدع أو قمله أو برغوث، أو أية قذارة تلوث المكان، وذلك بفضل معجزة من الله والسيدة مريم العذراء. ويوجد في الدير أيضاً بئر سيدنا موسى، حيث ضرب سيدنا موسى الحجر، ومن هذا الدير فإن بإمكان الإنسان أن يصعد الجبل بعدد من الدرجات، حيث يجد كنيسة السيدة العذراء. وفي هذا المكان

---

(٣٩) John Mandeville, op. cit., p. 40.

(٤٠) John Mandeville, op. cit., p. 41.
راجع أيضاً سفر الخروج: ٣: ٥.

(٤١) John Mandeville, op. cit., p. 41.

أيضاً كنيسة أخرى صغيرة للنبي إيليا Elijah، وهذا المكان يسمى حوريب. وبالقرب من هذا المكان، يوجد المكان الذي تلقى فيه سيدنا موسى الوصايا العشر (الشريعة والوصية)[٣٢] وبالقرب منه أيضاً الكهف الذي اختبأ فيه سيدنا موسى، وأقام به أربعين يوماً وأربعين ليلة، وتوفى سيدنا موسى ولا يعلم أحد مكان دفنه[٣٣]. وفى هذا المكان أيضاً كنيسة الأربعين شهيداً[٣٤]، وفى هذا المكان يشتد البرد. ومن المعروف أن جبل القديسة كاترين أعلى بكثير من جبل سيدنا موسى[٣٥].

وانتقل الرحالة بعد ذلك للحديث عن الصحراء التي تقع بين كنيسة القديسة كاترين وبين مدينة بيت المقدس، حيث يوجد في هذه الصحراء الشجرة الجافة، وأول زهرة نبتت في العالم، وأكمل قائلاً: أنه بعد أن تتم زيارة هذا المكان المقدس، يبدأ الزوار أو الحجاج في الاتجاه إلى بيت المقدس، بعد مسافة تصل إلى ثلاث عشرة مرحلة. وسجل الرحالة أنه في هذه الصحراء يسكن كثير من العرب الذي يطلق عليهم البدو، وأنهم لا يقيمون فى مساكن، بل فى الخيام التى يصنعونها من جلود الحيوانات أو الجمال، أو من جلود أي حيوانات أخرى بعد أكلها، وأن هؤلاء البدو يجتمعون فى المكان الذي يوجد به الماء، أو بالقرب من سواحل البحر الأحمر، أو غيره من السواحل. والحقيقة أن صحراء سيناء تفتقر إلى الحياة، وأن هؤلاء البدو لا يأكلون الخبز، ولا يسكنون المدن، وأنهم يشوون اللحم والأسماك بعد وضعها على أحجار ساخنة فى مواجهة أشعة الشمس، وهم رجال أشداء ومحاربون مهرة، ومن الصعب حصر أعدادهم، وهم لا يخافون من السلطان، ويقاتلونه إذا قام بعمل معاد لهم، وذكر الرحالة:

---

(٣٢) الخروج: ٢٤: ١٢.

(٣٣) John Mandeville, op. cit., p. 42.

(٣٤) توجد كنيسة أخرى للأربعين شهيداً في مدينة سبسطية في فلسطين. انظر:
Attwater, op. cit., pp. 133 – 4.
John Mandeville, op. cit., pp. 42 – 3.

أنه في تلك المرحلة كان في خدمة السلطان المظفر زين الدين حاجي، داخل صحراء سيناء، لقتال هؤلاء البدو الذين يلبسون الملابس البيضاء[٤٦].

وعند هذه المرحلة ينتقل الرحالة إلى الحديث عن بلاد الشام، وذكر أنه بعد عبور صحراء سينا يتجه الزائر في طريقه إلى مدينة بيت المقدس، وأول مدينة تقابله بعد عبور شبه الجزيرة هي مدينة بيرسبع، وهي مدينة غير مريحة أو مبهجة للمسيحيين برغم وجود بعض الكنائس بها. وفي هذه المدينة أقام سيدنا إبراهيم لفترة طويلة. وتنسب هذه المدينة إلى بتشبع زوجه أوريا الحثي التي اتخذها سيدنا داود زوجة له[٤٧].

ومن بير سبع يتجه الزائر إلى مدينة الخليل، أو حبرون **Hebron**، التي تبعد حوالي أحد عشر ميلاً، وتكتب أحياناً وادي ممرا، وأحياناً أخرى وادي الدموع، لأن سيدنا آدم بكى في هذا المكان مائة عام لمقتل ابنه هابيل[٤٨]. ويلاحظ أن هذه المدينة ليست مدينة رئيسة عند الفلسطينيين، ولكنها مدينة مقدسة، سكنها العمانيق، وهي تخص أسباط يهوذا[٤٩].

والخليل مدينة مفتوحة تستقبل اللاجئين من كل أنحاء العالم. وفي هذه المدينة فإن يوشع **Joshua**، وكالب **Caleb** وجماعتهم أتوا إليها في بداية الأمر جواسيس، وأنهم رغبوا في الاستيلاء على أرض **Behest**، وهي حبرون أي الخليل[٥٠]، وفي

---

(٤٦) John Mandeville, op. cit., p. 44.

(٤٧) John Mandeville, op. cit., p. 44.
تابع أحداث هذا الموضوع في صموئيل الثاني ١١: ٣ – ٥.

(٤٨) John Mandeville, op. cit., p. 44.
راجع أيضاً سفر التكوين ٤: ٨.

(٤٩) John Mandeville, op. cit., p. 44.

(٥٠) عن الجواسيس راجع صموئيل الثاني ١٥: ١٠.

مدينة الخليل حكم سيدنا داود سبع سنوات ونصف، وأكمل حكمه في مدينة بيت المقدس مدة ثلاثة وثلاثين عاماً ونصف[٣٨].

وفي مدينة الخليل حسب قول الرحالة توجد مغارة المكفيلة، وبها قبور سيدنا آدم، وإبراهيم وإسحق ويعقوب، وزوجاتهم حواء، وسارة ورفقه Rebecca، وليله Leah، والمسلمون يهتمون بهذا المكان، ويوقرونه كثيراً، ولا يسمحون لغير المسلمين بزيارته، ولكن الرحالة كان يحمل خطاب توصية من السلطان سمح له بموجبه بزيارة المغارة. والناس يسمون هذا المكان المغارة المزدوجة، وهم يسمونها كاريكاريا Karicarba، واليهود يسمونها أربوث Arboth. وفي هذا المكان كان منزل سيدنا إبراهيم، وفيه جلس ورأى ثلاثة أشخاص، ولكنه عبد واحداً، وفي هذا المكان استقبل سيدنا إبراهيم الملائكة[٣٩].

وسجل الرحالة أيضاً أنه بالقرب من مدينة الخليل، وعلى يمينها، يوجد كهف في جبل سكنه سيدنا آدم وزوجته حواء، بعد أن خرجا من الجنة، وفي هذا المكان أنجبا أولادهما، ويسمى هذا المكان حقل دمشق، لأنه يقع تحت سلطان حاكم دمشق. ومن هذا المكان يبدأ وادي الخليل الذي يتجه إلى القدس، وفي هذا المكان أيضاً أنجب آدم وزوجته حواء إبنهما Seth شيش[٤٠] الذي ينحدر من نسله السيد المسيح، وفي هذا المكان يوجد في الأرض نبات يسميه السكان كامبيل Cambial ولعله زنجبيل، وهم يستخدمونه عوضاً عن التوابل، ويبيعونه أيضاً[٤١].

وبالقرب من مدينة الخليل يوجد قبر سيدنا لوط أخو سيدنا إبراهيم، وبالقرب

---

(٣٨) John Mandeville, op. cit., p. 44.
ويلاحظ أن الرحالة قد أورد معلومات مضطربة، راجع بشوع: اصحاح ١٣ وما بعده.

(٣٩) John Mandeville, op. cit., p. 45.
راجع أيضاً التكوين: ١٨: ١، ٢.

(٤٠) التكوين ٤: ٢٥.

(٤١) John Mandeville, op. cit., p. 45.

منها أيضاً يوجد جبل مامر الذي اشتق منه الوادي اسمه، كما توجد شجرة البلوطة التي يسميها العرب الشجرة الجافة، ويقول الرحالة إنها موجودة منذ عهد سيدنا إبراهيم، وآخرون يذكرون أنها موجودة منذ بداية الخليقة[٥٥]. وفي بعض الأحيان تخضر أوراقها، وظلت على هذه الحالة حتى مات السيد المسيح، على خشبة الصليب على حد قوله، ثم جفت مثل ما حدث لكل أشجار العالم، ويقول البعض في بعض النبوءات: إن هناك سيدا أو أميراً، من الجانب الغربي من العالم، سوف يسيطر على أرض الميعاد، وهي الأراضي المقدسة، ويساعد المسيحيين، وأنه سوف يقيم القداس تحت الشجرة الجافة، وعندئذ سوف تخضر الشجرة وتثمر، وأن كثيرا من المسلمين واليهود سوف يعتنقون الديانة المسيحية[٥٦].

ومن الخليل إلى بيت لحم مسيرة نصف يوم، وهي حوالي خمسة أميال، والطريق إليها ممهد، وهي مدينة صغيرة وطويلة، وتحيط بها الخنادق، وتكتب أيضا "إفرانا" **Ephrata**[٥٧]، وفي الجانب الشرقي من المدينة توجد كنيسة ذات أبراج متعددة، وفي هذه الكنيسة يوجد أربعة وأربعون عامودا من الرخام الجميل[٥٨].

وبين المدينة والكنيسة يوجد حقل الزهور **Field Flourished**، وفي هذا المكان توجه اللوم إلى السيدة العذراء على خطئها، وما أتت به من فسوق، وأنها تستحق الموت، وأن يتم حرقها في المكان نفسه، وكانت السيدة مريم تشعر أنها لم

---

(٥٥) John Mandeville, op. cit., pp. 44 – 5.

(٥٦) John Mandeville, op. cit., p. 45.
ويلاحظ أن اليهود يؤمنون بعودة المسيح، راجع اشعيا: ١١، وكذلك المسيحيون يوحنا ١٤: ٢ – ٤، أعمال الرسل ٣: ١٤، أما أن يأتي أمير من الغرب ليسيطر على أرض الميعاد فهذا أمر يرجع إلى فكرة الحروب الصليبية وسيطرة حاكم من الغرب الأوروبي على بلاد الشام.

(٥٧) صموئيل الأول: ١٧: ١٢، التكوين ٣٥: ١٩.

(٥٨) John Mandeville, op. cit., p. 46.

ترتكب إثما، وعلى ذلك كان على الله أن يساعدها وأن يعلم الناس الحقيقة، وعندما ذكرت ذلك هدأت النار التي أشعلوها حولها، وتحولت إلى شجرة ورد حمراء، وأن الجزء الآخر تحول إلى وردة بيضاء، وبذلك نجت السيدة العذراء بفضل الله ونعمته، وعلى ذلك سمى المكان بحقل الزهور، لأنه مملوء بالزهور[٥٩].

ويضيف الرحالة أنه بجانب جوقة المنشدين، المقامة في هذه الكنيسة، يوجد سلم يتجه إلى أسفل، مكون من ست عشرة درجة، حيث يوجد المكان الذي ولد فيه السيد المسيح، وبه بئر حوافه من المرمر، ومزين بالذهب والفضة واللازورد، وبعض الألوان الأخرى، وفي هذا المكان يوجد مذود الثور والأتانة، وفيه أيضاً سقط النجم الذي قاد الملوك الثلاثة إلى مكان السيد المسيح[٦٠]. ويعرفه اليونانيون باسم الجلجثة، واليهود باسم دماسوس Damasus، وفي هذا المكان قدم الملوك الثلاثة الذهب والبخور والمر. وعند هذا المكان الذي ولد فيه السيد المسيح يوجد قبر القديس جيروم الذي ترجم الإنجيل والمزامير من العبرية إلى اللاتينية. وبالقرب من هذا المكان توجد كنيسة القديس نيقولا Nicholas، حيث استراحت السيدة مريم بعد الولادة، وفاض اللبن من ثدييها، وسال على الحجر المرمرى الذي لازال أثره موجوداً على الحجر. والحقيقة أن مدينة بيت لحم هي مدينة مسيحية وسكانها مسيحيون[٦١].

وتنتج مدينة بيت لحم قدراً كبيراً من النبيذ الذي يصنعه المسيحيون، ولكن المسلمين لا يشربونه طبقاً للشريعة الإسلامية، وأن ذلك مكتوب في القرآن، أو ما يسميه المسلمون المصحف أيضاً. وبذلك يكون شارب النبيذ أو بائعه ملعوناً[٦٢].

---

(٥٩) John Mandeville, op. cit., pp. 46 – 7.

راجع هذه الرواية في انجيل لوقا: ١: ٢٦ – ٤٥.

(٦٠) راجع متى: م: ١ – ٢، ١٠.

(٦١) John Mandeville, op. cit., p. 47.

(٦٢) John Mandeville, op. cit., p. 47.

والمسلمون كذلك لا يأكلون لحم الخنزير طبقاً لشريعتهم، وإن المسلمين في مصر وفلسطين يأكلون لحوم العجول والأبقار. وعاد الرحالة مرة أخرى إلى الحديث عن مدينة بيت لحم، حيث ولد سيدنا داود، وكان له زوجات بلغ عددهم ستين زوجة، أما زوجته الأولى فكانت تدعى ميكال أو ميشيل (Michal)[٧٢].

وفي الفصل العاشر من كتاب الرحالة يوحنا ماندفيل: تكلم عن مراسم الحج المسيحي إلى بيت المقدس في الأراضي المقدسة وما حولها، وذكر أن مدينة القدس تقع فوق مجموعة من التلال، ولذلك ليس بها أنهار أو آبار، وأن المياه تصل إليها من مدينة الخليل – والقدس مدينة قديمة كانت تسمى يبوس Jebus، وبعدها كتبت كلمة سالم Salem في عهد الملك داود، ثم ضمت الكلمتان معاً فكتبت Jebusalem، وفي عهد الملك سليمان كتبت Jerosolomye ثم أصبحت Jerusalem[٧٣].

وتقع القدس ضمن مملكة سوريا، والمقصود بلاد الشام بما فيها فلسطين وعسقلان وغيرها، وكانت القدس ضمن أراضي يهوذا، وتكتب Judea نسبه إلى يهوذا المكابي Judas Maccabeus الذي كان يحكم هذا الإقليم (١٦٥ – ١٦٠ ق. م) وهي تمتد حتى بلاد الجزيرة العربية ومصر في الجانب الجنوبي، وفي الشرق تمتد حتى البحر المتوسط، وفي الشمال تمتد إلى مملكة سوريا حتى بحر قبرص، أي شمال البحر المتوسط[٧٤]. والحقيقة أن هذه المعلومة غير دقيقة.

وفي مدينة القدس نجد البطريق ورؤساء الأساقفة والأساقفة، وحول المدينة نجد مدناً عديدة منها الخليل وأريحا وبيرسبع وعسقلان، ويافا والرامة، وبيت لحم التي يقع

---

(٧٢) John Mandeville, op. cit., p. 48.
وعن زوجات سيدنا داود راجع صموئيل الأول: ١٨: ٢٠.

(٧٣) John Mandeville, op. cit., p. 49.

(٧٤) John Mandeville, op. cit., p. 49.

على بعد منها بحوالي ميلين كنيسة القديس كاريتوت St. Karitot[٦٦].

ويجد الحاج أخلاط الناس من كافة الأمم في مدينة القدس، ولذلك فإن هذه المنطقة تعاني الكثير بسبب خطايا هؤلاء الناس الذين يعيشون فيها. ويلاحظ أنه قد تناوب السيطرة على هذه المنطقة العديد من الدول من اليهود والكنعانيون [وصوابها الكنعانيون ثم اليهود] والسريان والفرس والميديون واليونانيون، والرومان والعرب والأتراك (المماليك) والمغول وغيرهم. وبإرادة الله، فإن هذه المدينة ظلت طويلاً في أيدي المسلمين. ويضيف الرحالة، أنه في وقت زيارته للقدس، كانت المدينة تحت حكم الوثنيين، يقصد الحكم المملوكي، أكثر من أربعين عاماً، ولكنهم سوف لا يحكمونها طويلاً بإذن الله[٦٧].

ويذكر الرحالة أن الذين أتوا إلى بيت المقدس يجدون كنيسة القيامة، حيث دفن السيد المسيح، وكانت تقع في الجانب الأيمن من المدينة، ولكن الرحالة يذكر أنها، أثناء زيارته للمدينة، كانت ملاصقة لأسوار المدينة. كما يوجد بالمدينة كنيسة دائرة رائعة وهي ليست مسقوفة، ولعلها كنيسة الصعود، وهي مكسوة بالرصاص. وفي الجانب الغربي منها نجد برج الكنيسة الذي شيد بعناية فائقة، وبه جرس الكنيسة[٦٨].

وفي وسط هذه الكنيسة نجد الهيكل، وكأنه وضع في بيت صغير، وله باب صغير أيضاً، وقد صنع مكان الهيكل بشكل دائري، ومزين بالذهب والازورد وأحجار كريمة أخرى، ويرتفع المكان الموضوع فيه الهيكل حوالي ثمانية أقدام وعرض خمسة، وإحدى

---

(٦٦) John Mandeville, op. cit., p. 49.

(٦٧) John Mandeville, op. cit., p. 50.
لقد استعاد المماليك عكا وبقية الأراضي التي كانت تحت حكم الصليبيين في عام ١٢٩١م أنظر:
Marino Sanudo Torsello, The Book of Secrets of The Faithful of The Cross. Tran. Peter Lock. Great Britain 2011, pp. 367ff.

(٦٨) John Mandeville, op. cit., p. 50.

وعشرين ارتفاعاً.

ولا توجد مصابيح في هذا المكان، لذلك يضاء بالمصابيح، وعلى الجانب الأيمن من الكنيسة يوجد المكان الذي صلب فيه السيد المسيح، ويسمى الجلجثة. ويروى أنه في هذا المكان توجد رأس سيدنا آدم التي ظهرت بعد فيضان سيدنا نوح. وفي الصخرة الموجودة في مدينة القدس قدم سيدنا إبراهيم الذبيحة إلى الله. وعند مذبح هذه الكنيسة دفن الملك الصليبي جودفرى Godfrey (١٠٩٩ – ١١٠٠م) والملك بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠ – ١١١٨م) وآخرون من ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩ – ١٢٩١م)[٦٩].

وتوجد معلومة أخرى رأى الرحالة أن يسجلها، وهى أن السيد المسيح، عندما وضع على الصليب على حد قوله، كان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة وثلاثة شهور، ولكن نبوءة داود تقول أنه سيعيش أربعين عاماً[٧٠].

وتفسيراً لهذه القضية؛ يمكن القول أنه في عصر سيدنا داود كان العالم يتبع التاريخ الروماني الذي كان يعتبر العام عشر شهور، أما أيام السيد المسيح فكان يتم إتباع التاريخ الروماني – الذي اعتمد حوالي ٧٥٠م – واعتبر العام اثني عشر شهراً، وأن العام كان ثلاثمائة وخمسة وخمسين يوماً، وفى عام أربعة وأربعين ميلادية، أضاف الإمبراطور يوليوس قيصر Julius Caesar (٤٩ – ٤٤ ق. م) عشرة أيام إلى العام موزعة على شهور العام. فأصبح العام ٣٦٥ يوماً، وهو ما يعرف باسم التاريخ الجوليانى أو اليوليانى. وفى عام ١٥٨٢م عمل بالتاريخ الجريجورى Gregorian المنسوب إلى البابا جريجورى الثالث عشر Gregory XIII (١٥٧٢ – ١٥٨٥م) الذي اعتمد العام ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم. وعلى ذلك فإن أربعين عاماً على

---

(٦٩) John Mandeville, op. cit., p. 51.

(٧٠) John Mandeville, op. cit., p. 51 – 2.

أيام سيدنا داود تساوى حوالي أربعمائة شهر، وإذا قسمنا أربعمائة شهر على اثنتي عشر شهراً، فيكون عدد السنوات ثلاثة وثلاثون عاماً وأربعة أشهر.

وتكلم الرحالة عن الأماكن التي عاش فيها السيد المسيح، وذكر أن القديسة هيلنا Helen والدة الإمبراطور قنسطنطين Constantine (٢٠٥ – ٣٣٧م) كان لها دور كبير في تحديد هذه الأماكن، وعلى ذلك بنيت بعض البنايات المقدسة، وأن الإمبراطور قنسطنطين أخذ أحد المسامير التي دقت في أحد كفي أو قدمي السيد المسيح، ووضعه في لجام فرسه لذلك انتصر على أعدائه[٧١].

ومما سجله الرحالة أنه اعتقد أن الموضع الذي وضع فيه الهيكل، داخل كنيسة القيامة، هو مركز الكون[٧٢]. كما سجل الرحالة نقطة في غاية الأهمية، تدل على سماحة الإسلام، وذكر أنه على بعد مسافة قصيرة من كنيسة القيامة توجد مستشفى القديس يوحنا التي أسستها جماعة الاستبارية Hospitaliers، وأنه يوجد في هذا المستشفى مائة وأربعة وعشرون عامود[٧٣].

ولعل أهم ما ذكره الرحالة في كتابه الوصف الذي تقدم به عن المسجد الأقصى، عندما أطلق عليه اسم معبد الرب، ويقصد بهذه العبارة معبد سيدنا سليمان، فقد ذكر الرحالة أنه يوجد في الجانب الشرقي من مدينة القدس معبد الرب، وأنه مبني جميل، وهو دائري الشكل ومغطى بالرصاص، وبه أعمال من المرمر، وأن المسلمين لا يسمحون للمسحيين أو اليهود بالدخول إليه، ولكن الرحالة كان يحمل خطاب توصية من

---

(٧١) John Mandeville, op. cit., p. 52.

(٧٢) سوف نتناول هذه المعلومة عندما نتحدث عن المعلومات الجغرافية التي قدمها الرحالة.

(٧٣) John Mandeville, op. cit., p. 53 – 4.
ويلاحظ أن جماعة الاستبارية كان لها ذراعاً عسكرياً، وكان هذا الذراع من أقوى وأشرس القوات الصليبية ضد المسلمين، راجع على سبيل المثال المشاركة الفعالة في إسقاط مدينة عسقلان عام ١١٥٣م.
William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond The Sea. Tran. Emily Atwater and C. Kery New York. 1943. p. 229.

السلطان يسمح له بالدخول، وأنه عومل ورفاقه باحترام شديد[٧١].

وكان لهذا المكان بعض القوانين الخاصة، فكان يوجد به رئيس دير والكل يطيعونه، ومن هذا المكان أحضر الملاك إلى شارلمان Charlemagne (ت ٨١٤ م) غلفة السيد المسيح، وهى التي وضعها شارلمان في كنيسة باريس[٧٥]، وأن سيدنا سليمان قد بنى هذا المعبد قبل ١١٠٢ سنه، وأن تيتوس Titus ابن الإمبراطور فسبسيان Vespasian (٦٩ – ٧٩م) حاصر المدينة، لأن اليهود الذين قتلوا السيد المسيح قد ثاروا عليه، لذلك هدم المدينة وهدم المعبد، وأسر اليهود وقتل منهم حوالي مليون نسمة، وسجن الباقى وأخذهم عبيداً له، وباع الثلاثين من اليهود ببنس واحد، لأنهم باعوا السيد المسيح بثلاثين بنس[٧٦].

ويضيف الرحالة أن الإمبراطور جوليان المرتد Julian Apostate (٣٦١ – ٣٦٣م)، الذي ارتد عن المسيحية، حاول إعادة بناء المعبد، فترك لليهود حرية إعادة البناء، وعندما حاولوا حدث زلزال وهدم ما فعلوه[٧٧].

---

(٧١) John Mandeville, op. cit., p. 55.

(٧٢) ذكر إنجيل لوقا إلى عملية ختان السيد المسيح لوقا: ٢: ٢١، ثم تناول التاريخ الكثير من الروايات حول هذا الموضوع انظر:

Glick, Leonard B., Marked in Your Flesh, Oxford 2005, pp 35 ff.

(٧٣) John Mandeville, op. cit., p. 55.

وعن الأحداث التاريخية بمزيد من التفاصيل راجع:

Josephus, The Jewish War, tran. G.A. Williamson, Penguin 1969, pp. 261ff.

ويلاحظ أن الرحالة أشار إلى نوع العملة وهى البنس وهى العملة التى كانت فى بلاده وليست فى بلاد الشام، وعن بيع السيد لمسيح راجع متى: ٢٧: ٣ فقد ورد بها حينئذ لما رأى يهوذا الذى أسلمه أنه قد دين ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنه والشيوخ.

(٧٤) John Mandeville, op. cit., p. 56.

راجع أيضاً

Julian and The Jews 361 – 363 A.D. of Jacob Marus. The Jews in Medieval World: A Source Book, New York 1936, pp. 8 – 12.

وفى هذه المرحلة عاد الرحالة بالتاريخ إلى الوراء، وذكر أن الإمبراطور أدريان أو هادريان Adrian (١١٧ – ١٣٨م) أعاد بناء مدينة القدس مرة أخرى على الشكل السابق ولم يسمح لليهود بالمعيشة فيها، بل جعلها مدينة مسيحية، وقد أبقى الإمبراطور على كنيسة القيامة، وجعلها داخل أسوار المدينة وسماها إيليا Aelia[٧٨]. ويلاحظ أن كنيسة القيامة لم تكن قد شيدت في هذا التاريخ، وأنها شيدت بعد ذلك في عهد الإمبراطور قنسطنطين، على يد والدته هيلانه[٧٩]. ويضيف الرحالة أن المسلمين يحترمون هذا المعبد أي المسجد الأقصى، وأنهم يدخلون إليه حفاة، وأنهم ينحنون عدة مرات، ولعنه يقصد يسجدون، وكان على الرحالة ورفاقه أن يخلعوا نعالهم أيضاً قبل الدخول[٨٠].

وأهم ما ذكره الرحالة، عن المسجد الأقصى، المساحة التي وصفه بها، فقد ذكر أن عرض المسجد حوالي أربعة وستين ذراعاً، أما الطول فهو أكثر من ذلك، وأنه يرتفع حوالي ستة أقدام[٨١] وإذا حاول الباحث أن يجد مساحة لهذا المسجد، في تلك المرحلة، فيمكن القول إن عرضه هو أربعة وستون ذراعاً، وإذا افترضنا أن طول المسجد على أقل تقدير كان حوالي ثمانين لتكون المساحة (٥١٢٠ قدم)، وهى معلومة غير دقيقة.

وفيما يتعلق بمساحة معبد سيدنا سليمان، فقد ورد في التوراة: والبيت الذي بناه الملك سليمان للرب طوله ستون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً[٨٢]. فتكون مساحته

---

(٧٨) John Mandeville, op. cit., p. 56.

(٧٩) Eusebius, The History of the Church, Penguin 1965 pp. 156 – 8, 401 – 3.

(٨٠) John Mandeville, op. cit., p. 56.

(٨١) John Mandeville, op. cit., p. 56.

(٨٢) سفر الملوك الأول ٦: ٢ – ٣.

(١٢٠٠ ذراع). أما المسجد الذي بناه عمر بن الخطاب وشاهده الرحالة أركولف في عام ٥٠٩هـ/ ٦٧٠م أنه بني على جزء من خراب بيت المقدس، فيمكن القول أن مساحته كانت (١٨٠٠٠ قدماً مربعاً)، باعتبار أنه كان يسع ثلاثة آلاف مصل[٨٣]، إذا افترضنا أن الفرد يصلي في مساحة قدرها قدمان عرضاً في ثلاثة طولاً. وعلى ذلك لا يمكن القول أن المسجد الأقصى الذي بني على أنقاض معبد سليمان، وأن المساحة التي ذكرها الرحالة أقل مما كانت عليه أيام أركولف.

ويضيف الرحالة أنه في منتصف المسجد توجد قاعدة مرتفعة، تحتوى على أربع عشرة درجة، بها أعمدة حسنة البناء، وكان هذا المكان يسمى عند اليهود قدس الأقداس على حد قول الرحالة، كما ذكر الرحالة أنه يوجد لهذا المسجد أربعة أبواب، كما يوجد في الجانب الشمالي من المسجد بئر[٨٤]. وأضاف أنه على الجانب الآخر من المسجد توجد صخرة يسميها الناس موريا **Moriach**، ثم سميت بعد ذلك باسم بثيل **Bethel**، حيث كان يوجد تابوت عهد الرب ومخلفات اليهود، وقد حملت كل هذه الأشياء إلى روما بعد ذلك، وكان في هذا التابوت الوصايا العشر التي وضعت من قبل في هذا المكان بعد ما عبر سيدنا موسى وبنو إسرائيل البحر[٨٥].

وعن هذه الصخرة قدم لنا الرحالة بعض المعلومات التي تخص سيدنا يعقوب وبني إسرائيل والقديس سمعان، والعظات التي ألقاها السيد المسيح، وميلاد يوحنا المعمدان[٨٦]. ويلاحظ أن الرحالة يتكلم عن المكان ومعبد سيدنا سليمان كما جاء في

---

(٨٣) Arculfus, The Pilgrimage, tran. Rev. James Rose Macpherson, in Palestine Pilgrims Text Society vol London 1995, vol III, pp. 4– 5.

(٨٤) توجد بها بركة بيت صيدا إلى الشمال من المسجد وخارجه تماماً.

(٨٥) John Mandeville, op. cit., pp. 56 – 7.

(٨٦) John Mandeville, op. cit., pp. 57 – 8.

التوراة، ولا يتكلم عن الواقع الماثل أمامه.

وأكمل الرحالة حديثه عن المسجد الأقصى، وذكر أن فرسان المعبد أو الداوية Templers، قد أقاموا داخل المسجد الأقصى بعد ما أسسوا جماعتهم الدينية[٨٧]، ثم تكلم عن كنيسة القديسة حنة والدة السيدة مريم العذراء، والمكان الذي دفن فيه يواقيم والد السيدة مريم العذراء، وأن القديسة هيلينا والدة الإمبراطور قنسطنطين، نقلت معظم هذا الرفات والمخلفات إلى القسطنطينية[٨٨].

وسجل الرحالة جانباً عن جبل صهيون، وذكر أن به قبر سيدنا داود[٨٩] وابنه سيدنا سليمان والعديد من ملوك بني إسرائيل، وأماكن مقدسة أخرى تتعلق بالمسيحية والمسيحيين مثل القديس بطرس[٩٠].

وإذا انتقلنا إلى الفصل الثاني عشر من كتاب الرحالة، نجده يسجل معلومات عن البحر الميت الذي لا يغرق فيه الإنسان، وأن نهر الأردن يصب في هذا البحر، أن كلمة الأردن هما كلمتان الأولى هي جور Jor، وهي اسم لنهر، والثاني وأن Dan ونكتسب أحياناً بلناس، ثم اتحدت كلمتا Jor ودان Dan فأصبحتا كلمة Jordan وهي الأردن[٩١].

وسجل لنا الرحالة أنه إلى الجنوب من البحر الميت توجد قلعة الكرك، وهي القلعة التي بناها الملك الصليبي بلدوين الأول[٩٢] Baldwin I (١١٠٠ – ١١١٨)، ثم

---

(٨٧) عن تأسيس جماعة الداوية وسيطرتهم على المسجد الأقصى من المصادر المعاصرة للأحداث راجع William of Tyre, op. cit., I, p. 524 – 7.

(٨٨) John Mandeville, op. cit., pp. 59 – 60.

(٨٩) انظر الملوك الأول ٢: ١٠.

(٩٠) John Mandeville, op. cit., pp. 61 – 3.

(٩١) John Mandeville, op. cit., p. 69.

(٩٢) عن المصادر المعاصرة للملك الصليبي بلدوين وبناء قلعة الكرك راجع

تحدث عن ذكريات الناصرة ومدينة شيلو وشكيم ونابلس وسبسطية، كما تكلم عن اليهود السامرين وعاداتهم، وخص مدينة الناصرة بجانب كبير من الذكريات باعتبارها المكان الذي ولدت فيه السيد مريم العذراء وتربى فيه السيد المسيح، لذلك عرف بالناصري وذكر أن سكان هذه المنطقة من المسلمين يتميزون بالقسوة والخبث أكثر من أي مكان آخر[٩٣].

وفي موضع من الكتاب الثاني عشر من مؤلف الرحالة: ذكر بعض المعلومات الهامة، عندما تكلم عن سوريا وفلسطين والجليل، وذكر أن لشعب هذه الأقاليم عادات يستخدمونها عند الحروب، ومن ذلك أنه عندما يحاصرون أي مدينة أو قلعة فإنهم يرسلون الرسائل بعضهم إلى بعض عن طريق الحمام الزاجل[٩٤].

ويسجل الرحالة في موضع آخر: أن كثيراً من المسيحيين يعيشون بين المسلمين، وأن هؤلاء المسيحيين يمارسون كل عاداتهم، بما في ذلك تعميد الأطفال، وبرغم هذا الاختلاف فإن للجميع الهاً واحدا، ومن هؤلاء المسيحيين اليعاقبة نسبة إلى القديس يعقوب الذي بشر بينهم، وعمدهم يوحنا المعمدان، وأنهم يؤمنون بأن الاعتراف يكون للرب وليس لأي إنسان، وهناك مذاهب مسيحية عديدة منتشرة في بلاد الشام، وجميع هؤلاء يستخدمون اللغة العربية، ولكنهم يستخدمون اللغة اليونانية في الطقوس الدينية[٩٥].

وعندما انتقل الرحالة إلى الفصل الرابع عشر من كتابه: تحدث فيه عن مدينة

Fulcher of Charters, A History of the Expedition to Jerusalem, tran. Frances Rita Ryan, Knoxville 1969, pp. 215 – 6.

(٩٣) John Mandeville, op. cit., pp. 71 – 5.

(٩٤) John Mandeville, op. cit., p. 79.

(٩٥) John Mandeville, op. cit., p. 79.

دمشق، والطرق البرية التي بينها وبين القدس، وذكر أنها مدينة جميلة، بها الكثير من النبلاء والتجار الذين يأتون إليها على الجمال ودواب الحمل الأخرى، حاملين تجارتهم المستوردة من الهند، وبلاد فارس، وأرمينيا وبلاد أخرى. وأن في المدينة أبارا عديدة والكثير من الحدائق والفاكهة، والمدينة مكتظة بالسكان ولها سور مزدوج، وبها العديد من الأطباء، وأن القديس بولس الرسول (ويدعى أيضاً شاول) عمل بها طبيباً للأجساد قبل أن يعتنق المسيحية ويصبح طبيباً للأرواح[٩٦].

ومن الطرائف التي رواها الرحالة يوحنا ماندفيل؛ أنه ذكر أن بين مدينة عرقه Arkez ومدينة رفينة Raphane يوجد نهر يطلق عليه أهل المنطقة اسم السبتي Sabatory، لأن مياه هذا النهر تسير بسرعة يوم السبت، أما في بقية أيام الأسبوع فالنهر يسير سيرا طبيعياً[٩٧].

وأكمل الرحالة وذكر: أنه بالقرب من هذه الأراضي توجد مدينة عظيمة هي مدينة طرابلس وهي مدينة ساحلية، وفي هذه المدينة عدد كبير من المسيحيين المؤمنين، وأنهم يقيمون شعائرهم طبقاً لشعائر الرحالة[٩٨]، والمقصود بهؤلاء المسيحيين جماعة المردة أو الجراجمة، الذين يعيشون حالياً في منطقة إهدن وزغرتا اللتين تقعان إلى الشرق من مدينة طرابلس، وهم يعتنقون المسيحية على المذهب الكاثوليكي، مثل مذهب الرحالة وقت رحلته[٩٩].

---

(٩٦) John Mandeville, op. cit., pp. 81 – 2.
وعن حياة القديس بولس في دمشق راجع أعمال الرسل ٩: ١ – ١٢.

(٩٧) يتضح من سياق الحديث أن أقرب نهر إلى مدينة طرابلس هو نهر قاديشا أو نهر أبو علي الذي ينبع من وادي قاديشا الذي يرتفع حوالي ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر، وأن طول هذا النهر حوالي ٤٢ كيلو، راجع الأطلس العربي – ج. م. ع ١٩٨٥ ص ٣٠، أما المدن التي ذكرها الرحالة فهي لا تتفق مع جغرافيا المنطقة، ومن الواضح أن الرحالة أخطأ في ذكر هذه المدن راجع: John Mandeville, op. cit., p. 83

(٩٨) John Mandeville, op. cit., p. 83.

(٩٩) عن هؤلاء المردة أو الجراجمة أنظر قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس – إدارة الامبراطورية البيزنطية.

ومن سواحل هذه المدينة يتقدم المسافر جنوباً، بالطريق البحري، إلى مدينة بيروت حيث قتل القديس جورج St. George التنين، وهي مدينة جميلة ومحصنة للغاية، تبعد ثلاث مراحل من مدينة ساردنكا Sardenk ولعلها مدينة "زردنا" التي تقع إلى الشمال من المدينة، ومنها يتجه المسافر جنوباً إلى مدينة صيدا. وإلى مدينة بيروت يأتي الحجاج المسيحيون من جزيرة قبرص عن طريق البحر، وعلى الساحل أيضاً تقع مدينة صور. والحقيقة أن الوصول إلى مدينة بيت المقدس عن طريق البحر يشمل عدة طرق، ويمكن الذهاب إليها براً عن طريق مصر وصحراء سينا. وتتكلم الرحالة عن الطرق التي يسلكها الحجاج القادمون من البندقية أو جنوه، أو غيرها من المدن الأوروبية، أو جزر البحر المتوسط[١٠٠]. وهي معلومة مكررة ذكرها الرحالة من قبل.

وآخر ما سجله الرحالة عن بلاد مصر والشام هي بعض عادات العرب وجانب من الشريعة الإسلامية، وبعض المعلومات عن الرسول الكريم، وفي هذا المجال ذكر الرحالة أنه تعلم جانباً من اللغة العربية، لذلك فإنه تعرف على جانب من ديانة ومعتقدات المسلمين، وذكر أن الكتاب الذي يؤمن به المسلمون هو القرآن أو المصحف أو الحرم Harme، وهو الذي نزل على سيدنا محمد، ويقول الرحالة يوحنا إنه قرأ جانباً من هذا القرآن، وقد ورد به أن الصالحين يدخلون الجنة، بينما يدخل الأشرار النار، وإذا سألت أي مسلم عن الجنة فإنه يقول أنه مكان جميل به كل أنواع الفاكهة على مدار العام، وأن أنهار اللبن والعسل والخمر المصفى تجرى في الجنة، وفيها أيضاً مساكن جميلة وأحجار كريمة والذهب والفضة، وسيكون لكل فرد العديد من الزوجات، وأن المسلمين يعترفون بالسيدة مريم العذراء، وأن الملاك جبريل أخبرها أن الله اصطفاها على نساء

عرض وتحليل وتعليق دكتور محمود سعيد عمران – دار النهضة – بيروت ١٩٨٠ ص ٧٩ وحاشية (٢).

(١٠٠) John Mandeville, op. cit., pp. 84 – 8.

العالمين[١٠١]، كما أن المسلمين يعترفون أيضاً أن سيدنا عيسى تكلم في المهد، وأنه نبي قولاً وعملاً، وغير ذلك من الأمور التي يعترف بها المسلمون عن السيدة العذراء والسيد المسيح والديانة المسيحية[١٠٢].

وتحدث الرحالة عن أن القرآن الكريم تحدث عن يوم القيامة، وأن الله سيحاسب البشر على أعمالهم، وذكر أن المسلمين يختلفون مع المسيحيين في عملية صلب السيد المسيح. وأن المسلمين يؤمنون بالله خالق السموات والأرض، وخالق كل شيء، ويؤمنون كذلك بيوم القيامة، وأن كل إنسان سينال ما يستحقه. وذكر أنه يطلق على المسلمين أيضاً كلمة الإسماعليين نسبة إلى سيدنا إسماعيل، أو الهاجريين نسبة إلى السيدة هاجر[١٠٣] وأضاف الرحالة أن للمسلم أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع، وذكر أيضاً أن المسلمين يعتقدون أن سيدنا إبراهيم هو خليل الله، وأن سيدنا موسى هو كليم الله، وأن السيد المسيح هو كلمة الله من الروح القدس، وأن المسيحية والسيد المسيح أقرب إلى المسلمين من الديانات الأخرى[١٠٤].

وسجل الرحالة أن سيدنا محمدا ولد في الجزيرة العربية، وأنه ولد فقيرا، وكان يرعى الإبل، وعمل بالتجارة، وذهب مع التجار إلى مصر عندما كان المصريون يعتنقون المسيحية، وأن الرهبان كانوا يعيشون في الصحراء العربية وصحراء سيناء[١٠٥] وأن أحد هؤلاء النساك بشره بالنبوة، وأنه تزوج بالسيدة خديجة، وأن سيدنا جبريل كان

---

(١٠١) John Mandeville, op. cit., p. 89.

(١٠٢) John Mandeville, op. cit., p. 90.

(١٠٣) John Mandeville, p. 91.

(١٠٤) John Mandeville, p. 92.

(١٠٥) John Mandeville, op. cit., p. 95.

ينزل عليه بالوحي ويعلمه، وأن سيدنا محمدا حكم في الجزيرة العربية في عـام ٦١٠م، وأنه من نسل إسماعيل ابن سيدنا إبراهيم وزوجته هاجر، ويسمى المسلمون المرسيون Saracens أي الشرقيون ويكتبها المسلمون "الإسماعليون" أو "الهاجريين"، والـبعض يطلق عليهم أسم المؤابيين أو الأمونيين نسبة إلى ولدى سـيدنا لـوط وهمـا مـؤاب وأمون[١٠٦].

والحقيقة أن مسمى أولاد سيدنا لوط الذي أطلق على المسلمين بعيد عن الحقيقة إلى حد كبير، وهو أمر انفرد به الرحالة يوحنا ماندفيل، ولكن هناك بعـض المـسميات الأخرى وردت في المصادر الأجنبية، بخلاف ما ورد عند الرحالة يوحنا، ومن ذلك كلمة البدو Bedouins، أو Ascopards أي البدو أيضاً، وأن بعضهم وصف العرب بكلمة Wiched أي الأشرار، يضاف إليها كلمة Moors أي البربـر، وكلمـة Infidels أي الكفرة وكلمة Pagans وتعني الوثنيون، وكلمة Canaille وتعنـي الرعـاع. وكلمـة Heretics أي المهرطقون، وكلمة Nubians وتعني النوبيين والمقصود بها القـوات العسكرية الفاطمية، أو القوات الإسلامية بعامة، وخاصة في مصر.

وآخر ما ذكره الرحالة يوحنا ماندفيل عن المسلمين في كتابـه: أن المـسلمين يعتقدون في إله واحد، ويقولون لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله.

La ellec olla sila, Machomete rors alla

= There is no God, but one, and Mahomet his messenger[١٠٧].

أما عن الجانب الجغرافي عند الرحالة يوحنا ماندفيل، فقد سجل أن مدينة بيـت المقدس هي مركز الكون، اعتقاداً منه أن الأرض كروية، وقال لقد تأكد ذلك للجميـع: إذ

---

(١٠٦) Loc. Cit.,
ويلاحظ أن الرحالة تأثر بالمسميين الأخرين بما هو مسجل في مزمور سيدنا داود، راجع المزامير ٨٣: ٥ – ٨.

(١٠٧) John Mandeville, op. cit., p. 96.

عندما يثبت الإنسان رمحا في أرض المدينة، في وقت الاعتدال الربيعي في منتصف النهار، فلا يكون هناك ظل للرمح، وهذا ما يؤكد أن القدس مركزاً للكرة الأرضية. ويدلل الرحالة يوحنا ماندفيل على كروية الأرض ويقول: إنه عندما كان في جزيرة لامارى Lamary وهى سومطره، فإنه لم يشاهد النجم القطبي Star Transmontane أو The Star of the Sea، وهو ما يسمى أيضاً Lode- Star، وهو نجم لا يتحرك ومكانه في الجانب الشمالي من السماء، ولكن الإنسان يرى وهو في جزيرة سومطره نجماً آخر يسمى Antartic، وهو يقع في الجانب الجنوبي من السماء(١٠٨).

ويضيف الرحالة أن كل البحارة يعلمون ذلك ويهتدون به، حيث لا يظهر النجم القطبي في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، ومن هنا جاء مفهوم الناس أن الأرض كروية، وأن ما يظهر منها في جانب لا يظهر في الجانب الآخر، وعلى العكس من هذا السطح(١٠٩).

ويكمل الرحالة فكرته ويسجل أن: ما برهن عليه هو ما شاهده عندما كان في ضواحي بربانت Barbant بألمانيا، حيث استخدم الأسطرلاب، وكان النجم القطبي يرتفع خمساً وخمسون درجة، وأن هذا النجم يرتفع خمسين درجة فقط إذا رآه الإنسان في بوهيميا، وأنه يرتفع أكثر في الجانب الشمالي من الكرة الأرضية، حيث يصل إلى اثنين وستين درجة، ويؤكد الرحالة على هذه الأرقام، ويقول إنه سجلها بنفسه باستخدام الإسطرلاب، ويضيف أنه أصبح واضحا أنه يقابل النجم القطبي الشمالي نجم آخر يسمى أنتارتك يظهر في الجنوب، وأن هذين النجمين لا يتحركان إطلاقاً، ويقعان على محور واحد(١١٠).

---

(١٠٨) John Mandeville, op. cit., pp. 119 – 120.
ويلاحظ أن قارة أنتاركتيكا تقع في أقصى جنوب الكرة الأرضية وتقع معظمها داخل الدائرة القطبية الجنوبية، وأن هذه الكلمة مشتقة من كلمتين يونانيتين .Ant أى المضاد أو المقابل وكلمة Arktos وتعنى الدب الأكبر، ومعنى ذلك أن هذه المنطقة تقابل المنطقة الشمالية القطبية.

(١٠٩) John Mandeville, op. cit., p. 120.

(١١٠) Loc. Cit.

ويسجل الرحالة أنه ذهب بعد هذه الملاحظات إلى الجنوب من أوربا، وسجل أنه لاحظ نجم أنتارتك في ليبيا، وأنه تجول في المنطقة والمناطق المجاورة، ولاحظ أن هذا النجم يظهر في مكان مرتفع يصل إلى ثمانية عشر درجة، وأنه لاحظ أيضاً بعد أن تجول في هذه المناطق براً وبحراً، أن هذا النجم يرتفع حوالي ثلاثاً وثلاثين درجة، وأن النجم القطبي الشمالي يرى في الشمال بحوالي اثنين وستين درجة. ومن كل هذه المشاهدات فإن الإنسان يوسعه أن يبحر من بلاده ويطوف حول الكرة الأرضية، وأنه سوف يعود إلى بلاده[١١١]. وعلى ذلك يمكن القول إن الأرض كروية وأن مدينة القدس هي مركز الكون كله، ويؤكد ذلك ما ورد في مزامير داود[١١٢] ويلاحظ أن هناك أشارت سابقة إلى أن القدس مركز الكرة الأرضية ومن ذلك ما سجله الرحالة أركولف في عام ٦٧٠م[١١٣].

وفي ختام هذا البحث: يمكن القول إن النتائج كثيرة ومتعددة، وأن أهم ما يمكن أن نسجله من هذه الرحلة أنها كانت زيارة توارتية إنجيلية، أي أنها كانت رحلة حج إلى الأراضي المقدسة غير الإسلامية، وإن الرحالة بالإضافة إلى ذلك، قدم لنا جانباً من المعلومات الهامة، بعضها من الأمور المقبولة والأخرى لا يخلوا تسجيلها من طرافة. ومن هذه النتائج أنه سجل جانباً عن حضارة مدينة الإسكندرية مثل خزانات المياه، وحصانتها، ونشاطها التجاري. كما تكلم عن مدينة دمياط التي هاجمها الصليبيون بالحملة الصليبية الخامسة والسادسة. ومن طرائف ما سجله الرحالة أن أهرامات الجيزة هي مخازن غلال سيدنا يوسف.

يضاف إلى ذلك؛ أن الرحالة سجل أن نهر النيل هو أحد الأنهار التي تنبع من

---

(١١١) John Mandeville, op. cit., p. 122.

(١١٢) مزمور ٧٤: ١٢.

(١١٣) Arculfus, The Pilgrimage, Palestine Pilgrims Text Society, New York 1971, vol III, p. 17.

الجنة، وأن بمصر نوعاً من التفاح أطلق عليه المصريون أسم تفاح الجنة، كما أشار إلى عملية تفريخ وتربية الدجاج والبط والأوز، وإنتاج مصر لأشجار البلسم. ومن الجانب الديني تكلم الرحالة عن انشقاق البحر، وخروج سيدنا موسى وبنو إسرائيل من مصر، وبعض الآثار الدينية في دير سانت كاترين، مثل بئر سيدنا موسى وشجرة العليقة والكنائس الموجودة في منطقة الدير. وختم الرحالة حديثه عن مصر بمعلومات عن البدو الذين يعيشون في صحراء سينا، وبعض عاداتهم مثل اتخاذ الخيام مسكناً لهم، واستخدام الجمال، وشي اللحوم على حرارة أشعة الشمس، وارتدائهم الملابس البيضاء، وأنهم يحاربون السلطان في بعض الأحيان، وأن الرحالة حضر جانباً من هذه الحروب.

أما فيما يتعلق ببلاد الشام: فكانت الزيارة أكثر عمقاً في الجانب الديني، وكان على الباحث أن يتتبع ما سجله الرحالة مع ما ورد في الكتب المقدسة، وكان ذلك أمراً بالغ الصعوبة، وعلى أية حال فقد تكلم الرحالة عن العديد من بلاد الشام، وحركة الحج والتجارة في هذه المنطقة، وأن مدينة القدس هي مركز الكون، كما تكلم عن معبد سيدنا سليمان والمحاولات السابقة لإعادة بنائه، وفشل كل هذه المحاولات، وأن مساحة المسجد الأقصى تصل إلى حوالى خمسة آلاف ومائة وعشرين قدماً، وأن أهل بلاد الشام يستخدمون الحمام الزاجل في أوقات الحروب، وأن بلاد الشام تضم الكثير من الطوائف الدينية، وأنهم جميعاً يستخدمون اللغة العربية، وأن الجميع يتعايشون بعضهم مع بعض في سلام. كما تكلم الرحالة عن بعض عادات المسلمين طبقاً للشريعة الإسلامية، وأن الرحالة أطلق مسميات متعددة على المسلمين. ولعل أهم ما قدمه الرحالة أن سيدنا المسيح عاش أربعين عاماً بالحساب الفلكي الروماني الذي كان معاصراً لسيدنا داود، وهو أن السنة تحتوى على عشرة أشهر، وثلاثة وثلاثين عاماً وثلاثة أشهر طبقاً للتقويم الجولياني، وأن الأرض كروية، وأن الإنسان إذا رحل من مكان وطاف الكرة الأرضية فإنه سوف يعود إلى المكان الذي رحل منه، وهذا فكر جديد سجله الرحالة في عام ١٣٤٦ – ١٣٤٧م.

المراسلات بين العباسيين والبيزنطيين في العصر العباسي الأول ١٣٢-٢٣٢هـ/٧٥٠-٨٤٧م

أ.د. أسامة عبد الرحمن الأمين
عميد شئون الطلاب الجامعة الوطنية - السودان

مما يلفت نظر الباحث في التاريخ العباسي؛ أن العباسيين لم يهتموا بالفتوحات وضم أراضٍ جديدة، وبالتالي كان توقف حركة الفتوحات، كما أنهم لم يخططوا لإسقاط الدولة البيزنطية، كما فعل أسلافهم الأمويين، بل اكتفوا بتأمين دولتهم، لذلك اتخذ الصدام بين الجانبين صورة الغارات الانتقامية التخريبية، يهدف فيها كل طرف إلى إلحاق أكبر قدر من الخسائر بالطرف الآخر، دون أن تتحقق انتصارات نهائية، وفي هذا يستغل كل طرف ظروف الاضطرابات الداخلية لدى الطرف الآخر؛ للقيام بمثل هذه الغارات.

يمكن القول: إن سياسة العباسيين قامت على أساس الدفاع عن الحدود، وليس ضم أراضٍ جديدة، فغزواتهم كانت وقائية دفاعية، تهدف إلى تأكيد قوة المسلمين، بل إن التركيز الأساسي للمسلمين كان على العلاقات السلمية، حتى يتفرغوا لإدارة الدولة الشاسعة؛ التي خلفها لهم الأمويين، والعمل على تطورها وتقدمها، وقد نجحوا في ذلك.

تمثل المراسلات جانباً من هذه العلاقات السلمية الدبلوماسية، بين المسلمين والبيزنطيين، مع العلم بأن الاتصال الدبلوماسي قد بدأ بين الجانبين منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما بعث الصحابي "دحية الكلبي" إلى هرقل. وقد كانت هذه الرسالة تحمل في طياتها أسلوبا أدبياً رفيعاً ،من ناحية أخرى اختلفت الرسائل باختلاف الشأن المرسلة من أجله، ولكل قواعد خاصة به.

تهدف هذه الورقة للآتي :

أولاً :التعرف على جذور الرسائل بين المسلمين والبيزنطيين .

ثانياً :الوقوف على رسائل الخلفاء العباسيين إلى أباطرة بيزنطا .

ثالثاً : استعراض الرسائل البيزنطية إلى الخلفاء العباسيين .

رابعاً : الوقوف على نتائج المراسلات بين العباسيين والبيزنطيين .

جذور الرسائل بين المسلمين والبيزنطيين

لقد كانت رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي حملها دحية الكلبي إلى هرقل، هي أول رسائل المسلمين إلى البيزنطيين ، وقد جاء في هذه الرسالة (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من أتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتيك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك أثم الأريسيين(قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[1].

بعد هذا يظهر لنا الرسل وليست الرسائل ، إلى أن كانت المراسلات بين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان والإمبراطور جستنيان الثاني ٦٨٥-٦٩٥م. كما توجد مراسلات أخرى دارت بين الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز والإمبراطور البيزنطي ليو الثالث ، بين له فيها عقيدة الإسلام؛ آملا في أن يقنعه بالدخول فيه.

رسالة الإمبراطور البيزنطي نقفور إلى هارون الرشيد

كتب الإمبراطور البيزنطي نقفور إلى الرشيد، بعد أن استولى على عرش بيزنطا، رسالة جاء فيها: (من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا أن تحمل إليها أمثاله، لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي

فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما تقع المصادرة عليه، وإلا فالسيف بيني وبينك)[٢].

أثبتت تطورات الأحداث خطأ نقفور في تصوره هذا، ذلك أن الجزية التي أوقف دفعها سرعان ما عاد لها ثانية، أمام ضغط الجيوش الإسلامية، ولأن نقفور ليس عسكرياً؛ كان من الطبيعي إن لا يقدر الموقف حق قدره[٣]. ومن جانب آخر يثبت هذا صواب الموقف الذي اتخذته إيرين بدفعها الجزية للمسلمين.

رسالة الخليفة هارون الرشيد إلى الإمبراطور نقفور:

جاءت هذه الرسالة كرد فعل لغضب هارون الرشيد من رسالة نقفور السابقة، فدعا بدواة وكتب : (من هارون الرشيد إلى نقفور ملك الروم قد قرأت كتابك يا ابن الفاجرة، والجواب ما تراه دون أن تسمع به والسلام) [٤].

ثم شخص الرشيد حتى أناخ على هرقلة في (٨٠٤م) فغنم وسبى وأحرق ، فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤدية كل سنة، خمسين ألف دينار[٥]. فأجابه إلى ذلك فلما رجع عن غزوته، وصار بالرقة، نقض نقفور العهد وخان الميثاق عما أخذ عليه، فما تهيأ لأحد أخباره بذلك، إشفاقا عليه وعلى أنفسهم من الكرة في مثل تلك الأيام، فاحتال وزيره يحيى بن خالد بشاعر من أهل جنده يكني أبا محمد، ويسمى عبد الله بن يوسف، فقال أبياتاً جاء في صدرها:

نقض الذي أعطيته نقفور　　فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه　　غنم أتاك به الإله كبير

وبعد موافقة نقفور على دفع الجزية، كان قول أبي العتاهية:

تجلت الدنيا لهارون بالرضا　　وأصبح نقفور لهارون ذميا(٦).

هذه الرسالة نموذج لرسائل الحرب، حيث الاختصار الشديد، كما أنها ابتعدت عن لغة التسامح، أما قبول الجزية فإنه يحقق للرشيد الحصول على الأموال، إضافة إلى أنه موقف شرعي سليم يمتزج معه الشعور بالانتصار.

أما نكوص نقفور فربما يعود إلى اعتقاده بأن بعد المسافة والبرد ربما حالا دون عودة الرشيد إلى الأراضي البيزنطية. بيد أن هذا لم يحدث، إذ رجعت قوات الرشيد وغزت الأراضي البيزنطية، بما في ذلك هرقلة نفسها للمرة الثانية.

رسالة الإمبراطور نقفور إلى الخليفة هارون الرشيد:

عقب المعركة التي دارت نتيجة للأحداث السابقة، كتب نقفور كتاباً مع الذين من بطارقته إلى الخليفة هارون الرشيد، يرجوه إعادة خطيبة ابنه التي كانت ضمن سبي هرقلة.

وقد جاء في كتابه: (لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم سلام عليكم، أما بعد أيها الملك فإن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك، هينة يسيرة، إن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة كنت قد خطبتها على ابنـي ، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[٧].

وقد استجاب هارون الرشيد لهذا الرجاء، وبعث له بالفتاة ومعها مجموعة من الهدايا، وتاريخ هذه الرسالة يأتي بعد واقعة هرقلة الثانية، أي بعد سنه ٨٠٦م، وقد وجدت الرسالة استجابة فورية ودون تردد من هارون الرشيد.

مراسلات الإمبراطور البيزنطي والخليفة الرشيد بشأن أبي العتاهية

ورد في كتاب الأغاني، أن رسولا لملك الروم قدم إلى الرشيد فسأل أبا العتاهية وانشده شيئاً من شعره، وكان الرسول يحسن العربية، فمضى إلى ملك الروم وذكر له ذلك، فكتب ملك الروم إليه، ورد رسوله يسأل الرشيد أن يوجه بأبي العتاهية في ذلك الوقت، فاستعفى منه وأباه [٨].

لم تذكر المصادر نص هذه الرسائل، وقد انفرد بهذا الخبر الأصفهاني دون غيره، وهي تؤكد اهتمام الإمبراطور البيزنطي بالنواحي الأدبية.

أما الإمبراطور البيزنطي، الذي تمت في عهده هذه المراسلات، فالراجح أنه نقفور الأول(٨٠٢-٨١١م) فبالإضافة إلى أن عهده يقابل عهد الرشيد ، فإنه مهتم بالنواحي الأدبية.

رسالة الخليفة الرشيد إلى الإمبراطور قسطنطين السادس :

أورد أحمد فريد الرفاعي في كتابه عصر المأمون[٩] نص الرسالة الطويلة التي أرسلها هارون الرشيد إلى الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السادس، يدعوه إلى دخول الإسلام، شارحاً فيها مبادئ الإسلام، مجادلاً إياه بالتي هي أحسن، وقد جاء في خاتمة الرسالة:(انه إذا استبان لأمير المؤمنين عذركم ونقضكم ونكثكم واستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم إلا الإسلام أو الحرب المملية إن شاء الله .. والسلام على من اتبع الهدى..).

كما ورد نص موجز لهذه الرسالة في كل من العيون والحدائق[١٠] وشذرات الذهب[١١]، وما حملته هذه الرسالة يمكن إيجازه في الآتي:ـ

- الدعوة للدخول في الإسلام على أساس المجادلة بالحسنى.
- تفيد الفكر الديني المسيحي.
- وضع الإمبراطور البيزنطي أمام الخيارات الشرعية: الإسلام، الجزية، أو الحرب.

ـ محاولة استغلال الاضطراب الذي حدث في بيزنطا نتيجة للصراع بين الأيقونية واللايقونية ، وصراع الإمبراطور مع أمه ايرين التي رفضت خلع الوصاية والسلطة عن نفسها، برغم بلوغ ابنها سن الرشد، ثم الضربة القاصمة التي تعرضت لها الإمبراطورية بإعلان تتويج شارلمان، في عام ٨٠٠م، إمبراطورا في الغرب.

- أراد الخليفة الرشيد بها تأكيد إمارته للمسلمين.

رسالة الإمبراطور ثيوفيل إلى الخليفة المأمون:

تولى ثيوفيل، بعد عدد من الأباطرة الضعاف، حكم الإمبراطورية، وقد قاد الخليفة المأمون بنفسه عدة حملات في آسيا الصغرى، وقد سار إلى بلاد الروم في عام ٨٣١م ـ ٢١٦هـ، وكان قد بلغه أن ثيوفيل قد أغار على مدينتي طرسوس والمصيصة، غير أن ثيوفيل مالبث أن كتب إلى المأمون يطلب المهادنة، غير أن المأمون رد كتاب ثيوفيل هذا ليدنه فيه باسمه، وقد قدم اليه الرسل يحملون إليه هذا الخطاب وهو بدمشق، وقد كان عنوان الكتاب (من ثيوفيل بن ميخائيل إلى عبد الله بن هارون).

فغضب المأمون ورمي الكتاب من يده، ثم أقبل على الرسل فقال: (خبروني ما الذي حمل صاحبكم على أن يكتب إلي ببدأ باسمه قبل اسمي؟ قالوا: لا نعلم إنما نحن رسل وما علينا إلا البلاغ المبين، فقال المأمون: صدقتم ولن أكلفكم مالا طاقة لكم به، لكن قد علمتم اني أسن منه، وأن بعض ولدي أسن منه، فقالوا: قد علمنا ذلك ولاشك فيه.

فقال المأمون: كان يجب عليه لوكنا متساويين في الدين أن يقدمني على نفسه، والأخرى أني خليفة وأبي الرشيد خليفة، وجدي المهدي خليفة ، وجد أبي المنصور خليفة، وأنا ابن الخلائف لا يدفعني عن ذلك دافع ، وأخرى يعلم أني قدمت من حرب محمد بن زبيدة، والأخرى قد علم صاحبكم أني نازل بمدينة دمشق. وهي دار بني أمية وقصبة مملكتهم، فهم الذين غصبونا حقنا، وبعد فهذا عز الينوس صاحب حصن سنان مخالف لصاحبكم، فليس يقدر لواحد منا على ضر ولا نفع مع كثرة من معه من الخيل والجنود، فكيف يكتب لي جواباً يبدأ فيه باسمه قبل اسمي؟

قال: فقال الرسول: إن أعطيتنا الأمان تكلمنا ، قال: لكم الأمان ، فقالوا: من قعد على سرير الملك فقد ساوى غيره من الملوك كائنا من كان فغضب المأمون وقال: لولا ما أعطيناكم من الأمان لما رجع إلى صاحبكم منكم أحد، ولكن ارجعوا بغير جواب، وإن كان ملكاً يساوي غيره كما يقول ، فرجع الرسل إلى ثيوفيل فخبروه بما كان من كلام المأمون.

جمع مأمون عساكره وسار يريد بلاد البيزنطيين ، فأقبل من ناحية طرسوس من درب يقال له درب السلام، ونزل على حصن يقال له انطيغوا، فلما همّ بمحاربة أهله لم يحاربوه وطلبوا منه الأمان ، فأحسن إليهم وردهم إلى حصونهم، ثم سار إلى أن نزل بحصن يقال له الأخرب فافتتحه صلحاً ، ثم سار حتى نزل على هرقلة في جميع أصحابه، فحاربهم أياما كثيرة لايفتر من حربهم، فسألوه الأمان فأعطاهم ، وإذا برسل ثيوفيل أتوا إلى المأمون بهرقلة يطلبون الصلح، فزجرهم المأمون، وقال: (لا أداري منه شيئاً دون أن يسلّم إلى جميع بلاد الروم) [١٢] فرجع الرسل إلى ثيوفيل وخبروه بما قال

المأمون ، ولم يزل المأمون يحارب حتى فتح ولداه العباس وهارون اثنين وثلاثين حصنا من حصون الروم، ثم سار بنفسه حتى نزل على حصن يقال له صمالو فقاتل أهله حتى فتحة علوة، وسبى من كان فيه من النساء والذرية ، وهذا الحصن في كبادوكيا[١٣]، كما قام المأمون بمحاصرة لؤلوة، غير أن ثيوفيل كتب رسالة ثانية إلى المأمون جاء فيها: (لعبد الله غاية الناس في الشرف ملك العرب من ثيوفيل بن ميخائيل ملك الروم من قبل ...) وسأل أن يقبل منه مائة ألف دينار والأسرى الذين عنده وهم سبعة آلاف أسير يدع لهم ما افتتحه من مدائن الروم وحصونهم ويكف عن الحرب خمس سنوات فلم يجبه إلى ذلك وانصرف إلى كيسوم من ارض الجزيرة من ديار مضر[١٤].

غير أن الضغط جاء إلى المأمون من مصر، حينما وصلته رسالة الأفشين يخبره بخروج عبدوس الفهري بمصر، فتحرك المأمون إلى مصر، بدلاً من التوغل في الأراضي البيزنطية، وهكذا أبعدت الاضطرابات الداخلية المخاطر عن الإمبراطورية البيزنطية.

رسالة الإمبراطور ثيوفيل الثانية إلى الخليفة المأمون

بعد أن غزا المأمون البيزنطيين سنة ٢١٦هـ ، وفتح اثني عشر حصناً، أرسل إليه ثيوفيل وزيره مع رسالة، عارضاً عليه الهدنة، مازجاً فيها بين اللين والعنف، قائلاً: (أما بعد، فان اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما ولست جريا أن الحظ يصل إلى غيرك حظاً تحوزه إلى نفسك، وفي علمك كاف عن أخبارك وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا، ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزبا مع اتصال المرافق والفسح في التجارة وفك المستأثر وأمن الطرق والبيضة، فإني أبيت فلا أدب لك في الخمر[١٥]، ولا أزخرف لك في القول، فإني لخائض إليك غمارها آخذ عليك أسدادها شأن خيلها ورجالها، وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة واقمت بيني وبينك علم الحجة، والسلام)[١٦].

في هذه الرسالة يذكر ثيوفيل المأمون بما كتبه له من قبل، داعياً إلى السلام والموادعة بين الجانبين، والى التبادل التجاري الذي يبدو أنه ذو أهمية كبيرة للجانبين، وإلا لما أقحم في هذه الرسالة، وكذلك الدعوة إلى فك الأسرى التي تؤكد وجود أسرى، والحاجة إلى تأمين الطرق، وأخيراً يبدو أن ثيوفيل أراد إن يؤكد قوته.

رسالة الخليفة المأمون إلى الإمبراطور ثيوفيل :

تمثل هذه الرسالة رداً على رسالة الإمبراطور ثيوفيل السابقة جاء فيها :

(أما بعد: فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الأساري ورفع القتل والقتال، فلولا ما رجعت اليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة وإلا اعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما اؤتمره في معتقبه لجعلت جواب كتابك لخيلا تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن لكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ويستفلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ثم أوصل إليهم من الإمداد وابلغ لهم كافيا من العدة والعتاد هم اقدماً إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم ، وموعدهم "أحدي الحسنيين" عاجل غلبة أو كريم منقلب ، غير أني رأيت أن التقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية ، فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة، وإن تركت ذلك ففي يقيني المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة، والسلام على من اتبع الهدي) [٧٧] .

هذه الرسالة تعرض عليه دين التوحيد والشريعة الحنيفة، دفع الجزية أو السيف. وهو بذلك يريد إن يؤكد أن الإسلام ليس غزوات للسلب والنهب إنما جهاد، وسيظل الدافع الأساسي لغزو بلاد البيزنطيين هو الجهاد في سبيل الله .

رسالة الإمبراطور ثيوفيل إلى الخليفة المأمون ورده عليها :

رفض المأمون كل مطالب ثيوفيل ، وعندما علم ثيوفيل أن المأمون يستعد لحصار مدينة عمورية في ٨٣٣م/٢١٨هـ، أرسل إليه خطاباً يعرض فيه أن يرد له نفقات حملته، ويسلم ما لديه من أسرى المسلمين، ويصلح ما خرب البيزنطيون من ثغور المسلمين، على أن يضع المأمون الحرب عنه ، وطلب إجراء الصلح والمهادنة بينهما بدلاً منها أو التهديد بها .

وحين قدم رسول الإمبراطور البيزنطي بكتابه الى المأمون؛ قام فدخل خيمته حيث صلى ركعتين واستخار الله فيهما، ثم خرج فقال لمبعوث ثيوفيل :

(قل له: أما قولك ترد علي نفقتي فإني سمعت الله يقول في كتابه العزيز حاكياً عن بلقيس {وإنّي مُرْسِلَةٌ إليْهِم بِهديّةٍ فناظِرَةٌ بِمَ يرْجِعُ المُرْسَلُون} {النمل/٣٥} فلمّا جاء سُلَيْمان قالَ أتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فما آتانِيَ اللّهُ خيرٌ مّمّا آتاكُم بل أنتُم بِهديّتِكُمْ تفْرَحُون}[١٥]. أما قولك أنك تخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم، فما في يدك إلا أحد رجلين: إما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة، فقد صار إلى ما أراد، وإما رجل يطلب الدنيا، فلافك الله أسره..... وأما قولك: إنك تعمر كل بلد المسلمين قد خربته الروم، فلو أني قلعت أقصى حجر في بلاد الروم، ما اعتضت بامرأة تحدث في حال أسرها فقالت: وامحمداه وامحمداه، عد إلى صاحبك قليس بيني وبينه إلا السيف يا غلام اضرب الطبل)[١٦].

توضح هذه الرواية أن الرد كان شفهياً، وأنه إعلان للحرب، وأن المأمون كان يثق في جيشه ثقة كبيرة، لذلك فهو متأكد من الانتصار .

رسالة الإمبراطور ثيوفيل إلى الخليفة المعتصم :

في سنة ٢٢٣هـ أنزل الإمبراطور البيزنطي الدمار والخراب بزبطرة، متناصرة لبابك الخرّميّ الذي تحالف معهم، غير أن الإمبراطور البيزنطي ما لبث أن طلب الصفح فأرسل إليه وفداً يقول: (إن الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدوا أمري، وأنا ابنيها بمالي ورجالي وآرد من أخذ من أهلها وأخلي جملة من في بلد الروم من الأسرى وأبعث إليك

بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب البطارقة .....) [٢٠]، غير أن الخليفة لم يستجب لهذه التوسلات ورد الرسل.

رسالة الخليفة المعتصم إلى الإمبراطور ثيوفيل

كتب الإمبراطور ثيوفيل إلى الخليفة المعتصم يسفه عليه ويتوعده ويتهدده، فأمر بإجابته، فعمل له نسخة طولها واستوفى معانيها، واحتج إليه من كتابه بما فسخ به دعواه، وأبطل عليه ما حكاه ، فلما قرأت عليه النسخ استطولها وقال: ليكتب إليه بما أنا ممليه [٢١]، وهو: بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد فقد قرأت كتابك وسمعت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) وبعدها غزا المعتصم الأراضي البيزنطية، وذلك عام ٢٢٣ه، حيث قتل ثلاثين ألفاً وسبى مثلهم وقد كان في سبيه ستون بطريقاً وطرح النار في عمورية من سائر نواحيها فأحرقها وجاء ببابها إلى بغداد [٢٢] .

وبرغم ذلك؛ يجدر بنا أن نشير إلى ولع الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل بالآداب والفنون، وقد وضح التأثير الإسلامي عليه في سياسته اللأيقونية، كما قام برعاية حركة فكرية واسعة في بيزنطا، محاولاً محاكاة الخلفاء العباسيين، وخاصة الخليفة المأمون .

الخاتمـــة:

لقد حققت الرسائل بين الطرفين نجاحات كبيرة، ذلك أنها:

- أوقفت الحرب بين الطرفين في بعض الأحيان .

- مكنت الإمبراطور نقفور من استعادة خطيبة ابنه التي اعتقلت بعد واقعة هرقلـة عام ٨٠٦م .

- من ناحية أخرى، نلاحظ قلة الرسائل ذات الطابع الديني بين الجانبين، على الرغم من أن أول الرسائل كانت من هذا النوع، ولا نجد مثيلا على امتـداد العـصر العباسـي الأول، باستثناء رسالة الخليفة هارون الرشيد إلى الإمبراطور قسطنطين التـي يـدعوه فيها إلى الإسلام، وهو بذلك يحيي سنة الرسول عليه السلام، بدعوة الناس للإسلام عـن طريق الرسائل والى التأكيد بأنه راعي الإسلام وحاميه، وقد جاءت الرسالة نفسها فـي وقت اشتدت فيه الأزمات ببيزنطا، إذ كان صراع الأيقونات على أشـده،وكذلك الـصراع بين إيرين وابنها الذي كانت وصية عليه، إضافة إلـى الـضربة التـي تعرضـت لهـا الإمبراطورية البيزنطية، نتيجة لتتويج شارلمان في الغرب من قبل روما في عام ٨٠٠م .

- كان الرد على بعض الرسائل شفهياً، مثال ذلك: رد الخليفة المأمون على رسـالة الإمبراطور ثيوفيل .

- كما إن هناك بعض الرسائل أشارت لها المصادر دون أن تورد نصها، مثال ذلك: الرسالة التي جاءت من الإمبراطور البيزنطي إلى الخليفة المعتصم، وهو يهدده ويتوعده .

- كذلك يلاحظ إن هناك ارتباكاً في الرسائل، من حيث تواريخ إرسالها، ومـن قـام بإرسالها .

الهوامـــش

١- ابن حجر ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ،القاهرة، ١٣٨٠ه،ج٦ ، ص ٢٨٤-٢٨٥.
٢- ابن الفرا ، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب العربي الجديد بيروت ، ١٩٩٣ ، ص ٧٨.
٣- محمد محمد مرسي الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية ،١٩٩٤م ،ص ١٤٩ .
٤- ابن الفرا ، مصدر سابق ، ص٨٠ . عند الطبري والمسعودي كلب الروم ، إما عند ابن العبري فزعيم الروم ، وعند الطبري في مكان آخر ابن الفاجرة .
٥- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت،١٩٨٧ ،ج ١٠ ، ص ٤٩٩.
٦- ابن الفرا ، مصدر سابق ،ص ٨٠-٨٢.
٧- الطبري، مصدر سابق، ج٨، ص٣٢١.
٨- الأصفهاني ، الاغاني ، شرحه وكتب حواشيه الأستاذ سمير جابر ، دار الفكر ، بيروت ،ط١ ،١٤٠٧ه /١٩٨٦م ،ج٤، ص١٢.
٩- الرفاعي، عصر المأمون ،مطبعة دار الكتب المصرية ،١٣٤٦ه ،ج٢ ،ص ١٨٨-٢٢٦، نقلاً عن المنظوم والمنثور لابن طيفور .
١٠- مؤلف مجهول ، مطبعة بريل ،١٨٦٩م ، ج٣ ، ص ٣١٢.
١١- الحنبلي، شذرات الذهب في إخبار من ذهب ،مكتبة القدس ،القاهرة،١٣٥٠ه، ج١، ص٣٢٦.
١٢- ابن اعثم ،الفتوح ، تحقيق سهيل ذكار ، دار الفكر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م ، ج٢، ص٤٥٢- ٤٥٦.
١٣- فازيليف ، العرب والروم ،ترجمة محمد عبدالهادى شعيرة ،(د.ت) ، ص١٠٢ .
١٤- اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى،مطبعة بريل ، ليدن ،١٨٦٠ ، ج٢ ، ص ٤٦٥-٤٦٦.
١٥- الخمر : ما ستر الشئ .
١٦- الطبري ، مصدر سابق ،ج٨ ، ص٦٢٩-٦٣٠.

١٧- ابن طيفور، كتاب بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٨م ،ج٦ ، ص٥٦.

١٨- سورة النمل، الآية ٣٥-٣٦.

١٩- المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الفكر ،بيروت،١٩٧٣م ،ج٣، ص ٤٥٦.

٢٠- اليعقوبي ،مصدر سابق، ج٢، ص٤٧٦.

٢١- ابن الفرا، مصدر سابق، ص ٨٢ .يخطئ ابن الفرا في الإمبراطور البيزنطي، حيث يذكر انه باسيل بينما الصحيح ثيوفيل لان باسيل لم يعاصر المعتصم .

٢٢- البغدادي، تاريخ بغداد، القاهرة، ١٩٣١م، ج٣، ص٣٤٤.

مثالية صليبي الحملة الأولى، حقيقة أم ضلال !
(١٠٩٥- ١٠٩٩م / ٤٨٨ - ٤٩٢هـ)

د. حسن أحمد عبد الجليل البطاوي
أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة أسيوط

هذا البحث يكشف جانباً مهماً من جوانب الحركة الصليبية، ويوضح حقيقة الصراع بين الغرب والشرق في العصور الوسطى، واستغلال الصليبيين للعاطفة الدينية لدى جمهور هذا العصر في صبغ عدوانه على الشرق في صورة منطقية، وإلباس الباطل ثوب الحق. وسنجد دعاة الحملة الصليبية الأولى قدموا هذه الحملة في صورة مثالية[١]، فتحدث البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩م/٤٨١-٤٩٢هـ)[٢] عن حملة لاسترداد حق مفقود، واعتبرها الحرب التي أرادها الرب، وترعاها الكنيسة ورجالها. واستخدام السلاح في استرداد هذا الحق أمر مشروع برغم أنها حرب هجومية وليست دفاعية، لأنها ضد الوثنيين أعداء المسيح. والذين شاركوا في الحملة هم جنود المسيح، وبعونه ينتصرون على أعدائه، وإليه يلجأون في ساعة العسرة فلا تزيغ قلوبهم، وأبواب السماء مفتوحة تستقبل قتلاهم، وأرواحهم مبتهجة ببلوغهم الحياة الأبدية.

وفي هذه الحملة ارتدت البابوية الثوب العلماني لحشد جموع الصليبيين، وحركت الجيوش لتحقيق أهدافها. وجعلت الفارس يرفع الصليب، والقس يحمل السلاح. ونجحت البابوية ودعاتها في رسم صورة روحانية لهذه الحملة، ونجد ذلك واضحاً في خطابات البابا، وفي كتابات المعاصرين لهذه الحملة، الذين نقلوا أجواءها منذ خروج الصليبيين

من الغرب الأوربي وحتى وصولهم إلى بيت المقدس. وتحدث هؤلاء المعاصرون عن أجواء المسيحية الأولى، والبهجة بانتصار المسيحية وتمجيد الرب.

وسادت الأفكار المثالية الخاصة بالحملة الصليبية الأولى أنحاء الغرب الأوروبي آنذاك، واعتقد كثير من معاصري هذه الحملة أنها من عمل الرب[٣]. وأن هؤلاء الصليبيين رجال دين مؤقتين، حركتهم دوافع نبيلة إلى العمل العسكري تحت لواء الكنيسة، وجرى الادعاء بأن الإسهام في هذه الحملة هو طريق جديد للعلمانيين لكي يحصلوا على الخلاص[٤]. وبرر الصليبيون ما مارسوه من وحشية وعدوانية على أنه في خدمة الرب والكنيسة. وأن هناك توافقاً بين الراهب الذي وهب نفسه للعبادة والتقشف، والفارس الذي يقاتل لخدمة المسيحية وتحت قيادة آباء الكنيسة ورهبان المسيح، فالجميع يخدمون الرب[٥].

وهذه الأفكار المثالية التي قدمها معاصرو الحملة عن حربهم؛ لم تكن واقعاً في حقيقة أمرها، ولا تمت للمثالية أو حتى الموضوعية من قريب أو بعيد. وتبنى هؤلاء تقديم دعاية من الأفكار المثالية تغطي جرائمهم، وتبرر انتصار رغباتهم وشهواتهم، واغتصابهم حقاً من أصحابه بتبرير مقبول.

والحكم على مثالية الحملة الصليبية الأولى، أو زيف هذا الادعاء، يضطرنا إلى إلقاء الضوء، بشكل مختصر، على التطور التاريخي للفكرة التي انطلقت منها أفكار مثالية هذه الحملة، بداية من غرس أفكار الحرب العادلة، والحرب المقدسة التي طرحت، داخل مجتمع الغرب الأوروبي، كبديل عن الحرب المذمومة؛ ومرورا بأفكار الحج إلى بيت المقدس، وأفكار نهاية العالم، وقوانين سلام الرب وهدنة الرب، ووصولا إلى الحملة الصليبية في الصورة التي دعا إليها البابا أوربان الثاني[٦].

جذور الأفكار المثالية:

يعود الفضل إلى القديس أوغسطين St. Augustine ٣٥٤ - ٤٣٠م[٧] في التحول الخطير في تاريخ اللاهوت المسيحي، والخروج بفكرة الحرب المقدسة، كحل

للتناقض في المسيحية حول قضية القتل أو الحرب، ووضع الأسس التي تجعل المسيحية تقر القيام بحرب عادلة[٨]. فإذا كان الرب قد حرم القتل، حتى قتل النفس منه، فإن للسلطة الإلهية وضع بعض الاستثناءات في تحريم القتل. واعتبرى أوغسطين في وضع المبررات التي تجعل حمل السلاح مباحاً، وعلى رأس هذه المبررات: أن يكون حمله للدفاع عن النفس، أو لحماية الكنيسة وممتلكاتها، وتكون الحرب تحت سلطة شرعية[٩]. وبمرور الزمن ألحقت إضافات، من قبل مفكرين لاهوتيين، على أفكار القديس أوغسطين بشأن الحرب العادلة، وبرغم ذلك؛ فإن ما وضعه أوغسطين من أفكار؛ ظل باقياً ومؤثراً في مجتمع الغرب الأوربي، ولكن بقدر[١٠].

وجاءت حركة الإصلاح الكلونية[١١]، في القرن العاشر الميلادي، لتضيف تطوراً ملموساً في أفكار القديس أوغسطين، فقد تحدث تلامذة الحركة الكلونية عن فكرة خوض حرب استنادا إلى دوافع سوية، والذي شجعهم على ذلك: ما شهده المجتمع الأوروبي تحت ظل نظام الإقطاع، وظهور ما يمكن أن نسميه بالعسكرية المسيحية، أو الفروسية المسيحية، والتي جعلت الفرسان العلمانيين يخوضون الحرب لمصلحة الكنيسة وبرعايتها. وبالتالي تصاعدت قوة الكنيسة، وزاحمت السلطة العلمانية في قيادتها للمجتمع المسيحي، في الغرب الأوروبي. وفي أواخر القرن العاشر الميلادي عرفت أوروبا ما سمى بـ"سلام الرب Pax Dei"، وهي فكرة كنسية قدمت عدداً من القوانين؛ سعت نحو إلزام المجتمع الأوروبي بها، بغرض حماية الكنيسة وممتلكاتها من تعديات السلطة العلمانية والخارجين عن القانون، وكفلت هذه الفكرة للكنيسة رعاية جماعات مسلحة تنفذ إرادتها، ومعتمدة في جوهرها على أفكار القديس أوغسطين. وهذا التطور زاد من قوة الكنيسة على حساب السلطة العلمانية[١٢].

ثم طرحت الكنيسة "هدنة الرب Treuga Dei"، وهي فكرة تكمل فكرة سلام الرب، وإن كان هناك غموض حول بدايات الحركتين، وأيهما أسبق من الأخرى، إلا أن هدنة الرب جاءت قوانينها أكثر قوة في دعم موقف الكنيسة من قضية الحرب. وفي

القرن الحادي عشر الميلادي أثبتت هدنة الرب تأثيرها الأقوى من سلام الرب، في دعم موقف الكنيسة لقيادة مجتمع الغرب الأوروبي. وتمثلت أهم قوانين هدنة الرب في: حظر العنف في أيام معينة من الأسبوع. وجرى تشريع حمل السلاح في أوقات معينة، وظروف معينة، وبأمر الكنيسة، ووضعت الكنيسة عقوباتها الروحية إلى جانب الأسلحة الدنيوية، لضبط تلك التشريعات التي صدرت عن الكنيسة في مجامع عدة، خلال القرن الحادي عشر الميلادي. واصطبغ العمل العسكري بالصبغة الدينية، وجرى اعتبار الحرب، في إطار خدمة الكنيسة، حرباً مقدسة، وواجب ديني على السلطة الدنيوية ورجالها من الفرسان. فقدمت الكنيسة أفكار الفروسية المسيحية للمجتمع الأوروبي. ومن خلال هذه الأفكار فإن المسافة تضاءلت بين الذين انشغلوا بالتقشف والزهد والعبادة، وليس لهم علاقة بالأعمال العسكرية، والذين يحملون السلاح تحت راية الكنيسة، فالجميع فرسان المسيح[١٣].

وجاء البابا جريجوري السابع Gregory VII (١٠٧٣-١٠٨٥م/٤٦٦-٤٧٩هـ)[١٤] فطبق أفكار آباء الكنيسة، السابقين عليه، حول مفهوم الحرب بصورة واسعة، فقام بتجنيد الفرسان العلمانيين لحمل السلاح لصالح البابوية، ودعا إلى التضحية بالنفس في سبيل من ضحى بنفسه من أجل خلاص المؤمنين به. وأما هؤلاء الذين قدموا خدماتهم العسكرية للبابوية، فإنه أطلق عليهم لقب جيش القديس بطرس Militia Sancti Petri. وتابع جريجوري جهود سابقيه في سبيل توجيه الحرب إلى خارج الكيان المسيحي، معتبراً هذا الكيان جسداً واحداً. فحث على ضرورة توقف العنف فيما بين المسيحيين، والتوصية بتوجيه جهودهم الحربية ضد الوثنيين في العالم الخارجي. وقدم البابا جائزته لمن يقاتلون ضد أعداء الكنيسة، وتحت إشرافها، بتحريرهم. وبذلك وضع جريجوري السابع الحرب الهجومية في صورة مقبولة أخلاقيا، وسخر جهود الفرسان القتالية لخدمة الكنيسة، وكان مسيحيو غرب أوربا مستعدين، بعد فترة وجيزة، لاستقبال دعوة البابا أوربا الثانى[١٥].

ومن الضروري هنا الإشارة إلى أمر مهم وهو: أنه على الرغم مما لعبته الأفكار السابقة، كجذور للحركة الصليبية، فإن ما عاشته أوروبا من أوضاع اقتصادية واجتماعية وسياسية، خلال القرن الحادي عشر الميلادي، أسهم بشكل مباشر في دفع عجلة الحركة الصليبية إلى التحرك بقوة، وتنوعت وتعددت عوامل الدفع. وما يعنينا الإشارة إليه هنا هو انتشار أفكار الحج بين مسيحي الغرب الأوروبي، وتتابع الرحلات إلى بيت المقدس بشكل ملحوظ[١٦].

إن الحملة الصليبية الأولى تأثرت بأفكار الحج بقدر معين، ولكن لا يمكن القبول بأنها رحلة حج، حسبما روج لها معاصروها[١٧]، فرحلات الحج السابقة على هذه الحملة انطلقت من أوروبا، منذ القرن الرابع الميلادي، بعد تسامح الإمبراطور قسطنطين الكبير مع المسيحيين سنة ٣١٣م[١٨]، وتولي الدين الجديد بالرعاية. وشعر المسيحيون بالرغبة في رؤية الأماكن التي ولد وعاش بها المسيح، وارتبطت بحياته، وأخذهم الحنين إلى رؤية الأماكن التي ذكرت في الكتاب المقدس، وأخذت تلك الأماكن صفة القداسة. وتأثرت أعداد الحجاج زيادة ونقصاً، حسب ظروف كل عصر، حتى إذا نجح المسلمون في ضم بلاد الشام إلى الدولة الإسلامية، في القرن السابع الميلادي/الأول الهجري، وبالرغم من تسامح المسلمين مع هؤلاء الزائرين، فإن أعداد الحجاج الأوروبيين تراجعت بشكل ملحوظ، ثم زادت الأعداد حين ضعفت قوة المسلمين في حوض البحر المتوسط. ولم تشهد أعدادهم تراجعاً إلا في فترة حكم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله(٣٨٧-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢١م)[١٩].

ومع اقتراب نهاية الألفية الميلادية، بحلول عام ١٠٠٠م، سادت فكرة نهاية العالم أرجاء الغرب الأوروبي، وتحدث الناس عن دمار العالم. وانتابت الأوربيين حالة من الهلع؛ جعل بعض الناس يبددون ثرواتهم، وسعى بعضهم إلى خلاص أرواحهم، فوهبوا أموالهم للكنائس والأديرة، وآخرون رأوا أن يقوموا برحلة حج إلى البقعة التي ارتوت بدم المسيح ومنها صعد، فخرجوا جماعات، الجماعة تلو الأخرى، في أعداد صغيرة،

وأحيانا في مجموعات كبيرة العدد. ولما لم يهلك العالم في عام ١٠٠٠م، فإن القول بنهايته في عام ١٠٣٣م أصبح هو القول السائد، على اعتبار أن عمر العالم يحسب بعد صلب المسيح، وليس مع ميلاده، وهذا الأمر جعل الرحلات تستمر. واندفعت في الخروج إلى قبيل دعوة البابا أوروبا إلى حملته[٢٠].

وهناك أشابه بين رحلات الحج والجموع التي خرجت تلبية لدعوة البابا أوربان الثاني، فالجميع خرجوا متجهين إلى بيت المقدس، ويحملون الصلبان شعاراً لهم، واتبع الصليبيون نفس الاستعدادات التي كان يتبعها الحجاج أسلافهم، عند الخروج إلى الحج. ولذا فإنه من المؤكد أن أفكار الحج أثرت، بشكل مباشر، على دعاة الحملة الصليبية الأولى، إلى الحد الذي قد يبدو أنه من المقبول القول بانصهار أفكار الحج، مع أفكار الحركة الصليبية[٢١].

ثم إن الصليبيين ارتكزوا في دعوتهم للحملة على أنهم: خرجوا لاستخلاص الأماكن المقدسة من أيدي الوثنيين – أي المسلمين– وأن هذه الحرب التي شنوها، ليست إلا رد فعل على التهديدات الإسلامية؛ التي باتت تهدد المجتمع المسيحي الشرقي والغربي على حد سواء، ولذا فهي حرب مقدسة بكل المقاييس. وهذه الحرب المقدسة ليست ككل الحروب السابقة، التي رعتها الكنيسة، فإن الحرب التي دعا إليها البابا أوربان الثاني؛ جاءت في توقيت روجت فيه البابوية لأفكار خاصة بالإسلام والمسلمين، على نطاق واسع، لم يتناوله أحد من البابوات السابقين الذين دعوا إلى توجيه أعمال حربية ضد المسلمين. وانتشرت الأفكار التي تعتبر الإسلام شرا مطلقا، على عكس المسيحية، وأن المسلمين حلفاء الشيطان، وأنهم يعبدون محمداً(صلى الله عليه وسلم). ثم إنه مع كل ضلالات المسلمين هذه؛ فإنهم يتهمون المسيحيين ببطلان عقيدتهم. وفضلاً عن ذلك، فإنهم طامعون في الاستيلاء على ديار جيرانهم، لنشر دينهم، واعتبارها داراً للإسلام[٢٢].

ومن المعروف أن التهديد الإسلامي للعالم المسيحي كان واقعاً بالفعل، سواء في الغرب أو الشرق، ولكن عند دعوة البابا أوربان الثاني للحملة الصليبية، لم يعد للتأثير الإسلامي أثر فاعل في ظاهره، ومهما يكن من أمر؛ فإن الكنيسة الغربية دعت بالفعل لطرد المسلمين من الأراضي التي كانت خاضعة للمسيحيين من قبل، في الأندلس وصقلية وشمالي إفريقية. والواقع إن التهديد الإسلامي للغرب الأوروبي، عند دعوة البابا أوربان لحملته لم يكن تهديداً بالقدر الذي يرهب الأوربيين، فيدعوهم للخروج على الصورة المهولة التي تحرك فيها صليبيو الحملة الأولى؛ ولا الإسلام في واقعه هو الدين الذي يمثل تهديداً على أصحاب الديانات الأخرى، مع قاعدة "لا إكراه في الدين" [البقرة: ٢٥٦]. ولذلك فإن الادعاء بأن التهديد الإسلامي هو المعول عليه في خروج الصليبيين، لا يمكن قبوله، وإنما الذي لا شك فيه هو؛ أن هذا الأمر كان دافعاً من جملة دوافع أخرى. واستخدام التهديد الإسلامي، كدافع أساسي، جاء من قبل هؤلاء الذين رفعوا شعار الحرب المقدسة، وتبنوا الدعوة لأهدافها الدينية، واعتبروا هذه الحملة مثالية في جوهرها، ومثالية في مجراها[٢٣].

المسار التاريخي للحملة:

وبعد، فإن هناك العديد من الدوافع التي أسهمت في خروج تلك الجموع الغفيرة، للمشاركة في الحملة الصليبية الأولى. ولعبت الدوافع الدينية دوراً بارزاً في تحريك مشاعر بعض هؤلاء المشاركين، وسوف نرى أن من قاتلوا من أجل أغراض دينية، لم يختلفوا عمن قاتلوا لمكاسب دنيوية، فقد ارتكب الجميع من الحماقات ما يتنافى تماماً مع الشعارات الدينية لهذه الحملة، ويناقض اعتبارها حرباً عادلة، وأن هذه الحملة لم تكن مثالية في أهدافها، ولا مثالية في مسيرتها، بل كانت عكس ذلك تماماً.

ومن الضروري إلقاء نظرة سريعة على أحداث الحملة، بداية من مجمع كليرمونت الذي انعقد في الفترة من ١٨ حتى ٢٨ نوفمبر ١٠٩٥م/ ٢٠ حتى ٣٠ ذو القعدة ٤٨٨هـ، منتهياً باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس في ١٥ يوليو ١٠٩٩م /٢٢

شعبان ٤٩٢هـ. ففي آخر جلسات مجمع كليرمونت، ألقى البابا خطابه المشهور الذي دعا فيه إلى الحملة، وتحدد خروج الصليبيين إلى الشرق في ١٥ أغسطس ١٠٩٦م/٢٢شعبان ٤٨٩هـ. واستجابة الناس لدعوة البابا فاقت التوقع، فتجمعت حشود من العوام، واستجاب عدد كبير من الأمراء، وخرج العوام في جماعات قبل الميعاد المحدد، وبدون إعداد جيد، ولا قيادة فاعلة. وتحركت أولى جماعات العوام بتقدمهم والتر المفلس Walter Sans-Avoir[٢٤] في ٨ مارس ١٠٩٦م/ ٧ ربيع أول ٤٨٩هـ، وارتكبوا حماقات في بلاد المجر استوجبت عقاباً قاسياً من المجريين. وتابعوا سيرهم داخل الأراضي البيزنطية حتى وصلوا العاصمة، فنقلهم الإمبراطور ألكسيوس الأول كومنين Alexios I Komnenos [٢٥] عبر البسفور إلى الجانب الآسيوي. وتبعتهم جماعة بطرس الناسكPeter the Hermit[٢٦]، وارتكبوا أعمال مذبحة مروعة في بلاد المجر، جعلت المجريين يوصدون بلادهم في وجه هؤلاء العوام. وعبرت جماعة بطرس الأراضي البيزنطية حتى بلغوا العاصمة، ونقلهم ألكسيوس ليقيموا معسكرهم مع رفاقهم السابقين، ونصحهم بالانتظار حتى قدوم جيوش الأمراء، ولكنهم لم ينتصحوا وأغاروا على بلاد السلاجقة، مما استدعى المواجهة بين الطرفين، فنكبهم السلاجقة نكبة عظيمة، ولم ينج منهم إلا قليل. وتجمعت حشود أخرى من العوام، وقبل رحيلهم إلى الشرق، هاجموا اليهود في مدن عدة في حوض نهر الراين، ومناطق أخرى، وأصابوا منهم إصابات عظيمة. ولما وصلوا حدود المجر وجدوها قد أوصدت في وجوههم، ولم تفلح محاولاتهم في العبور، فقد صدهم المجريون وشتتوا شملهم[٢٧].

وأما جيوش الأمراء، فإن أول جيش معتبر خرج هو جيش جودفري بوايون Godfrey of Bouillon[٢٨]، تحرك إلى الشرق في نهاية أغسطس ١٠٩٦م/٨ رمضان ٤٨٩هـ، ونجح في التفاوض مع المجريين، فسمحوا له بعبور بلادهم. ووصل جودفري القسطنطينية، واضطر إلى حلف يمين الولاء للإمبراطور، وانتظر حتى قدوم رفاقه، فلحقه بوهمند النورماني Bohemund I of Antioch وتانكرد

Tancred[٢٩]، وامتثل بوهمند لأوامر الإمبراطور. ثم وصل ريموند الرابع كونت تولوز Raymond of Saint-Gilles ومعه أدهيمار أسقف لي بوي Adhemar of Le Puy [٣٠]. وأقسم ريموند للإمبراطور على حفظ حياته وممتلكاته، ولحقهم روبرت كونت نورمانـدي Robert of Normandy وروبـرت كونـت فلانـدرز Robert II of Flanders وستيفن كونت بلوا Stephen of Blois[٣١]. ووعد الإمبراطور الصليبيين المساعدة في مقابل ردهم للأراضي البيزنطية المفقودة عند استيلائهم عليهـا. وتحـرك الصليبيون مجتمعين فاستولوا على نيقية[٣٢] وتسلمها الإمبراطـور، وتـابعوا مـسيرهم فاستولوا على طرسوس[٣٣] وبعض المدن القيليقية الأخرى. ولما وصلوا أعـالي بـلاد الشام انفصل عنهم بلدوين البولـوني Balbwin of Boulogne [٣٤]، ونجـح فـي الاستيلاء على الرها[٣٥] لتكون أول إمارة صليبية. وتقدم الجيش الصليبي الرئيس نحـو أنطاكية، فوصلوها في ٢١ أكتوبر ١٠٩٧م/١١ ذو القعدة ٤٩٠هـ، وظلوا يحاصـرونها حتى سقطت في ٣ يونيو ١٠٩٨م/ ٢٩ جمادى الآخرة ٤٩١هـ، وسيطر عليها بوهمند النورماني من دون رفاقه. وتابع الصليبيون مسيرهم إلى بيت المقدس، فوصلوها في ٧ يونيو ١٠٩٩م/ ١٤ رجب ٤٩٢هـ، وسقطت المدينة في ١٥ يوليو/ ٢٢ شـعبان مـن نفس العام، واختاروا جودفري حاكماً لها[٣٦].

المثالية في فكر رجال الدين:

يأتي البابا أوربان الثاني على رأس دعاة المثالية، فهو الرجل الذي صـاغ جملـة الأفكار التي ألهبت حماس الجماهير، وحركت رجال الكنيسة الغربية والكهنة إلى حـشد الصليبيين من أنحاء الغرب الأوربي. وكذا ظل البابا يرعـى الحملـة بإلقـاء الخطـب والمواعظ للحشد، وإرسال الخطابات لتشجيع المتراخين، والمشاركة في تنظـيم خـروج الصليبيين، وتذليل عقبات المتعثرين. ويأتي مؤرخو هذه الحملة المعاصرين لهـا علـى جانب آخر كمروجين لمثاليتها، فهم الذين نقلوا إلينا جوانب من تاريخ الحملة، وقدموها

في الصورة المقبولة أخلاقياً، والرائعة في مثاليتها. وتتناول بالتفصيل ما قدمه دعاة المثالية هؤلاء؛ لتأتي هذه الحملة في صورتها المبهرة لجمهور الغرب الأوربي.

إن أول ما يلفت الانتباه في أمر الحملة الصليبية الأولى هو: أن الذي دعا إليها ورعاها هو البابا رأس الكنيسة الكاثوليكية، ولم يدع لها إمبراطور أو ملك أو أمير، ما يعني أن السلطة الدينية صارت صاحبة الكلمة العليا في الغرب الأوربي آنذاك، وأن حشد المسيحيين حق أنيط برجل الكنيسة القيام به، فهذا حق قيادة الكنيسة لشعبها، وتوليها رعاية السلام في ربوعها[٣٧].

وجاء خطاب البابا متضمناً عدة موضوعات، وعلى رأسها تأتي دعوته لمستمعيه إلى المشاركة في حملته، لمساعدة إخوانهم المسيحيين في الشرق. وتحدث عن أرض هؤلاء المسيحيين بأنها أرضنا. ثم وصف المشاركين بجنود المسيح الذين سيخرجون في رحلة حج، وأنهم سيقدمون لمهمة تتعلق بالرب، فعليهم تخليص قبره المقدس، وتحرير الكنائس الشرقية. وقال البابا إن من يرغب في خلاص روحه؛ عليه أن يسلك طريق السيد في تواضع. وشجع مستمعيه بأنهم سيكونون في معية الرحمة الإلهية، وأن يسوع المسيح سوف يقودهم، ولا شيء يعوزهم مع ما يقدمه الرب لجنوده، فلا يخافون الفقر، أو الجوع، أو العطش، أو المرض، أو غير ذلك من الشدائد أبداً. فالمجد الأبدي ينتظرهم. ووعدهم بغفران الذنوب، وذكرهم بألا يهابوا الموت، فإن من لقيه منهم فقد حظي بالحياة الأبدية. واعتمد البابا الصليب شعاراً لرجاله، وارتضى، في سعادة، تلك الصيحة التي هتفوا بها خلال خطابه "إنها إرادة الرب"، "God wills it"، "Deus vult" واختار واحداً من رجال الدين الثقة قائداً للحملة وهو أدهيمار أسقف لو بوي، وأوجب طاعته على المشاركين كطاعته تماماً[٣٨].

وظهر البابا، خلال خطابه، كأنه يدعو إلى رحلة حج تحوطها أجواء القداسة، وأن هؤلاء الرجال الذين سيشاركون فيها، هم أطهار يحملون أهدافاً نبيلة، ويسعون نحو حق يستردونه. وأنهم سيواجهون قوماً إلى الشيطان أقرب، والواجب حمل السلاح ضدهم

وقتلهم وإبادتهم. فتلك إذاً حرب عادلة، وأخذت صفة القداسة برعاية الكنيسة لها، وكذلك من قداسة الهدف الذي تسعى نحو تحقيقه.

وتابع البابا دعوته للحملة، فعقد مجامع لهذا الغرض، وأرسل خطابات إلى عدد من مؤيديه يدعوهم للمشاركة، ويستدرك على بعض الأمور التي أشار إليها في كليرمونت. وجاءت كلماته تؤكد على قداسة وروعة مشروعه المسلح ضد المسلمين. ففي خطابه إلى كل المؤمنين في فلاندرز Flanders ديسمبر ١٠٩٥م/ذو الحجة ٤٨٨هـ كتب البابا يقول إنه دعا إلى حملة لتحرير كنائس الشرق، ووعد المشاركين بمحو خطاياهم، وأكد على وجوب طاعة أدهيمار نائبه لأنه يمثل البابا والإرادة الإلهية[٣٩]. وفي سبتمبر ١٠٩٦م/ رمضان ٤٨٩هـ كتب إلى بولونيا Bologne يؤكد على أن هدف الحملة هو تحرير الكنيسة الشرقية، وأن من شارك لأجل هذا الهدف النبيل سوف يضمن خلاص روحه، ويعفى من التكفير عن خطاياه. وفي هذا الخطاب حرص البابا على ضرورة مشاركة الفرسان في الحملة دون غيرهم من فئات المجتمع؛ فإن أرباب السلاح هم القادرون على تخطي صعاب الرحلة الطويلة، ومواجهة جيوش كثيرة يتوقعون قتالها. وأما الرهبان والقساوسة، فإن مشاركتهم بالحملة مشروطة بحصولهم على إذن من أساقفتهم ومقدمي أديرتهم. والمتزوجون حديثاً لا يشاركون بدون موافقة زوجاتهم[٤٠]. وفي خطابه إلى جماعة دير فالومبروسا Vallombrosa [٤١] في أكتوبر ١٠٩٦م/ذو الحجة ٤٨٩هـ أكد البابا على منع الرهبان والقساوسة من المشاركة بدون حصولهم على إذن رؤسائهم، وتوعد من يخالف هذه القوانين بالقطع من الكنيسة. فهذه الحرب ترعاها الكنيسة، ولكن يشعلها الفرسان[٤١].

والبابا يدعو، بحسب اعتقاده، إلى حرب تحقق السلام داخل الجماعة المسيحية، ومن أجل الجماعة المسيحية، حرب انصهرت فيها أفكار الحرب المقدسة مع أفكار الحج، وأنها جاءت استجابة لأوامر إلهية. كما كان البابا يدرك تماماً أنه في حاجة إلى تقديم المزيد من المغريات الروحية؛ التي تجذب أعداداً أكثر للتجنيد في حملته[٤٢].

وبناء على ما سبق، فإن البابا أوربان الثاني قدم حملته في صورة مثالية، وظهر بمظهر رجل الدين المثالي. تحددت مثاليته في جوانب عدة: الجانب الأول هو أن الذي دعا إلى هذه الحملة هو البابا نفسه رأس الكنيسة الكاثوليكية، وهو الذي يملك بشخصه وصفته مكانة سامية في المجتمع المسيحي عموماً، وفي الغرب الأوروبي خصوصاً. فحظيت دعوته باهتمام بالغ، وتقدير عظيم من قبل معاصريه. والجانب الثاني أن البابا دعا الصليبيين نحو أهداف تمس جوهر العقيدة المسيحية، مما وضع دعوته في موضع القداسة. والجانب الأخير أن البابا اجتهد في وضع قوانين تنظم عملية خروج الصليبيين، بحيث يمكنهم تحقيق أهداف الحملة بأقل قدر من الخسائر. ولذا نظر المعاصرون إلى البابا نظرة إجلال وتقدير، واعتبروا مشروعه نموذجاً للعمل الذي يرضى الرب عنه. ولا شك أن معاصري الحملة كانوا على قدر كبير من التهيئة لاعتبار الحملة الصليبية مشروعاً مسيحيا مثالياً.

وإذا كان المعاصرون قد نظروا إلى أوربان الثاني باعتباره مثالاً للصليبي، فهناك من القرائن ما يجعلنا نطعن في مثاليته هذه. وأولها هو: أن الحرب عموماً عمل حربي يخرج عن نطاق مبادئ المسيحية، وأن الكنيسة ترعى السلام وتتجنب شرور الحرب. ومن المعلوم بالضرورة أن هذه الحرب، المزمع شنها، سوف تشهد أعمالاً مروعة تتنافى مع المبادئ الإنسانية عموماً، ومع مُثل الأديان السماوية التي تدعو إلى الخير لكل البشر. وهذا على عكس ما دعا إليه البابا. فالواقع أن البابا لم يكن مثالياً يتبنى مبادئ مشروعه، ويدافع عنها بوسائل مشروعة، وإنما كانت لديه دوافع دنيوية صرح ببعضها، وأخفى البعض الآخر. وعلى رأس هذه الدوافع: صراع البابوية مع الإمبراطورية، وهذا الصراع أضر كثيراً بمصالح البابوية، منذ اشتعاله بين كل من هنري الرابع الألماني[٤٣] والبابا جريجوري السابع، ووصولاً إلى البابا أوربان الثاني. وجاءت دعوة البابا لتدعم موقف البابوية، وتدفع بها إلى موقع الصدارة في الغرب الأوروبي.

ثم إن كنيسة روما كانت لا تزال تسعى إلى سيادة العالم المسيحي، وتأكيد تفوقها على باقي الكنائس الكبرى القابعة في الشرق، وبخاصة في ظل ضعف الدولة البيزنطية. وتحول العلاقات البابوية البيزنطية إلى الحالة الودية، منذ تولى أوربان الثاني الكرسي البابوي، وخضوع بلاد الشام ومصر إلى السيادة الإسلامية. ولذا فإن صليبية أوربان؛ ستضع كنيسة روما في مقدمة كنائس القسطنطينية والإسكندرية وبيت المقدس وانطاكية[١١].

وعند مطالعة ما ننقل عن البابا حول حملته الصليبية، نجد عبارات تتنافى تماماً مع مثالية دعوته، وبها خطايا وأخطاء متنوعة تجاه العدو الذي حشد جماهيره لقتالهم، وأظهرت ما يكنه صدره من عداوة وبغضاء للآخر. فوصف المسلمين بالجنس الشرير، والخسيس، والكفار، والوثنيين، واعتبرهم أعداء المسيح، فضلاً عن وصفهم بصفات أخرى أكثر ازدراء. هذا فضلاً عن استخدامه فكرة التعصب الديني، فراح يلقي على مسامع الصليبيين أن هؤلاء الأعداء يخضعون للشيطان، ويسخرون من يسوع المسيح والمسيحية، وإنهم يمقتون المسيحيين، وينزلون بهم صنوف التعذيب والإهانات[١٥].

وإذا كان البابا قد أسهب في عرض أهدافه النبيلة، التي قد توحي للبعض بمثالية حملته، فإنه تجاوز هذه الحدود، وأظهر ما لا يمكن إخفاؤه عن جماهيره، فدعاهم إلى التخلص من حياة البؤس والعناء التي يرضخون لها في الغرب الأوربي، والخروج إلى الشرق لينعموا هناك بحياة رغدة. وما يجدونه في أوطانهم هو شظف العيش، والاقتتال من أجل البقاء، وأما ما ينتظرهم في الشرق فهو النعيم المقيم. هذا فضلاً عما ستقدمه الكنيسة لهم من فوائد روحية. وراح يتنقل في دعوته بين المثالية والواقعية، لأنه يعلم أن من بين جمهوره من ينتظر مثل هذه الدعوة، وأنها ستدفع بنفر كثيرين للمشاركة في حملته. ومن هنا نجد أن البابا ما ترك سبيلاً في الدعوة لحملته إلا سلكه؛ فاستخدم الأفكار الدينية وصاغها في صياغة جاذبة، وصنع لها قالباً مثالياً، وقدم إغراءات مادية. ولذا فإن البابا ابتعاد بشخصه وبدعوته عن الأفكار المثالية[١٦].

وأما رجال الدين الذين شاركوا في الحملة، فقدموا نموذجاً للصليبي المثالي، وحظي هؤلاء الرجال بمكانة متميزة في حملة دعا إليها البابا وترعاها الكنيسة. وشاركوا في الحملة بالرغم من القيود التي وضعها البابا للحد من مشاركة غير المحاربين. ومن المعلوم أن أهم رجل دين شارك في هذه الحملة هو: أدهيمار نائب البابا، والقائد الديني للصليبيين. فكان قريباً من البابا، ولديه نفس قناعات البابا الخاصة بقيمة هذه الحملة، ويملك شخصية جديرة بحب الصليبيين واحترامهم، وهو بحق كان رجلاً مؤثراً على مجريات الأحداث[٤٧].

تعددت مهام أدهيمار بين الصليبيين، فكان قائداً دينياً، وفي نفس الوقت سياسياً بارعاً، فضلاً عن مشاركته في المعارك. أدى أدهيمار دوره الديني بإخلاص، فتولى إقامة القداسات في بعض الأحيان، وأمر الكهنة بإقامتها في أحيان أخرى، ووعظ عند الحاجة إلى الوعظ، وحث الصليبيين على الصوم والتصدق عند النكبات، وبث الحماس في نفوس المقاتلين عند خوض غمار المعارك. وخطبهم في إحدى المعارك مذكراً إياهم بثرواتهم وممتلكاتهم التي تركوها لأجل الرب، ووعدهم النصر برحمة الرب. وعلى الجانب السياسي أدى دوراً ملموساً، فتولى مناقشة لبابا أوربان الثاني في الأمور المتعلقة بالإعداد للحملة، وبرز دوره القوي عند نجاحه في التوفيق بين الإمبراطور البيزنطي واثنين من أمراء الحملة الكبار، هما جودفري دي بويون، ثم ريموند كونت تولوز، وتسوية ما بين الإمبراطور والأمراء من قضايا شائكة. هذا إضافة للدور الحربي الذي لعبه، فقد شارك في وضع الخطط مع الأمراء، بل حمل السلاح وقاتل بنفسه، وكانت له قواته الخاصة، ويقودها نائبه في المعارك[٤٨].

رأى المعاصرون في أدهيمار نموذجاً للمثالية الصليبية، فإن قيمته بين الصليبيين لا يعادلها قيمة، ولا غنى عنه لعدالة الرب، وللجنس البشري، فهو الرجل الذي ساند الفقراء، وكان الفرسان يرجعون إلى رأيه. ولذا فهو ذو قيمة عظيمة لجيش المسيح ولقادته. وأما الكهنة فهم أتباعه المخلصون، يأتمرون بأمره، وينتهون عند نهيه، لأنه

الرجل المحبوب عند الرب والناس، واعتبروه رجلاً بلا عيوب. ولما توفي أول أغسطس ١٠٩٨م علق المعاصرون على وفاته؛ مؤكدين على أنه برغم ابتهاج روحه الطيبة مع الملائكة، فإن الكرب الشديد والحزن البالغ أصاب الجميع[٤٩].

وشارك عدد من الرهبان والأساقفة والقساوسة والشمامسة في الحملة، وكانوا يقدمون خدماتهم الدينية لجيش الرب قبل خوض المعارك وأثناء القتال، وعند تعرضهم لأية نكبة كالجفاف أو الوباء. واعتاد هؤلاء عند أداء طقوسهم ارتداء حللهم المقدسة ذات اللون الأبيض، ويحملون صلبانهم، ويطالبون الجميع بالاعتراف بخطاياهم، ويتحركون وهم يمجدون الرب، ويبتهلون ويتوسلون إليه في طلب المساعدة، ليرفع الرب بأس العدو عنهم، ويحرسهم من المحن والشرور، وينقذهم من بطش عدوهم، وينزل عليهم رحماته، ويُعلي قدر المسيحية، ويرفع قدر شعبه، ويهبهم النصر، ويدحر الوثنيين. وشارك بعض رجال الدين في العمليات الحربية، وعُرف عنهم الشراسة في القتال، وقاموا بأعمال يعجز عن القيام بها الفرسان المدربون، وبعضهم امتلك شهوة للقتال لا تهدأ أبداً[٥٠].

جاءت مشاركة أدهيمار ورفاقه، في الحملة الصليبية الأولى، تأكيداً على رعاية البابوية لهذا المشروع العدواني. وما قام به رجال الدين من حث على القتال والعنف، وابتهاجهم بلون الدم المسفوك من أعدائهم، وامتشاقهم للسلاح، وتقديمهم جوائز السماء للصليبيين في مقابل جرائمهم، كل هذا جعلهم دعاة شر، وهو ما يعارض مبادئ المسيحية، وينفي عن هؤلاء صفة مثالية.

الأفكار المثالية في كتابات معاصري الحملة

لعب معاصرو الحملة الصليبية الأولى الدور الأبرز في صياغة الأفكار المثالية لأعمال صليبيي هذه الحملة. فصاغوا العبارات التي تدعم هذه الأفكار بكلمات لاهوتية الطبع، ودعموها بنصوص من الكتاب المقدس، واستوحوا عبارات القديسين وآباء الكنيسة الأوائل. واتجه المسلك العام لمعاصري الحملة إلى التأكيد على أن هذا العمل

العسكري، الشاق والمهلك، يقوم به هؤلاء الرجال حباً في الرب، وإيماناً منهم بما قاله المسيح في الإنجيل:"إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني(متى١٦ : ٢٤). واعتبروا الصليبيين رجالاً مخلصين اتبعوا ما قاله المسيح، وأنهم ذوي قلوب طاهرة، وعقول سليمة، ولا يترددون في التضحية بالمال والنفس حباً في المسيح. ومن الأمور البديهية أن تلقى أفكار مثالية هؤلاء الصليبيين قبولاً لدى معاصريهم، وهم قد غادروا أوطانهم، وتركوا أحبائهم وذويهم وممتلكاتهم، ولم يمنعهم كل ذلك من الخروج في هذا العمل المقدس، لأنهم يؤملون أنهم سينالون بقدر ما تركوه مائة ضعف، كما وعدهم الرب، وسيتركون نموذجاً للأجيال القادمة من بني جنسهم يحتذونه[٣١]. ووصف مؤرخ معاصر هذه الحملة بصيغة موجزة حيث قال:"وحتما كما تعلمون فإن هذه الحرب ليست مادية، ولكن روحية "et revera scias, quia hoc bellum carnale non est, sed spirituale"[٣٢].

وتتضح الأفكار المثالية لدى مؤرخي الحملة من خلال النظر إلى عناوين المؤلفات التاريخية، للغالبية العظمى منهم، واستقراء ما تحمله هذه العناوين من دلالات. فكتب المجهول تاريخه بعنوان "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum". وأطلق تودبيود على كتابه عنوان "تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس Historia de Hierosolymitana itinere"، وكتب فوشيه الشارتري تاريخه بعنوان "أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium". وكتب ريموند أجيل عنواناً لكتابه هو "تاريخ الفرنجة حجاج بيت المقدس Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem". ووضع كل من روبرت الراهب، وبلدريك الدولي، كتابيهما تحت عنوان "تاريخ بيت المقدس Historia Hierosolymitana". واما جيوبرت دي نوجانت فوضع تاريخه بعنوان:"أعمال الرب التي تمت على أيدي الفرنجة Gesta Dei per Francos"، وكتب إيكهار أورا عن "بيت المقدس Hierosolymitana"، وأما ألبرت الأيكسي فكتب

عن "الرحلة إلى بيت المقدس Liber Christianorum Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae". وعلى الرغم من أن رالف أف كان كتب تاريخه عن تانكرد، إلا إنه وضع عنوانه متضمناً ذكر مدينة بيت المقدس، فكتبه بعنوان:"أعمال تانكرد في الحملة إلى بيت المقدس Gesta Tancredi in Expeditione Hierosolymitana"[٥٣].

ويلفت النظر في عناوين هذه المؤلفات التاريخية أنها احتوت جميعها على كلمة "بيت المقدس"، أو "حجاج بيت المقدس"، وهذا المسمى يعطي دلالة واضحة عن مدى قناعة هؤلاء المؤرخين بمثالية هذه الحملة، واعتبارها رحلة حج إلى بيت المقدس. ولكنهم يؤرخون لرحلة تزيد عن رحلات الحج السابقة في أعداد المشاركين وعتادهم، وحماسهم من أجل استعادة حق مفقود. ويقدمون الصليبيين للقارئ على أنهم رجال يحملون أهدافاً نبيلة لخدمة المسيحية، وهي نفس الصورة التي أشربتها نفوسهم، فاهتموا بتبليغها لذويهم. ولذا فإن هؤلاء المؤرخين يعبرون عن روح العصر، ويصطبغون بالصبغة الغالبة على رجاله.

والقيمة الدينية للأماكن المقدسة برزت بشكل واضح في كتابات رجال هذه الفترة، من خلال تكرار ذكرها، وتدوين عبارات الاشتياق إلى رؤية تلك الأماكن، فضلاً عن اعتمادهم على قصص الكتاب المقدس، الذي يتناول أحداث المسيحية الأولى، التي جرت على تلك الأماكن، واستخدموا عند ذلك إسقاط قصص الكتاب المقدس وأبطالها على فترة الحملة الصليبية. فكتبوا عبارات مثل قولهم: سنذهب إلى قبر الرب، ونقبله في إخلاص عميق، ونرقص فرحاً لأننا قبلنا أعمدة القبر المقدس، ومثلما كتب آخر مبتهجاً بأنهم سيتجهون لتحرير كنيسة الرب المحاصرة منذ أمد طويل، الفرسان يشاركون بالسيف، ورجال الدين يشاركون بقانون الرب. وإن بلوغ القبر المقدس هو جائزة عظمى يحظى بها المخلصون، وعند تحرير القبر المقدس فذلك يعني تحرير كنيسة الرب[٥١].

الحملة الصليبية هي جيش الرب:

قدم معاصرو الحملة الصليبية الأولى صورة باهرة لهذه الحملة، ونعتوا الصليبيين بنعوت مثالية براقة، واعتبروهم بشراً يسعون على الأرض لخدمة السماء. فوصفوهم بذوي القلوب الطاهرة، والروح السليمة، والنوايا الصادقة في اتباع السيد نحو الخروج إلى الضريح المقدس، رافعين الصليب في إخلاص. وإن حربهم التي يخوضونها هي حرب روحية، وليست مادية، ويقودهم الرب لتحرير أرضه وشعبه، وأنهم يقدمون أرواحهم بإخلاص، بغية الحصول على عتبات الحواريين[٥٥].

وتبدو صورة الصليبيين، في مخيلة معاصريهم، واضحة من خلال النظر إلى جملة الألقاب التي أضفوها عليهم، فأطلقوا عليهم: "جنود المسيح"، و"جيش المسيح"، و"فرسان المسيح"، و"جنود الرب"، و"فرسان الرب"، و"قادة الرب المخلصون"، و"جيش الإيمان". وأطلقوا على الحملة جملة من الألقاب التي تحمل المعاني المقدسة مثل: "حرب السيد المسيح"، و"معارك السيد المسيح"، و"معركة الرب"، و"عمل السيد المسيح"[٥٦].

وللوهلة الأولى؛ نجد أن دلالات هذه الألقاب واضحة، فقد خلع هؤلاء المؤرخون ألقاب رهبان ونساك المسيحية على هؤلاء المحاربين، وذلك لقناعتهم بالدور الذي يؤديه هؤلاء الصليبيون لخدمة المسيحية. فإذا كان الرهبان جنود المسيح في أديرتهم ضد ضلالات الشيطان. فإن هؤلاء الفرسان يحاربون لأجل المسيح في، أرض المعركة، ضد ضلالات حلفاء الشيطان، وهذه هي الحرب التي أرادها الرب.

وتأتي جملة ألقاب أخرى أطلقت على المشاركين في الحملة، تأكيداً على نفس المعاني المثالية السابقة، فوصفوهم بأنهم "شعب الرب"، و"شعب المسيح". واستخدموا لقباً آخر، بصورة أكثر شيوعاً من الألقاب السابقة، وهو لقب "الحجاج"، و"جيش الحجاج"، فضلاً عن مشتقات كلمة "حج" التي اقترنت عند بعض المؤرخين بذكر الضريح المقدس، أو بيت المقدس[٥٧].

واتخذ الذين استجابوا لدعوة البابا الصليب شعاراً لهم، فخاط الفرسان صلباناً من القماش على أكتافهم اليمنى، كما خاطها غيرهم من العثمانيين ورجال الدين، وخاطها بعضهم بين كتفيه. واتخاذهم الصليب شعاراً لهم جاء من باب الاعتزاز بالعمل الجاري القيام به، وعليهم أن يتميزوا به، ويحتموا برمز انتصار الرب عند توجههم إلى المكان الذي شهد آلامه[٥٨]. وجرى استخدام الصليب، بشكل دائم، على أنه رمز للحرب الصليبية. وردد المعاصرون عبارات مثل "تسلح بإيمانه وبشارة الصليب"، و"متسلح بشارة الصليب"، و"تحميهم شارة الصليب"[٥٩].

وكما اتخذ الصليب شعاراً للحملة، فقد اتخذت عبارة "إنها إرادة الرب" صيحة القتال، تأكيداً على الرمزية الدينية للحملة، مسبوقة بقسم المشاركين على أن يوفوا بوعدهم الذي قطعوه على أنفسهم، بتحرير الأرض المقدسة، تلك الأرض التي عليها مشى المسيح وعانى، فهي ميراث الرب، ولابد من تخليصها من أيدي أعدائه، ومن نكص في قسمه فإنه يعد مذنباً ذنباً عظيماً، ويحمل عاراً يخجله، ويورثه ذراريه[٦٠].

الرب قائد الصليبيين

وتحدث مؤرخو الحملة المعاصرون، صراحة، عن أن العناية الإلهية هي التي أرادت هذه الحملة، ولذا فإن الفرسان استجابوا للدعوة فور سماعهم بخبرها، وتوافد عليهم أتباعهم زمراً، والجميع مخلصون في حمل الصليب، واتباع خطى المسيح، وواثقون من النصر الذي سيقدمه الرب لشعبه[٦١].

وغصت المصادر المعاصرة بالعبارات التي تضفي القداسة على الأعمال الحربية للصليبيين، تأكيداً على انتساب هذه الحملة إلى الرب. فالفارس الصليبي ترعاه العناية الإلهية قبل خوض المعارك، وتحميه شارة الصليب من كل جانب، فضلاً عن سلاحه الذي يحمله، لأنه يقاتل في سبيل دين المسيح، ونشر الصليب المقدس. ويدخل الفارس الصليبي المعارك بهتافه باسم يسوع المسيح، وصيغة الحرب "ساعدنا يا رب"[٦٢].

وكذا جرى تصوير المعارك التي خاضها الصليبيون، فنظروا إليها على أنها معارك بين الحق والباطل، بين الرب والشيطان، بين المسيحية والوثنية، بين المؤمنين والوثنيين. فوُصفت المعارك – وبخاصة في بداياتها وخواتيمها – بعبارات توحي كأن الصليبيين في صلاة، واستهلوا معاركهم بالدعاء وطلب النصر من الرب، وينهونها بالتمجيد والشكر على النصر الذي مُنحوه. واجتهد مؤرخو الحملة في صياغة العبارات التي تؤكد للقارئ على قيادة الرب لمعاركهم، فنجدهم يقولون إن هجوم الجيش الصليبي على العدو يأتي باسم يسوع المسيح والقبر المقدس، وهو هجوم فرسان الإله الحق، وتقدم فرسان الرب القدير بجسارة باتجاه الأعداء، فأصابتهم عصا الرب. ويذكرون عبارات مثل قولهم: إنه في اللحظة المناسبة ساعدنا الرب، وكانت رحمة الرب المسيطر والتي لا تقهر، حاضرة دائماً بجانب الجيش، وجاءت رحمة الرب إلى الجيش فأبدلت تعاستهم فرحاً، وعمل الرب بشكل مدهش مع جيشه، وحارب مع المشاة والفرسان، وألقى الرعب في قلوب أعدائه. واعتاد هؤلاء المؤرخون، عند إدراك الصليبيين للنصر، التأكيد على أن انتصارهم في المعركة بسبب عطف الرب، وبعونه وبقوته وبالضريح المقدس، قهرنا أعداءنا، وبفضل إحسانه تفوق فرسانه. ولم تكن هناك أي عقبة تعوق حركة الأعداء إلا قوة الرب، ولولا وجوده ما تحقق النصر، إلا أن الرب العطوف الرحيم أدرك الجيش بعونه العاجل، فأنقذ فرسانه من الموت، ومن الوقوع في أسر أعدائه، وشاءت إرادته أن تدور الدائرة على أعدائه، وتوسل جيش الرب في طلب الرحمة منه، ورهبهم الرب النصر من عنده، ووهب فرسانه نصراً عظيماً. كل ذلك برعاية يسوع المسيح؛ الذي ذهب وحكم مع الآب والروح القدس، ولولا وجود السيد الرب العظيم الحنون الذي لم يرض أن يهلك فرسانه. وجرى استخدام عبارات أخرى مثل: بث الرب الرعب في قلوب الأعداء، وانتصر جيش الرب على الأعداء، بسبب الرعب الذي بثه الرب في قلوب أعدائه، جعل الرب أعداءه يعتقدون أن جيشه يملك قوة كبيرة، كافية

لتدمير بلادهم بلا رحمة، وتحققت بفضل الرب معجزاته على أيدي عبيده المخلصين، وعادوا مسرورين بالنصر الذي تحقق، فسبحوا الرب ومجدوه[٦٣].

وبعبارات أشبه بالتراتيم؛ وصف أحد مؤرخي الحملة مشهدها الأخير، بعد دخول الصليبيين بيت المقدس، حيث عبر عن طول الشوق إلى هذا اليوم، وأنه سيبقى خالداً في الذكرى، وأن هذا الفعل سابق على كل الأفعال، هذا العمل اختار الرب إنجازه من خلال شعبه، ومن خلال أبنائه المحبوبين وأسرته، الذين اختارهم، كما اعتقد، لهذه المهمة[٦٤].

وبطبيعة الحال، فإن قضية هزيمة جيش الرب تطرح نفسها هنا، فهل يهزم الجيش الذي يقوده الرب ويسانده؟! في الواقع إن الصليبيين تعرضوا لخسائر منذ خروجهم من الغرب الأوربي، وحتى وصولهم إلى بيت المقدس. وكان على دعاة الحرب الصليبية، يترأسهم البابا، تقديم تبرير لتلك الإخفاقات، وإلا فإن الحرب، التي وصفوها بالمقدسة، ستفقد كثيراً من قيمتها في أعين المعاصرين، الذين آمنوا بعدالتها وقدسيتها. ووجد مؤيدو هذه الحرب حجتهم في الذنوب التي ارتكبها الصليبيون، واعتبروها كفيلة بغضب الرب، وتخليه عن نصرتهم[٦٥].

وصرح بعض المؤرخين المعاصرين، في أكثر من موضع، أن الرب الذي ينصر جنوده هو الذي يتخلى عنهم إذا ارتكبوا الذنوب والآثام، أو قاموا بأعمال شريرة كالسلب والنهب. ولا بد أن يعاقب الرب أبناءه، ولا يساند جيشه إذا قاموا بحرب ظالمة، أو إذا خرج أحد فرسانه، في الحملة الصليبية، يبغي مصلحة شخصية، فإن الرب لا يناصره، بل يمطر عليه أنواعاً شتى من المصائب[٦٦]. وبذلك فقد جاءت الحملة الصليبية الأولى، في عيون معاصريها، حرباً مقدسة، فالرب الذي يساند الحرب العادلة التي يخوضها جيشه، هو الذي يتخلى عنهم إذا حادوا عن سبيله.

الرؤى رسائل الرب

وشاعت رؤى دينية داخل المعسكر الصليبي، بين الحين والآخر، فأضفت مزيداً من الأجواء الروحية، وقدمت دلالة واضحة على الصورة الذهنية لصليبيي هذه الحملة، باعتبارهم يقدمون عملاً مقدساً. وبداية، فإن تلك الرؤى أخذت الطابع الديني، فالغالبية العظمى ممن قصّوها، هم أناس من رجال الدين ذوي الرتب البسيطة، ومن الفقراء المتواجدين بصحبة الجيش الصليبي، ثم إن الرؤيا الواحدة كانت تضم بطلاً، أو أكثر من بطل، من رموز الدين المسيحي مثل: يسوع المسيح، أو السيدة مريم العذراء، أو أحد الحواريين أو عدد منهم. ومهما تعددت موضوعات الرؤى؛ فإنها جميعاً تخدم قضية أساسية لدى كل هؤلاء القاصّين، هي أن الرب حاضر مع جيشه، يساندهم ويدعمهم. وهذه الرؤى طرحت في أوقات عصيبة تعرض لها الصليبيون، مثل خسارتهم معركة أو طرفاً منها، أو حين فشلهم أمام قلعة أو حصن، أو عند وقوعهم تحت حصار أعدائهم، أو حال تعرض معسكرهم لمجاعة أو ما شابه ذلك. ولعبت الرؤى دوراً معنوياً مهماً، فكانت تخفف من الآلام النفسية التي تعتصرهم، وتملؤهم ثقة في مساندة الرب لهم، فترتفع معنوياتهم لمواجهة الأزمة التي يواجهونها. وأغلب الرؤى أسندت السبب الرئيس لما تعرض له جيش الرب من أزمات إلى خطاياهم، فيظهر أبطال الرؤى لأحد أفراد الجيش فيبلغونه بالخطايا والذنوب التي يقترفها أناس من جيش الرب، ويأمرونه بنقل أوامرهم إلى هؤلاء الشاردين ليعودوا إلى طريق الخلاص، ويتخلوا عن أفعالهم الشائنة، ويطلبوا منهم التطهر، ويسبحوا الرب ويمجدونه، ويصوموا ويتصدقوا، فيتقبلهم الرب ويعدهم مغفرة من عنده ويدعمهم بالمساندة[٦٧].

الاستشهاد/الشهادة، مكافأة السماء:

وننتقل إلى جانب آخر من صورة الصليبي المثالي، فقد اعتبر الصليبيون أن التضحية بالنفس هي تمام العمل المقدس، فجندي المسيح يقاتل العدو بجسارة، وإذا قتل فإنه ينتقل إلى الحياة الأبدية. فالشهداء يعتبرون شهوداً للمسيح، وتحملوا الآلام من أجله. وكل صليبي شارك في معركة الرب بإخلاص، فهو مشروع شهيد أو شهيد

محتمل. وبحسب دعوة البابا أوربان الثاني لهذه الحملة، فإن السماء بدت أكثر ترحيباً بهؤلاء الشهداء، ويلقون فيها المكافأة المجيدة التي لا يضاهيها مكافأة على الأرض، ولا تفوقها مرتبة في السماء[٦٨].

وبطبيعة الحال، فإن مؤرخي الحملة أثنوا على الصليبيين الذين قتلوا، واحتسبوهم شهداء لأنهم تطوعوا في الحملة في سبيل تمجيد اسم المسيح، ومن أجل خلاص أرواحهم. وهؤلاء لم يبالوا بالمعاناة التي تعرضوا لها، ولا بآلام القتل، وبذلوا أرواحهم عن رضى، وإنهم سيصعدون إلى السماء وعليهم ثياب الشهادة البيضاء، وأرواحهم طاهرة مسرورة، لأن الذين يموتون في خدمة المسيح لا يموتون أبداً، هم تركوا هذا العالم ليعيشوا في البيت السماوي الذي أعده الرب لهم[٦٩].

وهكذا صورت المصادر الصليبية المعاصرة قتلى الصليبيين في قالب مثالي، وبرغم هذه الصورة الرائعة عن شهداء الحرب المقدسة، وعن قيمة الاستشهاد داخل المجتمع المسيحي، فضلاً عن الثواب الأخروي الذي يحظى به الشهداء، دون سواهم من رفاق الدرب، فإن فكرة الاستشهاد هذه لم تساهم في حشد الجماهير للحرب الصليبية بالقدر المأمول[٧٠].

نموذج الصليبي المثالي

رأينا الحملة في عيون معاصريها في صورة مثالية، وكذا جاءت صورة المشاركين فيها، فامتدحوا بطولاتهم وأعمالهم، وبرروا أخطاءهم. وعلى العكس من ذلك، فقد نالوا من بعضهم حين اعتبروهم فاقدي الولاء للقضية الصليبية، ووضعوهم في مكانة وضيعة. ومن المعلوم أن هذه الحملة شارك فيها العوام والفرسان وعدد من رجال الدين. وبرزت من خلال هؤلاء المشاركين صورة عن النموذج للصليبي، تمثلت فيما قاموا به من أعمال خلال هذه الحملة، ونقدم لهذه الصور هنا بشيء من التفصيل:

وأما العوام، فإنه جرى تصويرهم، في المصادر المعاصرة، في صورة هي الأقرب للمثالية. فجرى تصوير هؤلاء البسطاء على أنهم آمنوا بدعوة البابا وسمو أهدافها،

وأنهم احتسبوا الأجر من الرب الراعي. وبالتالي فإن عواطفهم الدينية هي التي دفعتهم لمغادرة أوطانهم والخروج في الحملة، وعرضوا حياتهم لمخاطر عديدة وهم راضون بذلك[٧١].

والمعروف أن العوام خرجوا في جماعات بدون إعداد للخروج، فلم يحملوا ما يكفيهم من المؤن، ولم يملكوا ما يعينهم من المال، ولم يتسلحوا بأسلحة الحرب للدفاع عن أنفسهم. ولذا فقد دمر الأتراك السلاجقة جموعهم تدميراً شبه تام. وشاركت أعداد قليلة من العوام في جيوش الفرسان، فرافقوا الحملة حتى وصلوا إلى بيت المقدس، وتحدث المعاصرون عن هؤلاء العوام باعتبارهم شعب المسيح وجنوده المخلصين. وإذا كانوا فقراء فالرحمة الإلهية تغنيهم، وتبنى واعظو الحملة الدفاع عن هؤلاء الفقراء، فطالبوا الأغنياء بحمايتهم من الجوع والبرد، ووعدوا الأغنياء بكرم المسيح وسخائه عليهم، لقاء مساعدتهم شعبه الفقير[٧٢].

وبرغم فقر العوام وسوء هندامهم، فإنهم في نظر معاصريهم جنود الرب، لأن الرب لا يعطى النصر لنبالة المولد، أو للتفوق باستخدامهم السلاح، ولكنه يساعد الذي يملك قلباً نقياً، ويستقوي بالقوة الربانية ساعة الحاجة[٧٣].

إن المظهر الرث لهؤلاء العوام، جعل صورتهم، في أعين معاصريهم، كأنهم رهبان تسلحوا بسلاح الدنيا للدفاع عن العقيدة المسيحية، واعتبروا الفقير المعدم مثالاً للمسيحي المخلص. والحقيقة إن جهل العوام جعلهم يتعصبون ضد كل من خالف عقيدتهم الكاثوليكية.

وارتكب هؤلاء العوام أعمالاً وحشية لم ير تاريخ العصور الوسطى مثيلاً لها، ارتكبوها ضد أعدائهم مهما كان هذا العدو، بداية من يهود غرب أوربا، ومروراً بالمجريين والبيزنطيين، وانتهاءً بالمسلمين. ومهما كانت الأسباب التي دفعتهم لارتكاب هذه الأعمال الوحشية، فإنهم وضعوها في إطار أخلاقي، وجرى تبريرها بأنها الحرب التي أرادها الرب، والنصر من وجهة النظر هذه يعني قتال الأعداء حتى إبادتهم[٧٤].

ودفعهم الفقر والجوع إلى استباحة كل ما تطوله أيديهم. ولم يكن فيما بين جماعاتهم من النظام والضبط، ما يمنعهم من ارتكاب أبشع الجرائم، فالسماق هؤلاء الحمقى وراء أهوائهم، وارتكبوا أعمال عنف ووحشية مروعة، ولذا كانوا أبعد ما يكون عن الفضائل الدينية[٧٥].

وكانت بداية وحشيتهم ضد يهود غرب أوربا، فقد نظر هؤلاء الصليبيون إلى اليهود باعتبارهم العدو داخل البيت، فإذا كانوا في طريقهم لقتال أعداء المسيح في الشرق؛ فالواجب على المسيحي الحق التخلص من أعداء المسيح في الغرب، وهؤلاء اليهود هم الذين عذبوه وصلبوه وقتلوه[٧٦]. فتبنى هؤلاء الصليبيون الفكرة العقيدية في تحقيق مآربهم من وراء الهجوم على اليهود. وإذا كان بعضهم لديه قناعة بالدافع الديني، فإن الغالبية العظمى، ممن هاجم اليهود، اندفعوا وراء أهداف أخرى لا صلة لها بالدين ولا بالأخلاق.

وأسندوا وحشيتهم إلى الدافع الديني بقدر كبير، ووجدوا في استغلالهم للبطولة المسيحية ما شجعهم على ارتكاب جرائمهم. ولذا جرى وصف بطرس الناسك، بعد مذبحة جماعته ضد المجريين في سملين في يونيو ١٠٩٦م، بالرجل المتعطش للانتقام، على سبيل الفخر بما ارتكبه وجماعته[٧٧].

وأما عن الفرسان، فقد وضعوا في مكانة بارزة من قلوب المعاصرين، فجاء حديث المؤرخين، عن هؤلاء الفرسان، مشبعاً بالعبارات التي توحي للقارئ كأنه يرى فرساناً نزلوا من السماء لينقذوا مقدسات الأرض. فهؤلاء الفرسان بذلوا جهوداً جبارة استعداداً للحملة، وعانوا كثيراً من أجل المسيح، فتركوا بلادهم بكل ما فيها من متاع الحياة، وحملوا الصليب واتبعوا المسيح[٧٨]. هؤلاء الفرسان خاضوا معارك ضارية ضد أعداء الرب، وقاموا بأعمال مجيدة حباً فيه، وطاعة لأوامره، فلا يجب أن ينسى أحد أو يهمل ذكراهم[٧٩]. وإذا وصف أحد الفرسان فهو الفارس الذي كرس حياته للحرب وللرب،

ويملك قوة وحماساً لنصرة الرب لا نظير لها، وبقدر ما يملك من إرادة، فإنه يملك رمحاً، وبراعة في حمل السلاح[٨٠].

وتبنى البعض الصورة التي رسمها المعاصرون للفرسان الصليبيين، وحاولوا إثبات مثالية هؤلاء الفرسان على أساس أنهم تربوا في أجواء العصور الوسطى التي خضعت للمؤثرات الدينية بقدر كبير. إضافة إلى أن هؤلاء الفرسان يؤمنون بمبادئ الفارس كتابع إقطاعي للدفاع عن سيده، وتحريره من أسره. وبالتالي فالفارس المسيحي النبيل ملتزم بهذا المبدأ تجاه قبر السيد المسيح، الأسير لدى أعدائه. والأجر الروحي هو صاحب السهم الأعظم للدفع بالفرسان المخلصين، نحو الخروج إلى بيت المقدس. وأما الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، التي دفعت بالعديد من الفرسان إلى المشاركة في الحملة فجرى التعويل عليها بقدر ضئيل[٨١].

والفارس المثالي هو الذي ينكر الآخر في مخيلته، ويدحره في واقعه، وبالرغم من أن البيزنطيين مسيحيون، فإنه جرى تقديرهم، من وجهة نظر الصليبيين، على جانب مختلف. ولكن جاء موقف الصليبيين منهم محكوماً باعتبارات تفوق قدراتهم. فهم في حاجة إلى دعم بيزنطة، لأنهم سيعبرون بلادهم، ويقتاتون من طعامهم، ويستدلون بأدلائهم، ويحتاجون مساعدتهم العسكرية. ولذلك فإن علاقة الطرفين في بدايتها كانت ودية، وارتبط بعض الصليبيين بصداقة مع إمبراطور بيزنطة. ثم أصيبت علاقة البيزنطيين بالصليبيين بالتوتر جراء صدام المصالح، فضلاً عن الاحتكاكات التي جرت بين الطرفين أثناء زحف الحملة داخل الأراضي البيزنطية، ولكنها كانت احتكاكات محدودة[٨٢].

ثم بدت البغضاء من أفواه الصليبيين وأفعالهم تجاه البيزنطيين، فوصفوا الإمبراطور بالغادر، والبغيض، والخائن، والخسيس، والتعيس، والدنس، والدنيء، والمحتال، والعدو. ونسبوا إليه مؤامرات ودسائس، باعتباره الرجل الذي تسلط عليه تفكير جائر ومضلل، وانه وشعبه يضمرون الشر والضغينة لكل ما هو لاتيني، وأن قلبه

يطوي كراهية عميقة لهم، وينتظر الإضرار بهم، وحرض عليهم اللصوص والأعداء[٨٣]. وانتهى تقدير صليبيي الحملة الأولى إلى أن الصليبي الحق، هو الذي يؤمن بوجهة النظر هذه، ويعمل بما تقتضيه. والصليبي المتخاذل هو الذي يقف بجانب البيزنطيين، فيحمل من الخزي مثل ما يحملون.

وبطبيعة الحال، فإن الصليبيين نظروا إلى المسلمين على أنهم كفار ووثنيون، وأعداء الرب والمسيحية المقدسة، وهم الجنس اللعين، والجنس البربري، واعتبروا مساجدهم مساكن الشياطين. ولذلك فهم يستحقون كل ما يقع عليهم، ويستحقون الموت الأبدي، ومصيرهم إلى النار الأبدية التي أعدت للشياطين وأعوانهم. وتبلورت صورة الفارس المثالي في وحشيته تجاه المسلمين، وأن مشاهد العنف والقتل التي ارتكبها الفرسان الصليبيين، ضد المسلمين، تدخل البهجة إلى نفوسهم[٨٤].

ومن هنا، فإن الصليبيين اعتبروا وحشيتهم ضد المسلمين مثالاً للفكرة الصليبية، فالصليبي الذي يقتل ويدمر ويحرق، بلا رحمة، هو فارس مثالي. وصورت المصادر الصليبية الفارس الصليبي في صورة لا يضارعه فيها فارس آخر، وبراعته في استخدام السلاح لا يدانيه فيها أعداء الرب، وتفوق الصليبي على أعدائه يراه كل ذي عين تبصر. ويبررون وحشيته بقداسة ونبل الهدف الذي يسعى لتحقيقه، ويصورونه فارساً متسلحاً بسلاح الدنيا وبشارة الصليب. ونسوق قليلاً من الأمثلة على الجرائم التي ارتكبوها للدلالة على هذه الفكرة: ففي يوم ١٦ مايو ١٠٩٧م/رجب ٤٩٠هـ كان الصليبيون يحاصرون نيقية، وانتصروا على فرقة من الجيش السلجوقي، ففصلوا رؤوس القتلى عن أجسادهم، وقذفوها داخل المدينة لبث الرعب في قلوب الأعداء، واحتفالاً بانتصارهم، وتشجيعاً لفرسانهم لارتكاب المزيد من أعمال البطولة[٨٥].

وإذا كانت مثل هذه الجرائم ترتكب في ساحات المعارك آنذاك، فإنها فاقت الوصف من جانب فرسان الحملة الأولى، وزاد من الأمر تعقيداً أنهم ألبسوا جرائمهم ثوب الدين.

فالجرائم التي ارتكبوها في طرسوس Tarsus رآها بعضهم جديرة بتقديم الشكر إلى السيد المسيح، على دعمه وتوفيقه، لأنه ساعدهم على إنجاز هذا العمل[٨٦].

وأثناء حصار الصليبيين لمدينة أنطاكية، جرت معارك كثيرة بين الصليبيين والمسلمين، وصور مؤرخو الحملة الفرسان الصليبيين في صورة بارعة، فالفارس الصليبي كالأسد الضاري متعطش للدماء، وروعته عند قيامه بالقتل والذبح والتمثيل بجثث المسلمين ونبش قبورهم. وتحدث مؤرخو الحملة، في فخر وشماتة، عن قيام فرسانهم بتجريد جثث المسلمين مما هو عليهم من أردية وأسلحة، وابتهجوا في وصف ما ارتكبوه من شق بطون الموتى، بحثاً عن الذهب والفضة التي ربما يكونون قد ابتلعوها، لكي لا تقع في أيدي الصليبيين. وتندر المؤرخون الصليبيون بهذه الأخبار المخزية، التي لا تحمل سوى معاني الخسة ودونية الأخلاق، وكذا تفاخروا بشجاعة فارس صليبي، وبرفقته اثني عشر فارساً فقط، انتصروا على مائة وخمسين من الأعداء، فقتلوا حوالي ثلاثين فارساً مسلماً، وأسروا مثل هذا العدد، وطاردوا الباقين شر طردة، فقتل كثيرون آخرون، أو غرقوا في أحد الأنهار القريبة، جزعاً من المصير المحتوم الذي ينتظرهم. وجرى اعتبار نصر الفارس الصليبي ورفاقه بهذه الطريقة الرائعة، إلا لكونه مؤمناً بأنه يقاتل في سبيل الرب، والرب معه يقاتل[٨٧]. وأما الأروع من ذلك بطولة وجسارة، بحسب راوي الخبر، هو انتصار ستين فارساً صليبياً على سبعة آلاف من المسلمين، وجرت هذه الموقعة بعد مارس ١٠٩٨م/ربيع الأول ٤٩١هـ خلال المناوشات التي كانت حول أنطاكية[٨٨]. وكذا استحق الثناء فرسان ريموند الصنجيلي، بعد اقتحامهم البارة في سبتمبر ١٠٩٨م/ شوال ٤٩١هـ، فقتلوا كل سكانها من المسلمين، رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً. وفعل الفرسان الصليبيون في معرّة النعمان كما فعلوا في البارة، بعد اقتحامهم إياها في ديسمبر ١٠٩٨م/ المحرم ٤٩٢هـ[٨٩].

ومن المؤكد أن هذه الروايات فيها مبالغة واضحة، ولكنها أعطت نموذجاً للبطولة المسيحية حسبما اعتقدها الصليبيون، وصورت الفارس الصليبي نموذجاً يحتذى لبراعته

في القتال، ووحشيته في القتل، وقدموا نموذجاً للفئة القليلة منهم التي تتفوق على الفئة الكثيرة. ونرى ملامح هذه الصورة في المشهد الأخير للحملة الصليبية الأولى، داخل مدينة بيت المقدس، فقد اعتبر الصليبيون أن أعمال البطولة تجلت في روعة بالغة، منذ مناوشات الحصار الأولى للمدينة، وحتى نجاحهم في اقتحامها، في الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩م/٢٢ شعبان ٤٩٢هـ. وقُدر للمدينة المقدسة أن تشهد المحاكمة الإلهية، التي تقضي بقضاء عادل من الرب، ضد من دنسوا الأماكن المقدسة، وكان لا بد من أن يكفر هؤلاء عن خطاياهم بدمائهم، وأن تطهر الأماكن المقدسة بإبادتهم. وانطلق الفرسان الصليبيون في شوارع المدينة ينفذون حكم الرب في أعدائه، فقتلوا كل من صادفوه، بدون مراعاة لسن أو لجنس. وجرى الذبح في شتى جوانب المدينة، وسدت الطرقات بأكوام الجثث، حتى حالت البيوت ارتفاعاً، وتناثرت أشلاؤهم في كل مكان، واستحال السير داخل المدينة إلا على الجثث. وتتبعوا الفارين واللاجئين إلى مساجدهم، فلم يتركوا لأحد باباً للنجاة بروحه. هذا فضلاً عما قاموا به من بقر بطون الموتى، بحثاً عن العملات الذهبية التي يتوقعون ابتلاعهم لها. وعلق الرواة الصليبيون على المذبحة مؤكدين على أن العدالة الإلهية حركها الغضب المقدس، فاستخدمت السيف المقدس في المذبحة المقدسة. وكان يوماً جديراً بالفرح والسعادة، لأنه اليوم الذي صنعه الرب. وهكذا عبر الصليبيون عن بهجتهم، وبرروا وحشيتهم[٩٠].

نموذج الصليبي المتخاذل

وهنا نلقي الضوء على صورة الصليبي المتخاذل، من منطلق قاعدة "بضدها تعرف الأشياء". فإذا كانت الصورة السابقة هي التي رسمها معاصرو الحملة للصليبي المثالي، فكيف رأوا من هو دون المثالية أو المتخاذل؟ إن أشنع الأخطاء التي شوهت سيرة بعض الصليبيين؛ هي التخلف عن الحملة والعودة إلى الوطن، وارتكب هذه الجريمة بعض الصليبيين الذين صاحبوا حملة روبرت كونت نورماندي ورفاقه، عندما تعرضت الحملة لبعض المعوقات في جنوبي إيطاليا، فقد خلع هؤلاء شارة الصليب، وباعوا أسلحتهم،

وتركوا الحملة عائدين إلى بلادهم. وبطبيعة الحال فإنهم صاروا جبناء وبلا قيمة في أعين معاصريهم، وأمام الرب، وحل بهم عار وخزي كبير[٩١]، والتصقت صفة الجبن وخيانة العهد بهؤلاء العائدين بدون مناقشة الأسباب التي دفعتهم إلى العودة، وما إذا كانوا خاطئين أم على صواب. ومجرد عودتهم إلى أوطانهم أمر وضعهم تحت طائلة الاتهام، وأمثالهم لا يحق لهم الاصطفاف في صفوف جيش الرب.

وتخلى آخرون عن الجيش الصليبي، عندما تعرضوا للمجاعة والأمراض أثناء حصارهم لمدينة أنطاكية، ففي يوم ٢٠ يناير ١٠٩٨م/ ١٠ صفر ٤٩١هـ هرب بطرس الناسك ووليم النجار، وأحدث مروبهما صدمة داخل المعسكر الصليبي. ووجد القادة أنفسهم مضطرين إلى اللحاق بهما، فخرج تانكرد وأمسك بهما، وأعادهما إلى المعسكر. ولم يلتمس أحد عذراً للرجلين، وتعرضا للتوبيخ والتقريع، واشترط القادة عليهما، في مقابل العفو عنهما، أن يقسما أيماناً مغلظة أن يلتزما الجيش مهما تعرضا لمحن، حتى تصل الحملة إلى البيت المقدس[٩٢]. ولأنه لا يمكن قبول فكرة التخلي عن جيش الرب، مهما كانت الأعذار، ومهما كان الصليبي ذا مكانة وشهرة، ومهما قدم من تضحيات، فإن خذلانه كفيل بمحو ما قدمه من أعمال مجيدة.

وقياساً على ذلك، يأتي موقف ستيفن كونت بلوا، فهو الفارس ذو الأصل النبيل، وزوجته أديلا Adela ابنه وليم الفاتح النورماني. شارك في الحملة، وحظي باحترام وتقدير رفاقه، وفي وقت من الأوقات اختاره القادة الصليبيون قاضيهم، أو رئيساً لمجالسهم، يستشيرونه في أمور الجيش، وينزلونه منزلة الوالد لرجاحة عقله[٩٣]. هكذا رآه معاصروه، ثم تغيرت وجهة النظر هذه تماماً عندما تخلى ستيفن عن الجيش، وعاد إلى موطنه، وجرى هذا الأمر أثناء حصار الجيش الصليبي لمدينة أنطاكية، ومع طول فترة الحصار، وتعرض الصليبيين للمجاعة والأمراض، وابتعد ستيفن كغيره من القادة عن المعسكر، طلباً للسلامة والعافية، ثم فاجأ الجميع بعودته إلى أنطاكية، فحزم أمتعته، وقاد رجاله عائداً إلى وطنه. ويبدو أنه التقى الإمبراطور البيزنطي وهو في طريقه إلى

دعم الصليبيين أمام أنطاكية، فأخبره ستيفن بالوضع السيئ الذي ترك عليه رفاقه، فعاد الإمبراطور إلى عاصمته، وتابع ستيفن رحلته إلى بلاده، وكانت عودة ستيفن صادمة، وتلطخت سمعته بالعار، ليس بين مواطنيه فقط، بل هكذا رأته زوجته، ومارست ضغوطاً عليه لإجباره على اللحاق بالصليبيين مرة أخرى، والوفاء بنذره الصليبي، واستسلم لضغوطها، وسعى لمحو العار الذي لحقه، وشجعه على العودة إلى الشرق ما سمعه عن الإنجازات التي حققها الصليبيون بعد مغادرته المعسكر. وبالفعل وصل ستيفن إلى مملكة بيت المقدس، وشارك في إحدى المعارك مع الملك بلدوين الأول، ولقي مصرعه فيها[٩٦].

إن انسحاب ستيفن من الجيش الصليبي، عند أنطاكية، جعل معاصريه يرونه بصورة مختلفة عما كانوا يرونه عليها من قبل. فصار ستيفن جباناً ومراوغاً، وعقله محدود، وأنه هرب من أمام أنطاكية متظاهراً بالمرض، وجعله جبنه يرتد على عقبيه مخزياً يجلله العار. ولا تفيده البداية الرائعة التي بدأ بها حملته الصليبية، لأنه لم يشهد مع رفاقه دخول المدينة المقدسة، وكذا فإن نهايته المأسوية لم تنقذ سمعته من العار الذي التصق بها[٩٧].

والواقع إن ستيفن فارس له دور ملموس في الحملة، ويكفي أن نلقي نظرة على رسالتيه اللتين أرسلهما إلى زوجته، أرسل الأولى أثناء تواجده عند نيقية بآسيا الصغرى، وأرسل الثانية عند وجوده أمام أنطاكية[٩٨]، وهما أكثر ما يلقي الضوء على شخص ستيفن الإنسان وعلاقته بزوجته، وقناعته بالعمل الذي تحمل عبء القيام به، وكذا نرى انفتاح شخصيته الذي أهله لتنوع علاقاته مع رجالات عصره، وعلى رأسهم الإمبراطور البيزنطي. وكان ستيفن رجلاً مخلصاً، ولم يكن صليبياً جباناً، ولا إنساناً سيئاً. وبرغم ما في شخصيته من عيوب، وما في سيرته من أخطاء، فإنه مات فارساً صليبياً. وهذه الميتة لم تشفع له عند معاصريه الذين توشحوا برداء التعصب، ووضعوه

في قائمة الملطخين بالعار. وما جعل معاصري ستيفن أكثر نقمة على شخصه؛ هو علاقته الودية التي ربطته بإمبراطور بيزنطة الذي يبغضه الصليبيون[٩٧].

وكذا كانت علاقة ريموند الرابع كونت تولوز بإمبراطور بيزنطة، ولذا فقد أصيبت سمعته بين معاصريه، وإن كان بقدر أقل من ستيفن كونت بلوا. فعرف عن ريموند إيمانه الشديد بالحرب الصليبية، وقاد جيشه إلى بيت المقدس وبصحبته أدهيمار نائب البابا. وفي القسطنطينية رفض أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور البيزنطي، مثل رفاقه الذين وصلوا العاصمة قبله، وأبدى اعتزازه أمام الجميع أنه هجر وطنه، وترك أحبابه وممتلكاته، وحمل الصليب من أجل الرب وفي خدمته، وليس من أجل سيد آخر. وفي نهاية الأمر ارتضى، مع الإمبراطور، على قسم يحفظ حياة الإمبراطور وبلاده[٩٨].

هذا الفارس بذل جهوداً مضنية في الحملة، وقدم أموالاً طائلة، وتوج جهوده باحتلال بعض البلاد التي كانت نواة لإمارة طرابلس الصليبية. وبرغم ما قدمه فإن علاقته بإمبراطور بيزنطة أغضبت عدداً كبيراً من رفاقه، وبخاصة بوهمند النورماني. والسبب في ذلك أن بوهمند نجح في السيطرة على أنطاكية من دون رفاقه، مما أغضب ريموند. ثم إنه من المحتمل أن ريموند وأدهيمار كانا يحتفظان بخطة، وضعها البابا، تهدف إلى مد جسور التفاهم مع بيزنطة التي لا غنى عنها، لكي يحقق الصليبيون أهدافهم في الشرق. فظهر ريموند في أعين معاصريه كأنه حليف للإمبراطور الإغريقي البغيض. وما جعل سمعة ريموند تتآكل، بشكل واضح، تلك الدعاية التي قام بها بوهمند عند عودته إلى أوربا، لحث الأوربيين على القيام بحملة صليبية ضد بيزنطة للقضاء عليها، وإفساح الطريق أمام الصليبيين إلى الشرق. ووضع بوهمند رفيق دربه ريموند مع ألكسيوس في سلة واحدة، فنالت دعاية بوهمند منه، مثلما شوهت صورة بيزنطة وإمبراطورها. وصار ريموند في نظر بعض معاصريه لا يمثل نموذج الفارس الصليبي، بل اعتبر فارساً كهلاً وأنانياً[٩٩].

المثالية الصليبية الزائفة

إن الصورة التي حاول دعاة المثالية أن يقدموها، عن الحملة الصليبية الأولى، في ثوب مثالي، لم تكن صادقة، فقد جرى من الأعمال الملموسة، على واقع الأرض، ما يتنافى تماماً مع مثالية هؤلاء الصليبيين. وبرغم حرص معاصري الحملة على صبغها بالمثالية، واعتبار الصليبيين رجالاً باعوا متاع الدنيا واشتروا الآخرة، فالحقيقة إن جموعاً كثيرة من الصليبيين خرجوا لأغراض دنيوية بحتة. وبرغم قناعة عدد من المختصين بهذا الأمر، إلا إنهم يرون أن من شاركوا بالحملة الصليبية الأولى، وهم على قناعة بمثاليتها، وسمو أهدافها، يمثلون الغالبية العظمى من ضمن المشاركين[١٠٠]. وإذا جرى التسليم بوجود من شاركوا في هذه الحملة لأسباب دينية، فإننا سوف نراهم، والذين أخرجتهم من ديارهم دوافع دنيوية، ارتكبوا جميعاً من أعمال العنف، والوحشية والتدمير، ما يتنافى تماماً مع ادعاء مثاليتهم، ونبالة أهدافهم، وروحانية الحرب التي شنوها.

ثم إن بعض المعاصرين شككوا في نوايا شريحة عريضة من صليبيي الحملة الأولى، واعترفوا بانتهازيتهم، وأن مشاركتهم جاءت لأغراض دنيوية. فقد نقل أبرت الأيكسي حواراً بين كاهن وأحد المشاركين في الحملة، تحدث الكاهن محدداً هوية المشاركين في الحملة بقوله: إن لكل واحد ممن شاركوا في هذه الحملة وجهة نظر، فأحدهم يقول إنها إرادة الرب، وآخرون يقولون إن هذه الحملة لخدمة فرسان الفرنجة، ولهذا فإنهم تعرضوا لأخطار عديدة أثناء رحلتهم، ولو أن الرب يساندهم ما قاسوا جراء المحن التي تعرضوا لها في بلاد المجر وفي الأراضي البيزنطية[١٠١]. ورأت آنا كومنين أن البسطاء في هذه الحملة شاركوا، مدفوعين بالحنين الجارف، للصلاة في ضريح السيد المسيح، وأما من دونهم في جيش الحملة فإنها تصفهم بالأرذال، وأنهم خرجوا إلى الشرق تحركهم أهداف مستترة[١٠٢]. وشارك وليم الصوري برأيه في هذه القضية،

مؤكداً على أن أناساً شاركوا في الحملة حتى لا يتهمهم أحد بالكسل والتراخي، وآخرون شاركوا لأسباب تافهة، وآخرون شاركوا هرباً من دائنيهم، وهناك آخرون قال إنهم شاركوا لأسباب مختلفة أخرى دفعتهم إلى المشاركة[١٠٣].

ونخلص إلى عدة نتائج مهمة هي: أن الصليبيين ادعوا أنهما يقومون بحرب عادلة، توافرت فيها أركان العدالة على الرغم من كونها حرباً هجومية وليست دفاعية. وبالتالي فإنهم اعتبروها حرباً مقدسة.

توافرت الأسانيد التي قدمت الحملة الصليبية الأولى على أنها حرب مقدسة، فقد دعا إليها بابا روما، واعتبرها حرباً بأمر إلهي، لأنها تسعى لتحرير القبر المقدس والكنيسة الشرقية. وجاء شيوع أفكار الحج ليخدم هذه الحملة، فيدفع الكثيرين للمشاركة على أساس أنها رحلة حج مسلح، ويكسبه صفة القداسة.

رأى الصليبيون في هذه الحملة أنها عمل حربي مثالي للبطولة المسيحية، مثالية الهدف الذي خرجوا ليحققوه، ومثالية المشاركين الذين ضحوا بالكثير في أوطانهم من أجل اتباع المسيح، ومثالية في الأعمال الحربية التي أنجزوها ضد الوثنيين، ومثالية في المساندة الإلهية التي صحبتهم طوال رحلتهم، ومثالية الختام مع اليوم العظيم الذي دعاهم إليه الرب، وخلدوه في الذكرى.

الصورة المثالية للحملة لم تكن إلا مثالية زائفة، فالبابا الذي دعا إلى الحملة كانت لديه أهداف أخرى عديدة، أراد أن يحققها من وراء هذه الحملة، وامتلك من الذكاء والبراعة ما جعله يصوغ دعوته بشكل جاذب لهؤلاء الصليبيين.

وكذا فإن المشاركين في الحملة كانوا مدفوعين بدوافع عديدة: اقتصادية، وسياسية، واجتماعية، فضلاً عن العاطفة الدينية، فخرجوا سعياً وراء تحقيق أهدافهم، في الوقت الذي يلبون دعوة دينية براقة، من شخصية مرموقة، ورفعوا شعارات دينية تمنحهم الرضى على الجانب الديني، وتساعدهم في إنجاز أهدافهم.

وارتكب الصليبيون جرائم تتنافى مع المبادئ الإنسانية والدينية، ولا يمكن معها قبول فكرة المثالية، فاستحال تحقيق هدف ديني نبيل؛ بارتكاب الأعمال الوحشية التي مارسوها طوال رحلتهم.

واعتبر الصليبي المثالي هو الذي يفوق أقرانه في الأعمال الإجرامية، بغض النظر عن استحقاق ما ارتكبه من عنف. فالعدالة الإلهية من، وجهة نظرهم، هي إنزال أقسى أنواع العقاب على أي مخالف في العقيدة، فكلما كان الصليبي دموياً جادوا عليه بالألقاب البطولية.

وأما الصليبي الذي يتخلى عن الحملة فهو متخاذل ويحمل عاراً لا يفارقه، ومهما قدم للحملة من إنجازات، فلا يحظى بالتقدير الذي حظي به سابقوه.

الهوامـــش

(١) المثالية كلمة تعني في العربية القالب أو النموذج الذي يقدر أو يقاس عليه الشيء. ابـن منظور، لسان العرب، حققه عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د. ت، مـج ٦، ص٤١٣٣-٤١٣٤.

(٢) البابا أوربان الثاني Urban II فرنسي الأصل، ولد سنة ١٠٤٢م، وهو أحد تلامـذة ديـر كلوني Cluny . تولى البابوية في مارس ١٠٨٨م، ودعا إلى الحملة الصليبية الأولى، وتولى أمرها بالرعاية حتى وفاته في ٢٩ يوليو ١٠٩٩م.

- Richard, P. Mcbrien, the Pocket Gulde to the Popes, HarperCollens e-books, pp. 174-175.

(3) Munro D. C., The speech of Pope Urban II at Clermont 1095. in 'American Historical Review', vol. 11, No. 2(Jan.1906), p. 237.

(٤) ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الـصليبية، ترجمـة محمـد فتحـي الشاعر، القاهرة، ١٩٩٣، ص١٧؛ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسـات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٣، ص١٥.

(5) Hamilton, B., Ideals of Holiness: Crusaders, Contemplatives, and Mendicants, the International History Review, vol. 17, No. 4(Nov. 1995), p. 694.

(6) Cowdrey, H. E. J., From the Peace of God to the First Crusade, in "The Crusades and Latin Monasticism, 11th-12th centuries", Ashgate, Variorum, 1999, p. 52; Reynolds, B. W., the Pre-history of the Crusades: Toward a Developmental Taxonomy, in History Compass, 2008, pp. 885-886.

(٧) القديس أوغسطين St. Augustine ولد في توميديا بشمالي إفريقيـة نـوفمبر ٣٥٤م، تلقى تعليمه في روما، ثم عمل معلماً للفلسفة وعلم البيان في ميلانو. كان يعتنـق المانويـة، وتأثر بالقديس أمبروز أسقف ميلانو، ثم اعتنق المسيحية في سنة ٣٨٦م، والتحـق بالـسلك الكهنوتي حتى أصبح أسقف هيبو Hippo (عنابة في الجزائر الآن). وظل أسقفها حتى وفاتـه في أغسطس ٤٣٠م. وأهم مؤلفاته كتابي الاعترافات ومدينة الله.

- New Catholic Encyclopedia, 2nd ed., 15 vols., The Catholic University of America, Washington, 2002, vol. 1, pp. 850-868.

(8) Morris, C., the Papal Monarchy, the Western church from 1050 to 1250, Oxford, 1989, p. 143; Jespert, N., the Crusades, trans. from Germany Jestice G. Ph., London, 2006, p. 14.

- قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، دار عين بالقاهرة، ١٩٩٩، ص١٦؛ ماهية الحروب الصليبية، ص ٤١-٤٢.

(٩) القديس أوغسطينس، مدينة الله، عربه يوحنا الحلو، ط٢، ٣ مجلدات، دار الشروق، بيروت، ٢٠٠٦، مج١، ص٤٠، ٤١.

(10) Cowdrey, Canon Law and the First Crusade, In "The Crusades and Latin Monasticism", p. 41.

(١١) حركة الإصلاح الكلونية تنسب إلى دير كلوني Cluny ، وهذا الدير تأسس في سنة ٩١١م على يد وليم التقي دوق أكوتين william of Aquitaine (٨٧٥-٩١٨م)، ويقع بالقرب من الحدود الفرنسية الألمانية. تبنى رجال هذا الدير أفكاراً إصلاحية داخل الكنيسة الكاثوليكية والأديرة في الغرب الأوربي؛ منها محاربة السيمونية، والتقليد العلماني، فضلاً عن دعمهم للمسيحيين في أسبانيا. وقدمت الحركة الكلونية عدداً من رجالها للمنصب البابوي، ومن أشهرهم البابا جريجوري السابع، والبابا أوربان الثاني.

- New Catholic Encyclopedia, vol. 3, pp. 814-815.

- سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ط٧، القاهرة، ١٩٧٨، ج١، ٣٢٨.

(12) Erdmann, C., The Origin of the Idea of Crusade, trans. From the Germany by Baldwin M. W., and Goffart, W., Princeton University Press, 1977, p. 306; Alkopher, T. D., the social (and Religious) Meanings that constitute War: the Crusades as Realpolitik vs. socialpolitik, in 'International Studies Quarterly', 49, 2005, p. 723; Dennis G. T., Defenders of the christian people: Holy War in Byzantium, 'Dumbarton Oaks', Washington, 2001, p. 31.

- ماير، هـ. إ.، الحملات الصليبية، عربه محمد فتحي الشاعر، بور سعيد، ١٩٩٩، ص٣٠، ٣١؛ ماستناك، ت.، السلام الصليبي، عربه بشير السباعي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٧، ١٩، ٢٤.

(13) Erdmann, op. cit., pp. 52, 201-202; Morris, op. cit., pp. 152-153; Tyerman, C.J., Fighting for Christendom: Holy War and the Crusades, Oxford, 2004, pp. 109-110.

– ماستناك، المرجع السابق، ص٢٠، ٢٥؛ قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص١٨٠–١٨١.

(١٤) جريجوري السابع Gregory VII ، اسمه هلدبراند Hildebrand ولد في سنة ١٠٢٠م، والتحق بدير كلوني. ثم تولى البابوية في ٣٠ يونيو ١٠٧٣م ولقب بجريجوري، وفي بابويته اشتعل الصراع بين البابوية والإمبراطورية، وجراء هذا الصراع ترك روما، وأقام عند حلفائه نورمان صقلية حتى وفاته في مايو ١٠٨٥م.

– Richard, P. Mcbrien, the Pocket Guide to the Popes, pp. 170–172.

(15) Erdmann, op. cit., 118, 119, 202–203; Cowdrey, Pope Gregory VII and the Bearing of Arms, in "The Crusades and Latin Monasticism", pp. 21, 34–35; Cowdrey, The Reform papacy and the Origin of the Crusades, in "The Crusades and Latin Monasticism", p. 83; Smith, L. M., Cluny and Gregory VII, in 'the English Historical Review', vol. 26, No. 101(Jan. 1911), p. 33; Heston, A., Crusades and Jihads: A Long-Run Economic Perspective, in 'Annals of the American Academy of Political and Social Science', vol. 588, Islam: Enduring Myths and Changing Realities (Jul. 2003), p. 116.

– ماير، المرجع السابق، ص٣٥؛ ماستناك، المرجع السابق، ص٥٠، ٤٦، ٤٧، ٤٨.

(16) Cowdrey, From the Peace of God to the First Crusade, p. 61; Tyerman, Fighting for Christendom, pp. 109–110; Alkopher, op. cit., p. 723.

(١٧) قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص٣٥.

(١٨) قسطنطين الكبير Constantine I, the Great, Roman Emperor ، هو الإمبراطور الروماني العظيم، والده الإمبراطور قنسطنطيوس خلوروس(٢٩٣–٣٠٦م) وأمه هيلينا التي حملت نقب قديسة. ولد سنة ٢٨٠م في بلدة نيسوس Naissus أو نيش Nish تقع في صربيا الآن. تولى حكم الإمبراطورية في القسم الغربي بمدينة يورك خلفاً لوالده سنة ٣٠٦م. وتخلص من منافسه ماكسنتيوس في معركة جسر ملفيان سنة ٣١٢م، وأصدر في العام التالي ما تعارف عليه بمرسوم ميلان الذي تسامح فيه مع المسيحية والمسيحيين. وفي سنة ٣٢٤م تخلص من ليكينيوس شريكه الأخير في حكم الإمبراطورية. وفي سنة ٣٢٥م دعا إلى عقد أول مجمع مسكوني في نيقية، وشارك في وضع قوانين الإيمان التي صدرت من هذا المجمع. ثم أمر ببناء مدينة جديدة على شاطئ البسفور لتكون عاصمة لإمبراطوريته، وانتقل إليها سنة ٣٣٠م، وتوفي قسطنطين سنة ٣٣٧م.

– New Catholic Encyclopedia, vol. 4, pp. 179–183.

(19) Runciman, S., The Pilgrimages to Palestine befor 1095, in 'A History of the Crusades, ed. Setton, 6 vols., the University of Wisconsin Press, 1969-1989. vol. 1, pp. 69, 71.

- والحاكم بأمر الله الفاطمي ابن الخليفة العزيز بالله، ولد بالقاهرة في ربيع الأول سنة ٣٧٥هـ. وبويع بالخلافة في شهر رمضان ٣٨٦هـ، وكان شديد السطوة على رعيته، وجريئاً على سفك الدماء. وله تصرفات غير سوية؛ منل منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلاونهاراً، وركوبه حماراً وعليه ثياب الرهبان. واشتد على النصارى في دولته، وهدم كنيسة القيامة في بيت المقدس. وقتل الحاكم في شوال سنة ٤١١هـ. المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧١، ج٢، ٣ وما بعدها.

(20) Runciman, S., The Pilgrimages to Palestine befor 1095, PP. 77-78; Burr, G. L., the Year 1000 and the Antecedents of the Crusades, in 'the American Historical Review', vol. 6, No. 3 (Apr. 1901), P. 429; Alkopher, op. cit., p. 724; Thornton, A., Apocalyptic Visions of the Tenth century, Master of Arts, in the Facaulty of the College of Graduate Studies, Lamar University, 2000, pp. 1, 81; Landes, R., the Fear of an Apocalyptic year 1000: Augustinian Historiography, Medieval and Modern, in 'Speculum', vol. 75, No. 1 (Jan. 2000), pp. 133, 143.

(21) Cowdrey, From the Peace of God to the First Crusade, p. 61; Tyerman, Were there Any Crusades in the Twelfth century? In 'the English Historical Review', vol. 110, No. 437(Jun. 1995), p. 567; Alkopher, op. cit., p. 723-724.

- ماير، المرجع السابق، ص٢٧؛ ريلي سميث، المرجع السابق، ص٢٨، ٢٩.

(22) Munro, the Western Attitude toward Islam during the Period of the Crusades, Speculum, vol. 6, No. 3(Jul. 1931), pp. 330-332; Parvini, M., & Sommer, M., Dar al-Islam: the Evolution of Muslim Territoriality and Its Implications for conflict Resolution in the Middle East, in 'International Journal of Middle East Studies', vol. 11, No. 1(Feb 1980), pp. 14, 15; Luchitskaja, S., the Image of Muhammad in Latin Chronography of the Twelfth and Thirteenth centuries, in 'Journal of Medieval History', vol. 26, No. 2, 2000, p. 116; Christie,

N., the Origins of Suffixed Invocations of God's Curse on the Franks in Muslim Sources for the Crusades, in 'Arabia', T. 48, 2001, p. 258.

(23) Cahen, C., An Introduction to the First Crusade, in 'Past and Present', No. 6(Nov. 1954), pp. 6-7, 29; Hamilton, B., Knowing the Enemy: Western Understanding of Islam at the Time of the Crusades, in 'Journal of the Royal Asiatic Society', Third Series, vol. 7, No. 3(Nov. 1997), p. 374; Marin-Guzm□n, R., Crusade in Al-Andalus: the Eleventh century formation of the Reconquista as an Ideology, in 'Islamic Studies', vol. 31, No. 3(Autumn 1992), p. 311; Chevedden P. E., the Islamic view and the Christian view of the Crusades: A New Synthesis, in the first International Conference of the Taiwan Association Classical, Medieval and Renaissance Studies, Christian-Islamic Relationships, 600-1600 c. e., at Fu Jen Catholic University in Taipei, 27-28 April 2007, p. 198.

- ماستناك، المرجع السابق، ص٥٤، ٥٦؛ النشار، محمد محمود أحمد، البابوية وفرنسا على مسرح الحروب الصليبية في الأندلس، ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية، اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، ١٩٩٦، ص١٢٣-١٢٤.

(٢٤) والتر المقلس Walter Sans-Avoir أحد قادة العوام في الحملة الصليبية الأولى، وصف بأنه شريف المولد ومحارب. والراجح أن وفاته سنة ١٠٩٦م. وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص١١٢-١١٣.

- An Encyclopedia, The Crusades, ed. Murry, A. V., 4 vols., London, 2006, vol. 4, p. 1240.

(٢٥) ألكسيوس كومنين Alexios I Komnenos ولد حوالي سنة ١٠٥٧م، والده حنا أحد نبلاء أسرة كومنين البيزنطية العريقة. وتولى عرش بيزنطة سنة ١٠٨١م، وعاصر أحداث الحملة الصليبية الأولى، وتوفي سنة ١١١٨م.

- The Oxford Dictionary of Byzantium, ed. Kazhdan, A. P. and Others, 3 vols., Oxford, 1991, vol. 1, pp. 63-64; An Encyclopedia, The Crusades, vol. 1, pp. 45-46.

(٢٦) بطرس الناسك Peter the Hermit ولد في أميان Amiens بفرنسا، وتاريخ ميلاده غير معروف. استقبل دعوة البابا أوربان الثاني بحماس، وخرج ومعه جموع غفيرة من العوام. وعانى بطرس ورفاقه معاناة شديدة حتى وصلوا القسطنطينية، ونقلهم الإمبراطور البيزنطي إلى آسيا الصغرى، فانضموا إلى والتر المقلس ورفاقه. وتعرض هؤلاء العوام

لمذبحة مروعة على أيدي الأتراك السلاجقة، ونجا بطرس منها. وانضم إلى جيوش الأمراء عند وصولهم فتابع الرحلة معهم. وأثناء حصارهم لأنطاكية حاول بطرس الهرب، ولكن محاولته باءت بالفشل. وتابع مسيره مع الحملة حتى دخولهم بيت المقدس في يوليو ١٠٩٩م. وأما وفاته فربما كانت سنة ١١١٣م.

– An Encyclopedia, The Crusades, vol. 3, pp. 946–948.

(27) Albert of Aachen, History of the Journey to Jerusalem, ed. and trans. Edgington, S. B., Oxford, 2007, pp. 9–31; Ordric Vitales, the Ecclesiastical History of England and Normandy, trans. With notes by Thomas Forester, M. A., 4 vols., London, 1853–1856, vol. 2, p. 168. Eliezer Bar Nathan, Chronicle of Rabbi Eliezer Bar Nathan, in Eidelberg, S., The Jews and The Crusaders, Wisconsin, 1977, pp. 79–90; – Solomon Bar Simson, Chronicle of Solomon Bar Simson, in Eidelberg, S., The Jews and The Crusaders, Wisconsin, 1977, pp. 21–28.

– وليم الصوري، الحروب الصليبية، عربه حسن حبشي، القاهرة،ج١-٢، القاهرة، ١٩٩١-١٩٩٢، ج١، ص ١١٥، ١١٦، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤.

– Duncalf, F., The Peasants' Crusade, in 'American Historical Review', vol. 26, No.3(Apr.1921), p. 442; Porges, W., The Clergy, The Poor, and The Non-Combtants on The First Crusade, in 'Speculum', vol. 21, Jan., 1946, p. 3.

– رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ط٣، بيروت،١٩٩٣، ج١، ص١٧٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٩، ٢١٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ط٦، الأنجلو المصرية، القاهرة،٢٠٠٢، ج ١، ص١١٢-١١٨. وعن حملة العوام تفصيلاً انظر: محمود محمد كامل عطية، الحملات الصليبية الشعبية ودورها في تاريخ الحركة الصليبية(١٠٩٥-١٠٩٧م)، ماجستير غير منشور، آداب أسيوط، ٢٠٠٩م.

(٢٨) جودفري بوايون Godfrey of Bouillon ابن يوستاس الثاني كونت بولونيا Eustace II count of Boulogne. ولد في الربع الثالث من القرن الحادي عشر الميلادي، شارك في الحملة الصليبية الأولى، وظل بصحبة الصليبيين حتى دخولهم بيت المقدس في يوليو ١٠٩٩م. واختاروه كأول حاكم صليبي لمملكة بيت المقدس. وتوفي سنة ١١٠٠م.

– An Encyclopedia, The Crusades, vol. 2, pp. 533–535.

(٢٩) بوهمند النورماني Bohemund I of Antioch ابن روبرت جويسكارد Robert Guiscard زعيم نورمان صقلية. وتولى بوهمند مقاطعة تارانتو Taranto ، وانضم إلى الحملة الصليبية الأولى عندما علم بخروجها، ونجح في الانفراد بحكم أنطاكية بعد استيلاء الصليبيين عليها. ولما وقع في أسر المسلمين سنة ١١٠١م تولى تانكرد حكم أنطاكية، وأطلق سراحه في ١١٠٣م، وبقي في أنطاكية حتى غادرها إلى الغرب سنة ١١٠٤م لحشد حملة صليبية جديدة هدفها الإمبراطورية البيزنطية. ونجح في مهمته، ثم خرج على رأس حملته إلى الأراضي البيزنطية، ولكنه لقي هزيمة منكرة، وأجبر على توقيع اتفاقية ديفول Devol سنة ١١٠٧م. وظل بوهمند في أوربا حتى توفي سنة ١١١١م.

- An Encyclopedia, The Crusades, vol. 1, pp. 175-176.

- تانكرد Tancred ولد سنة ١٠٧٦م لأب يدعى أودو Odo من نورمان صقلية، وأمه إما Emma ابنة روبرت جويسكارد. شارك في الحملة الصليبية بصحبة خاله بوهمند، ومع وصول الصليبيين إلى فلسطين تولى إمارة الجليل من سنة ١٠٩٩م حتى ١١٠١م حين انتقل لحكم أنطاكية بدلا من خاله الأسير، واسترد بوهمند إمارته بعد خروجه من الأسر سنة ١١٠٣م حتى غادر الشرق سنة ١١٠٤م، فعاد بوهمند لحكم أنطاكية حتى وفاته سنة ١١١٢م.

- An Encyclopedia, The Crusades, vol. 4, pp. 1143-1145.

(٣٠) ريموند الرابع كونت تولوز Raymond of Saint-Gilles، عرفه العرب بالصنجيلي، ولد حوالي سنة ١٠٤١م، وهو الابن الثاني لبوتز الثاني كونت تولوز Pons II, count of Toulouse. شارك في الحرب ضد المسلمين في أسبانيا، ثم شارك في الحملة الصليبية الأولى وبصحبته أدهيمار مندوب البابا في الحملة. بذل جهوداً مضنية في الحملة حتى دخول الصليبيين بيت المقدس، ولكنه لم يحصل على شيء من غنائمها، فشارك في حملة ١١٠١م، ونجح في الاستيلاء على بعض البلدان على الساحل الشامي، فكانت نواة لإمارة طرابلس الصليبية. وتوفي ريموند سنة ١١٠٥م. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، د. ت ،ج٨،ص١٨٧

- An Encyclopedia, The Crusades, vol. 4, pp. 1011-1013.

- أدهيمار أسقف لي بوي Adhemar of Le Puy ولد بفرنسا في حوالي ١٠٤٥م لإحدى الأسر النبيلة، وانتخب أسقفاً لمدينة لي بوي. اختاره البابا أوربان الثاني مندوباً عنه في الحملة الصليبية الأولى. وتوفي في أول أغسطس ١٠٩٨م بمدينة أنطاكية.

- An Encyclopedia, The Crusades, vol. 1, p. 15.

(٣١) روبرت كونت نورماندي Robert Curthose, Duke of Normandy ، هو ابن وليم الفاتح William of Conqueror ولد حوالي ١٠٥٤م، وشارك في الحملة الصليبية الأولى، وصاحب في جيشه روبرت كونت فلاندرز وستيفن كونت بلوا. وأظهر روبرت الكلبر

من دروب الشجاعة في هذه الحملة، وبعد دخول الصليبيين بيت المقدس عاد إلى وطنه يبحث عن حقوقه الضائعة. وتوفي روبرت سنة ١١٣٤م.

- An Encyclopedia, The Crusades, vol. 4, p. 1041-1042.

- روبرت كونت فلاندرز Robert II of Flanders ولد في الربع الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي الميلادي، وهو ابن روبرت الأول الفريزي كونت فلاندرز. وسبتمبر ١٠٦٩م انضم بجماعته إلى جيش روبرت نورماندي، ولحقوا بالصليبيين. وظل بصحبة الحملة حتى الاستيلاء على بيت المقدس في يوليو ١٠٩٩م. وعاد بعدها إلى وطنه حيث توفي في أكتوبر سنة ١١١١م.

- An Encyclopedia, The Crusades, vol. 4, p. 1039.

- ستيفن كونت بلوا Stephen of Blois هو ابن ثيبود الثالث كونت بلوا وشامبين، ولد حوالي ١٠٤٥م، وتزوج من أديلا ابنة وليم الفاتح. شارك في الحملة الصليبية الأولى فانضم إلى جيش روبرت كونت نورماندي. ترك الجيش الصليبي أثناء حصاره أنطاكية وعاد إلى موطنه، وأجبرته زوجته على اللحاق بالصليبيين، فخرج مع من خرجوا في سنة ١١٠١م، ولما وصل مملكة بيت المقدس شارك في معركة الرملة مايو سنة ١١٠٢م ضد القوات الفاطمية، وقتل في هذه المعركة. جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص٢١٥، ح١.

- An Encyclopedia, The Crusades, vol. 4, p. 1122-1123.

(٣٢) نيقية عاصمة دولة سلاجقة الروم، وتقع على طرف آسيا الصغرى الغربي، وقريبة من مضيق البسفور الذي يفصلها عن القسطنطينية. ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج ٥، ص٣٣٣.

(٣٣) طرسوس، هي مدينة بثغور الشام، بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم(آسيا الصغرى)، والمسافة قريبة بينها وبين أذنة والمصيصة. ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج٤، ص٣٨-٣٩.

(٣٤) بلدوين البولوني Balbwin of Boulogne هو ابن يوستاس الثاني كونت بولونيا، وليس معلوماً على وجه التحديد تاريخ مولده، والراجح أنه مابين سنتي ١٠٦٩ و١٠٧٠م. شارك مع أخيه جودفري في الحملة الصليبية الأولى. ونجح في تأسي إمارة الرها الصليبية، وحكمها ما بين سنتي ١٠٩٧م- ١١٠٠م. ثم انتقل إلى بيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفري فتوج ملكاً عليها حتى وفاته سنة ١١١٨م.

- An Encyclopedia, The Crusades, vol. 2, p. 132-133.

(٣٥) الرها مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٣، ص١٠٦.

(٣٦) تودبيود، بطرس، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، عربه حسين محمد عطية، الإسكندرية، ١٩٩٨، ص ٧٩، ٨٠، ٢١٤؛ ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، عربه حسين عطية، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ٥٩، ٦٠، ٦٩، ٧٩، ٢٣٩؛ فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ١٠٩٥-١١٢٧م، "الاستيطان الصليبي في فلسطين"، عربه قاسم عبده قاسم، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١، ص١٠٩، ١١٠، ١١١؛ مؤرخ مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، عربه حسن حبشي، القاهرة، ١٩٥٨، ص٢٤-٢٥، ٧٠، ١١١، ١١٥؛ أنا كومنين، ألكسياد، عربه حسن حبشي، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٤٢٢؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، نشره أمدروز، ليدن(أعاد نشره مكتبة المتنبي بالقاهرة بدون تاريخ)، ص١٣٧؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص١٨٩؛ وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ٢٠٥، ٢١٩، ٢٢٠.

- Hagenmeyer, H., Chronologie de la Premiere Croisade, in "Revue de L'Orient Latin", Paris, 1898, VI, p. 514.

(37) Munro, D. C., the Popes and the Crusades, in "American Philosophical Society", vol. 55, No. 5, 1916, pp. 349-350.

(٣٨) فوشيه، المصدر السابق، ص٨٣-٨٥؛ تودبيود، المصدر السابق، ص٦١؛ وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص١٠٤-١٠٥؛ قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، نصوص ووثائق، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٧٨-٨٠، ٨٥-٨٨.

-Ralph of Cean, the Gesta Tancredi, A History of the Normans on the First Cruasde, trans. by Bachrach, B. S. and Bachrach, D. S., Ashgate, 2005, pp. 22, 23; Guibert of Nogent, The Deeds of God through the Franks, trans. By Levine, R.,(without date), Blackmask Online(www.blackmask.com), op. cit., p 30; Albert of Aachen, op. cit., 7-9; Ordric Vitales, op. cit., vol. 2, p. 168; Mattew of Edessa, the Chronicle of Mattew of Edessa, trans. From the original Armenian with a commentary and Introduction by Ara E. Dostourian, London, 1993, p. 164.

(39) Louise and Riley-Smith, J., The Crusades Idea and Reality 1095-1275, London, 1981, p. 38.

(40) Louise and Riley-Smith, J., op. cit., pp. 38-39.

(41) Louise and Riley-Smith, J., op. cit., pp. 39-40.

(42) Guibert of Nogent, op. cit., p. 28; Ordric Vitales, op. cit., vol. 3, p.64; Runciman S., the Decline of the crusading Ideal, in 'the Sewanee Review', vol. 79, No. 4(Autumn 1971), p. 500; Cowdrey, Martyrdom and the First Crusade, in "The Crusades and Latin Monasticism", p. 46.

- ماير، المرجع السابق، ص١٢٧؛ ماستناك، المرجع السابق، ١٢٦.

(٤٣) هنري الرابع إمبراطور ألمانيا Henry IV of Germany خلف والده هنري الثالث في حكم ألمانيا سنة ١٠٥٦م/٤٤٨هـ. واشتعل الصراع بينه وبين البابا جريجوري السابع منذ سنة ١٠٧٥م، وأحرز البابا تفوقاً في بداية صراعهما، وتمثل ذلك في حادثة كانوسا ١٠٧٧م. ثم رجحت كفة الإمبراطور ونجح في فرض سلطانه على روما سنة ١٠٨٤م، مما جعل البابا يفر إلى حلفائه النورمان في صقلية حيث مات هناك سنة ١٠٨٥م. واستمر الصراع بين هنري الرابع وبابوات روما، وجاءت دعوة البابا أوربان الثاني للحملة الصليبية لتدعم موقف البابوية في هذا الصراع. ولعب البابا بسكال الثاني(١٠٩٩-١١١٨م) دوراً خطيراً في تأليب هنري الخامس على والده الإمبراطور، واضطر هنري الرابع إلى التنازل عن العرش لابنه في سنة ١١٠٥م، وما لبث أن توفي في العام التالي. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ط٧، القاهرة، ١٩٧٨، ج١، ص ٣٣٨-٣٥١.

(44) Charanis, P., Aims of the Medieval Crusades and How they were viewed by Byzantium, in 'Church History', vol. 21, No.2(Jun. 1952), p. 125; Cowdrey, The Reform papacy and the Origin of the Crusades, p. 83; Cole, P. J., Chistians, Muslims, and the 'Liberation' of the Holy Land, in 'the Catholic Historical Review', vol. 84, No. 1(Jan. 1998), p. 9; Vicari, G., the Secular Motivations of the First Crusade, Alabama, 2002, pp. 10, 24-25.

(٤٥) فوشيه، المصدر السابق، ص٨٣-٨٥؛ توديبود، المصدر السابق، ص١٦١؛ وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص١٠٤؛ قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، نصوص ووثائق، ص٧٨-٨٠، ٨٥-٨٨.

- Guibert of Nogent, op. cit., p. 30; Albert of Aachen, op. cit.,pp. 7-9.

(46) Munro D. C., The speech of Pope Urban II at Clermont 1095, p. 242; Cowdrey, Pope Urdan II and the Idea of Crusade, in "The Crusades and Latin Monasticism", p. 722-724, 739; Heston,op. cit., p. 116; Tyerman, C.J., Fighting for Christendom, p. 129.

– ماير، المرجع السابق، ص١٤١؛ ربلي سميت، المرجع السابق، ص٢٣؛ بردج، أنتوني، تاريخ الحروب الصليبية، عربه أحمد غسان سباتو ونبيل الجيرودي وراجعه سهيل زكار، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٨٥، ص٣٩.

(47) Brundage, Adhemar of Puy :The Bishop and His Critics, in 'Speculum', vol. 34, No. 2(Apr.1959), pp. 201-202.

(48) Albert of Aachen, op. cit., pp. 67.

– مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص٣٥، ٥٤؛ تودبيود، المصدر السابق، ص ١١١٣؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص٩١.

(٤٩) مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص١٠٠؛ تودبيود، المصدر السابق، ص ١٢٥٧؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص٦٩، ١٥١-١٥٢.

– Hagenmeyer, H., op. cit., p. 309.

(٥٠) مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص٩٢، ١٠٥، ١١٧؛ تودبيود، المصدر السابق، ص٦٣، ٢٢٩، ٢٦١، ٣١٥؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص١١٥؛ فوشيه، المصدر السابق، ص١٠٢؛ أنا كومنين، المصدر السابق، ٣٩٦-٣٩٧.

– Letters of Anselm of Ribemont to Manasses II, Archbishop of Reims,(Feb. 10, 1098), in Dana C. Munro, Letters of the Crusades, Philadelphia, 1896, pp. 3-4.

(٥١) فوشيه، المصدر السابق، ص٧٥، ٧٦، ٩٢؛ تودبيود، المصدر السابق، ص ٦١؛ وليم الصوري، ج١، ص١٠٦.

– Ralph of Caen, op. cit., p. 19.

(52) Anonymi, Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum, ed. Hagenmeyer H., Heidelberg, 1890, p. 271.

(53) Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux, 5 Tomes, Paris, 1844-1895.

(54) Housley, N., Crusades against Christians, in 'Crusade and Settlement', ed. Edbury, Cardiff, 1984, p. 20-21; Jotischky, A. T., the Breath of the Dove: Hermits and Eremitical Monasticism in the Holy Land 1095-1291, Doctor of Philosophy, Faculty of the Graduate School of Yale University, Dec. 1991, p. 74.

(٥٥) مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص١٧، ٥٨.

– Guibert of Nogent, op. cit., pp. 28, 76.

(56) Guibert of Nogent, op. cit., pp. 28.

– مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٥، ٣٣، ٤٤؛ تودبيود، المصدر السابق، ص١١٦، ١٦٥، ٢٦٣؛ فوشيه، المصدر السابق، ص١٨٦؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص٥٤، ١٠٦؛ وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص٢٢٦، ٢٩٤.

(٥٧) مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص٢٦، ٣١، ٣٣؛ تودبيود، المصدر السابق، ص٢٥٥، ٢٦٣؛ فوشيه، المصدر السابق، ص١٨٦؛ وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص٣٩٦.

-Guibert of Nogent, op. cit., pp. 28; Albert of Aachen, op. cit.,pp. 13, 32; Ralph of Cean, op. cit.,p. 19; Ekkehard of Aura, Hierosolymita, Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux, Paris, 1895, Tome 5, pp. 32-33.

(٥٨) مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص١٨، ٢٥؛ تودبيود، المصدر السابق، ص٦١-٦٢، ٧٦؛ فوشيه، المصدر السابق، ص١٨٦؛ وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص١٠٨-١٠٩.

- Guibert of Nogent, op. cit., pp. 30.

(٥٩) مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص٣٣، ٥٢؛ تودبيود، المصدر السابق، ص١١٠، ١٦٥.

- Anonymous Syriac Chronicle, Trans. to English by A.S. Tritton, in 'Journal of The Royal Asiatic Society' No. 1, London, (Jan. 1933). p. 72.

(60) Guibert of Nogent, op. cit., pp. 28, 30.

– مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص٢٥، ٦٩؛ تودبيود، المصدر السابق، ص ٧٦؛ وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص١٠٨-١٠٩.

(61) Albert of Aachen, op. cit.,pp. 67.

– مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص١٧، ١٨؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص٥٤؛ وليم الصوري، ج١، ص١٠٨.

(٦٢) مؤرخ مجهول، المصدر السابق ص ٢٤، ٤٠، ٦١، ١١٠؛ تودبيود، المصدر السابق، ص١١٠، ١٦٥، ٢٣١، ٣١٤؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص١٠٤، ١٨٤، ١٩٩.

- Anonymous Syriac Chronicle, p. 72.

(٦٣) مؤرخ مجهول، المصدر السابق ص٤١، ٥٢، ٥٩، ٦٢، ٩٤؛ تودبيود، المصدر السابق، ص٧٦، ٧٩، ١١٤، ١١٦، ١٣٥، ١٤٢، ١٦٥، ١٦٦، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٥٦، ٣١٤؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص٥٤، ٥٩، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٩، ١٢٢، ١٤٦، ١٦٤، ١٨٥، ١٨٦، ٢٣٩، ٢٤٦؛ فوشيه، المصدر السابق، ص١٠٢.

- Albert of Aachen, op. cit.,pp. 67; Anonymous Syriac Chronicle, p. 72.

(٦٤) فوشيه، المصدر السابق، ص١٣٨-١٣٩.

(65) Throop, P. A., Criticism of papal Crusade policy in Old French and Provencal, in 'Speculum', vol. 13, No. 4(Oct. 1938), p. 379.

(٦٦) ريموند أجيل، المصدر السابق، ص٨٩، ٩١، ١٢٢، ١٨٦؛ توديبود، المصدر السابق، ص٢٦٠.

(٦٧) مؤرخ مجهول، المصدر السابق ص٨٠-١٨٢؛ توديبود، المصدر السابق، ص٢٠٥-٢٠٧، ٢٠٨، ٢٢٧، ٢٦٠-٢٦١؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص١٢٧-١٣٢، ١٣٣-١٣٤، ١٤٢-١٤٣، ١٥٢-١٥٥، ١٥٦-١٥٨، ١٦٦-١٦٨، ١٩٧-٢٠٠، ٢٠١-٢٠٢، ٢٠٢-٢٠٧، ٢١٨-٢١٩، ٢٢١-٢٢٤، ٢٤١؛ فوشيه، المصدر السابق، ص١١٧-١١٨.

(68) Cowdrey, Martyrdom and the First Crusade, p. 46-47; Shepkaru, S., To Die for God: Martyrs' Heaven in Hebrew and Latin Crusade Narratives, in 'Speculum' vol. 77, No. 2(Apr. 2002), pp. 312, 315, 317.

(٦٩) مؤرخ مجهول، المصدر السابق ص٢١، ٣٧، ٦١؛ توديبود، المصدر السابق، ص١١١، ١٦٩-١٧٠، ٢٥٦؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص١٨٦-١٨٧.

- Guibert of Nogent, op. cit., pp. 33, 55, 76.

(70) Cowdrey, Martyrdom and the First Crusade, pp. 50-51, 52, 53.

(71) Duncalf, F., The Peasants' Crusade, p. 452; Porges, op. cit., p. 3.

(٧٢) مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص١٧، ١٠٠؛ توديبود، المصدر السابق، ص٢٥٧.

- Letter of Anselm of Ribemont to Manasses II, Archbishop of Reims, (Feb. 10, 1098), in Krey, The First Crusades, p.158.

(٧٤) فوشيه، المصدر السابق، ص١٠٣.

(74) Tyerman, Were there Any Crusades in the Twelfth century? PP. 554-555; Cole, op. cit., p. 4.

(٧٥) قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيدولوجية، ص١٢٠.

(76) Albert of Aachen, op. cit.,pp. 51.

- وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص١٣٥.

- Kedar, B. Z., Crusade Historians and the Massacres of 1096, 'Jewish History', vol. 12, No.2(Fall 1998), pp. 23-24; Vicari, G., op.

cit., p. 21; Jaspert, N., op. cit., p. 40; Maikiel, D., the Underclass in the First Crusade: A Historiographical trend, in 'Journal of Medieval History', 28, 2008, p. 190, 193.

(77) Albert of Aachen, op. cit.,pp. 15-16.

(٧٨) توديبود، المصدر السابق، ص٧٧، ٧٩؛ فوشيه، المصدر السابق، ص١٢٦.

(٧٩) فوشيه، المصدر السابق، ص٧٥-٧٦؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص٥٤.

- Albert of Aachen, op. cit., pp. 3; Ralph of Cean, op. cit.,p. 20.

(80) Ralph of Cean, op. cit., p. 53.

(81) Erdmann, op. cit., pp. 269-270.

- براور، يوشع، عالم الصليبيين، عربه قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٩، ص٣٥-٣٦.

(٨٢) توديبود، المصدر السابق، ص٢٢٥-٢٢٧.

- Ralph of Cean, op. cit.,pp. 30-31; Albert of Aachen, op. cit., pp. 29-30; Hill, J. H., Raymond of Saint Gilles in Urban's Plan of Greek and Latin Friendship, Speculum, vol. 26, No. 2(Apr. 1951), op. cit., p. 265; Brundage, J.A , An Errant Crusader: Stephen of Blois, 'Traditio', vol. 16, 1960, p. 380.

(83) Ralph of Cean, op. cit., p. 31; Albert of Aachen, op. cit., pp. 87.

- مؤرخ مجهول، المصدر السابق ص٢٢، ٢٤، ٥٦؛ توديبود، المصدر السابق، ص٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ١١١، ١٤٠؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص٨٨، ٢١٧؛ وليم الصوري، ج١، ص١٥٥، ١٥٧، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٩١، ٢٩٩.

(٨٤) مؤرخ مجهول، المصدر السابق ص٤٢، ٥٢، ٥٣، ٦١، ٦٢، ٧٣، ٩٠، ١٠١، ١٢٠؛ توديبود، المصدر السابق، ص١١٢، ١١٣، ١١٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٦٥، ١٦٧، ٢٢٤، ٢٥٦؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص٨٧، ٩٠، ١٢٠.

- Albert of Aachen, op. cit., pp. 45.

(٨٥) توديبود، المصدر السابق، ص١١٠-١١١.

(86) Ralph of Cean, op. cit., p. 59.

(٨٧) مؤرخ مجهول، المصدر ص٥٨، ٦٣؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص١٦٤.

- Ralph of Cean, op. cit., pp. 76-77.

(٨٨) ريموند أجيل، المصدر السابق، ص١٠٩.

(٨٩) توديبود، المصدر السابق، ص٢٥٧، ٢٦٢.

- Hagenmeyer, H., op. cit., pp. 316, 329.

- والبارة بلد صغير من نواحي حلب، وبها حصن، وهي ذات بساتين، ويسمونها زاوية البارة. ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج١، ص٣٢٠.

- ومعرة النعمان مدينة كبيرة وقديمة من أعمال حمص، تقع بين حلب وحماة. ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج٥، ص١٥٦.

(90) Ralph of Cean, op. cit., pp. 143-146.

- مؤرخ مجهول، المصدر السابق ص١١٨-١٢٠؛ تودبود، المصدر السابق، ص٣١٤ وما بعدها؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص٢٤٧ وما بعدها؛ فوشيه، المصدر السابق، ص١٣٧؛ وليم الصوري، ج٢، ص١٢٥-١٢٧.

(٩١) فوشيه، المصدر السابق، ص٩٣.

(٩٢) مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص١٥٥؛ تودبود، المصدر السابق، ص ١٣٩؛ وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص٢٩٩.

- Hagenmeyer, H., op. cit., p. ٢٢٩.

(93) Guibert of Nogent, op. cit., pp. 34.

- مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص٨٦؛ تودبود، المصدر السابق، ص ٢٢٥؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص١٤١، وليم الصوري، ج١، ص٣٣١.

(94) Guibert of Nogent, op. cit., pp. 64; Albert of Aachen, op. cit.,pp. 305-307; Ordric Vitales, op. cit., vol. 3, pp. 249-250.

- مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص٨٦-٨٨؛ تودبود، المصدر السابق، ص ٢٢٥-٢٢٧؛ وليم الصوري، ج١، ص٣٣١-٣٣٢.

(٩٥) مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص٨٦؛ تودبود، المصدر السابق، ص ٢٢٥-٢٢٧؛ ريموند أجيل، المصدر السابق، ص١٤١-١٤٢؛ فوشيه، المصدر السابق، ص١١٣.

- Guibert of Nogent, op. cit., pp. 64; Albert of Aachen, op. cit.,pp. 305-307; Ordric Vitales, op. cit., vol. 3, pp. 249-250.

(96) Letters of Stephen of Blois To his Wife Adele, in Krey, A. C., The First Crusade, The Accounts of Eye-Writnesses and Participants, London, 1921, pp. 108-109, 131-132.

(97) - Brundage, J.A , An Errant Crusader: Stephen of Blois, pp. 380, 394-395.

- LoPrete, K. A., the Anglo- Norman Card of Adela of Blois, in "Albion: A Quarterly Journal Concerned with British Studies", vol. 22, No. 4(Winter 1990), p. 578.

(٩٨) ريموند أجيل، المصدر السابق، ص٦١، ٦٩، ٧١-٧٢؛ تودبيود، المصدر السابق، ص ٨١؛ وليم الصوري، ج١، ص١٨٦.

(99) Hill, J. H., op. cit., pp. 265, 272.

(100) Munro, D. C., A Crusader, Speculum, vol. 7, No. 3(Jul. 1932), p. 323.

(101) Albert of Aachen, op. cit., p. 307.

(١٠٢) آنا كومنين، المصدر السابق، ص ٣٩٠.

(١٠٣) وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص١٠٧.

- Riley-Smith, J., the Motives of the Earliest Crusaders and the settlement of Latin Palestine, 1095-1100, in 'the English Historical Review', vol. 98, No. 389(Oct. 1983), pp. 721, 722, 734; Burr, G. L., op.cit., p. 439.

- ماير، هـ. إ.، المرجع السابق، ص ٦٢.

رؤية المغاربة لنصارى الأندلس في ظل حروب الاسترداد واحتلال الثغور المغربية

د. داليا عبد الهادي طلبة
باحثة حاصلة على درجة الدكتوراه

إن رؤيتنا للآخر تحددها عدة أمور منها: معتقداتنا وثقافتنا وعلاقاتنا به والمصالح المشتركة والمواقف المتبادلة. وهذا البحث يتناول رؤية المغاربة فى المغرب الأقصى لنصارى الأندلس، في ظل حروب الاسترداد التي أشعلتها الدول المسيحية في الأندلس، محاولة التوسع على حساب الدول الإسلامية والاستيلاء على أراضيها، مستغلة الضعف الذي حل بالمسلمين في الأندلس، وهو ما أطلق عليه حروب الاسترداد. وقد ألقت هذه الحرب بظلالها على المغرب، قبل أن ينتقل الصراع إلى أراضيه، ويسقط عدد من الثغور المغربية في يد نصارى الأندلس .

حروب الاسترداد واحتلال الثغور:

في أعقاب الفتح الإسلامى للأندلس، تجمعت القوى النصرانية في الشمال مكونة المملكة النصرانية، التي سرعان ما استطاعت توسيع حدودها جنوباً، كما قام بعد ذلك عدد من الدويلات النصرانية الأخرى بالأندلس، واستمرت تلك القوى النصرانية تستغل الفرصة للتوسع على حساب الدولة الإسلامية، التي كانت حائلاً أمام طموحاتها بسبب قوتها، حتى حل الضعف بالأندلس وتفكك إلى طوائف، فكان الخطر الحقيقي بسقوط طُلَيْطِلَة[1] عام (٤٧٨هـ/١٠٨٥م)؛ والذي أصبح البداية الحقيقة لحروب الاسترداد النصرانية، ثم تبعها سقوط عدد من الثغور. وعندما وطدت دولة الموحدين سلطانها في الأندلس توقفت حروب الاسترداد لفترة، عادت بعدها إثر ضعف الموحدين وغياب قوة إسلامية ترد تلك الهجمات . ولم يكد يحل منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر

الميلادي، حتى سقطت ولايات الأندلس الشرقية والغربية في يد أسبانيا النصرانية[ii]، وانتهى الأمر بسقوط غرناطة آخر قلاع المسلمين في الأندلس عام (٨٩٧هـ/١٤٩٢م)، ونتج عن ذلك عدة مشاكل تتعلق بوضع أهل الأندلس الذين سقطت بلادهم، فهناك من فضل البقاء في دياره برغم ضياع الحكم الإسلامي، ومنهم من لجأ إلى بلاد المغرب[iii] . وقد واجه أولئك وهؤلاء العديد من المشاكل والصعوبات، فمن بقي بالأندلس تعرض للاضطهاد والحرمان من ممارسة شعائره الدينية، والتنصير القسري برغم ما أشيع عن حرية العقيدة في الاتفاقيات المبرمة مع نصارى الأندلس[iv]، إضافة إلى ما اتخذ ضدهم من إجراءات مختلفة، شأنها التضييق عليهم، فقد حرم المسلمون منذ عام (٨١١هـ/ ١٤٠٦م) من العمل في خدمة الدولة، وذلك في المناطق التي استولى عليها النصارى. كما منعوا من السفر والتنقل، إلا أذا كان مع أحد من نصارى الأندلس، وفرض عليهم اخذ تراخيص مسبقة حتى يسمح لهم بالتجارة والبيع والشراء، وإلا صودرت أموالهم، كذلك خُيِّر أعداد من المسلمين بين التنصر أو بيع أملاكهم والهجرة[v].

وقد توسعت القوى النصرانية، وظهرت البرتغال كقوة بحرية مسيطرة على غربي البحر المتوسط، تعمل على استكمال حركة الاسترداد المسيحي[vi]، التي بدأت في الأندلس. ثم انتقلت القوى النصرانية بإطماعها نحو بلاد المغرب، باعتباره أقرب نقطة جغرافية لأوربا، ولما يمتلكه من سواحل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي[vii]، مستغلة عدم وجود قوة بحرية مغربية، وضعف السلطة المركزية في فاس وظهور كيانات سياسية متعددة[viii]؛ فاستولت على سبته (٨١٨هـ/ ١٤١٥م)[ix] لينتقل الصراع إلى الأراضي المغربية، وتبدأ مرحلة الاستعمار الأوربي للمغرب[x]، ثم احتل البرتغاليون القصر الصغير[xi] عام (٨٦٣هـ/١٤٥٩م) وانزلوا بأهلها مذبحة رهيبة[xii]، كذلك احتلوا أنفا (٨٧٤هـ/١٤٦٩م)[xiii]، وأصيلا (٨٧٦هـ/١٤٧١م)[xiv] واستولوا على طنجة في نفس العام، كما استولى البرتغاليون على الأرض التي بين آزمور[xv] وتيط[xvi] وبنوا بها حصن البريجة.

ولم تكن أراضي المغرب الأقصى بعيدة عن أطماع الأسبان الذين هاجموا مدينة تطوان[xvii] عام (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) وخربوها، وقتلوا أكثر من نصف أهلها وتركها الباقون، وظلت المدينة خربة لمدة تسعين عاماً[xviii]، واحتلوا مليلة عام٩٠٢هـ/١٤٩٦م)[xix].

وانعكست كل هذه الأمور على المغاربة الذين كانوا يتعاملون مع نصارى الأندلس وباقي الأوربيين بتسامح، وكانوا يرتبطون معهم بعلاقات تجارية وتعاون في كثير من المجالات، حتى قامت تلك الحروب فتغيرت نظرة المغاربة لنصارى الأندلس دون باقي الأوربيين، وأصبحت هناك نظرة عدائية تجاههم، باعتبارهم معتدين على أراضيهم، وقد تمثلت هذه النظرة في ثلاثة مواقف مختلفة الأول: وهو موقف الدولة الرسمي، والموقف الثاني: موقف الفقهاء، ثم الموقف الشعبي.

موقف الدولة الرسمي:

تنوع موقف الدولة الرسمي – والذي تحكمه مجريات الأمور والتوازنات السياسية– بين الحرب وإعلان الجهاد والسلم وعقد المعاهدات، وذلك يتضح في موقف الدولة الموحدية التي قامت بالجهاد في الأندلس، وكان لها دور كبير في وقف حروب الاسترداد المسيحي طوال مدة قوتها، حيث خاضت الكثير من المعارك في الميدان الأندلسي، وكان من أهمها معركة الأرك(٥٩١هـ/١١٩٥م)[xx] ، وظلت متحملة عبء الجهاد حتى كانت هزيمة العقاب(٦٠٩هـ/١٢١٢م)[xxi] التي كانت من أسباب ضعف الدولة وسقوطها.

ومع ذلك، أقام الموحدون علاقات مع نصارى الأندلس، وعقدوا معهم معاهدات صلح، منها الهدنة مع البرتغال وقشتالة وليون عام(٥٦٨هـ/١١٧٣م)، والتي اشترط فيه الموحدون حفظ ثغور المسلمين من اعتداء الدول الثلاثة[xxii]، وكان الهدف من تلك الهدنة تفرغ الموحدين لمعالجة الأحوال الأمنية في إفريقية[xxiii]، كما عقدوا معاهدة

أخرى بعد معركة الأرك سنة(٥٩٣هـ/١١٦٩م) ، ثم جددت بعد ذلك عام (٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م)[xxiv]، كما عقد معهم الموحدون صلحاً أخر(٦٣٢هـ)[xxv].

ثم جاء المرينيون (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) الذين حرصوا على استكمال الجهاد في الأندلس، باعتبارهم ورثة الموحدين، وعليهم استرداد ما ضاع من أراضي المسلمين وحماية ما تبقى من أراضٍ تحت حكم بني الأحمر، ولذلك كانت نظرتهم لنصارى الأندلس عدائية، لكن ذلك لم يمنع من وجود علاقات وفترات من السلم عقدت خلالها المعاهدات .

فقد بدأ المرينيون جهادهم في الأندلس (عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م) بإرسال السلطان أبي يوسف يعقوب (٦٦٨-٦٨٥هـ /١٢٦٩-١٢٨٦م) حملة استطلاعية عادت منتصرة[xxvi]، ثم تبعها بأربع حملات على الأندلس، تولى قيادتها بنفسه، أحرز فيها النصر على نصارى الأندلس، وتمكن من تحطيم الأسطول القشتالي[xxvii]. وقد تابع خلفاء السلطان أبي يعقوب حملاتهم ضد نصارى الأندلس، وقد أحرزوا النصر في أغلب هذه الحملات، وعلى سبيل المثال: استطاع السلطان أبو الحسن المريني(٧٣١-٧٥٢هـ /١٣٣١-١٣٥١ م) استرداد جبل الفتح (جبل طارق) من يد نصارى الأندلس عام (٧٣٣هـ/١٣٣٢م)[xxviii] ، لكنه فقد هزيمة قاسية في موقعة طريف[xxix] عام (٧٤١هـ/١٣٤٠م)[xxx].

كما يشير ابن الحاج النميري إلى موقعة بين السلطان أبي عنان المريني (٧٥٢-٧٥٩هـ/ ١٣٥١-١٣٥٨م) والبرتغاليين، وهي معركة لاقش[xxxi] التي انتصر فيها المرينيون[xxxii].

أما على الجانب الآخر؛ فقد كان هناك فترات من السلم فرضتها الظروف السياسية والعسكرية، عقدت خلالها المعاهدات والاتفاقيات، وغالباً ما ضمت تلك المعاهدات بني الأحمر، ومن تلك المعاهدات: المعاهدة التي أبرمت عام (٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م) بين كل من بني مرين وبني الأحمر من جانب، وقشتالة وأراجون من جانب آخر[xxxiii]، واتفاقية السلام التي عقدت بين المغرب وأراجون عام (٧٥١هـ/١٣٢٠م) لمدة أربعة عشر

شهر[xxxiv]، والمعاهدة التي أبرمت عام (٧٥١هـ/١٣٥٠م) في عهد أبي عنان المريني مع أراجون[xxxv]، ثم المعاهدة التي عقدت بين بني مرين وقشتالة وأراجون عام (٨١٦هـ/١٤١٣م) ثم جددت عامين آخرين[xxxvi].

كما كان هناك العديد من المرسلات والسفارات بين المغاربة ونصارى الأندلس[xxxvii] هدفها حاجة الجانبين إلى تأمين رعاياهم وتحديد شروط التعامل التجاري الذي لم يتوقف[xxxviii].

وعندما قامت دولة بني وطاس (٨٧٥ ـ٩٦٠هـ/١٤٧٠ـ١٥٥٣م) لم تستطع أن تحكم سيطرتها على بلاد المغرب الأقصى، كما كانت الدولة المرينية، فلم تكن لها تلك الكثرة العددية التي كانت للمرينيين، لذلك كانت قوتهم محدودة[xxxix]، وقد بذل حكامها بعض الجهود من أجل صد العدوان واسترداد المدن المحتلة؛ لكنهم فشلوا في صد الهجوم البرتغالي، لما كانت الدولة تعانيه من تفكك وصراعات داخلية[xl]، حيث حاول السلطان محمد الشيخ (٨٦٣ ـ٨٧٥هـ/ ٤٥٨ ـ ١٤٧٠م) استرداد مدينة سبته عام (٨٨١هـ/ ١٤٧٦م) ولكنه لم ينجح، كما واجه البرتغاليين أسفل وادي اللكوس[xli] عام (٨٩٥هـ/١٤٨٩م)، واستطاع أن يجبرهم على الانسحاب من هذه المنطقة[xlii]؛ إلا أنه في النهاية لم يستطع صد البرتغاليين الذين واصلوا احتلال الأراضي المغربية، فاستولوا على الغرائش[xliii] وحصن أكادير[xliv]، وما اتصل بها من سواحل عام (٩١٠هـ/١٥٠٥م)[xlv]، ثم أسفي[xlvi]. ولم يقم الوطاسيون فيما بعد بجهود تذكر حيال الاحتلال البرتغالي.

وكانت الظروف سبباً في جعل الوطاسيين يعقدون معاهدة عام (٨٧٦هـ/ ١٤٧١م) عقب استيلاء البرتغاليين على أصيلا [xlvii]، كما عقدوا معاهدة أخرى مع البرتغاليين أيضاً عام (٩٤٤هـ/١٥٣٨م) نصت على هدنة أخرى لمدة عشر سنوات[xlviii].

ومن الجدير بالذكر أن الدولة المغربية ـــــــــــــ على اختلاف حكامها ـــ فرقت بين نصارى الأندلس: الدولة والرعية، فينما كانت نظرتها للدولة عدائية، فتحت

أبوابها للرعايا من نصارى الأندلس، واستخدمت كثيرا منهم كمرتزقة في جيشها، ففي عهد الخليفة الموحدى أبي يعقوب (٥٥٨ـ٥٨٠هـ/ ١١٦٣ـ١١٨٤م) عمل الفارس البرتغالي جيرالدو سمبافور(Giraldo Sampavor)، والذي عُرف في المصادر العربية باسم جرالده الجليقي، مع جماعته في خدمة الموحدين[xlix] ، كما تعهد الخليفة المأمون (٦٢٤ـ٦٢٩هـ/١٢٢٧ـ١٢٣٢م) ببناء كنيسة للنصارى قشتالة بمراكش ليمارسوا فيها شعائرهم بحرية[l].

واستمر استعمال نصارى الأندلس كمرتزقة في العصر المريني، ومثال ذلك: لجوء القائد القشتالي قزمان(Guzmn) مع خمسين من أصدقائه، بعد أن توترت علاقته مع ملك بلاده، إلى السلطان المريني أبي يوسف (٦٥٦ـ٦٨٥هـ/ ١٢٥٨ـ١٢٨٦م)، الذي استعمله في جيشه[li]، كما أوكل له مهمة جمع الضرائب[lii]. كما وجد من نصارى قشتالة من يعمل ضمن الجيش المريني عام (٦٤٦هـ/١٢٤٨)[liii] ، كما ساهم المرتزقة القشتاليين في حرب السلطان أبي الربيع (٧٠٨ـ٧١٠هـ/١٣٠٨ـ١٣١٠م) لاستعادة سبتة عام (٧٠٣هـ/١٣٠٩م) بعد استيلاء بني الأحمر عليها[liv].

وقد تمتع نصارى الأندلس المقيمين في المغرب بالحرية الدينية، وسمح لمن عمل منهم كمرتزقة في الجيش المريني بإحضار زوجاتهم ، وأنزلوا في حي خاص بهم بجوار فاس الجديد[lv].

موقف الفقهاء

كانت نظرة الفقهاء للنصارى الأندلس انعكساً لموقفهم من المسلمين، وما يتعرضون له من اعتداءات عليهم وعلى أراضيهم، وعدم احترامهم للكثير من العهود التي بذلوها، لذلك كان موقف الفقهاء من نصارى الأندلس يدور في إطار العلاقة بين دار الحرب ودار الإسلام[lvi]، وهو ما جعله يتدرج بين الإباحة والتحريم، ووضع ضوابط شرعية للتعامل نصارى الأندلس باعتبارهم دار حرب، فهناك من الفقهاء من رأى أن محاربة نصارى الأندلس، والجهاد في سبيل الدفاع عن أراضي المسلمين، فرض عين

واجب على كل مسلم في الأندلس، وبعض مناطق المغرب، لأن "العدو طالب للمسلمين في تلك المناطق"[lvii].

كذلك كان للفقهاء رأى حول مشروعية عقد معاهدات صلح معهم، فرأى فريق من الفقهاء أن عقد المعاهدات والصلح يكون وفق المصلحة العامة التي يراها الحاكم، ولكنهم حددوا ذلك بشروط منها: أن يكون التفوق للمسلمين عند عقد الصلح ، وألا تطول مدته حتى لا يعطى الفرصة لهم للاستعداد الحرب وتجهيز الجيوش[lviii].

بينما رأى فريق أخر من الفقهاء عدم جواز انعقاد الصلح بينهم، بأي حال من الأحوال، لما يمثلونه من خطر وتهديد، بل واحتلال لأراضي المسلمين، ورأى هذا الفريق أن الصلح معهم يتيح لهم فرصة للاستعداد والتسلح[lix]. لذلك أفتى أحد الفقهاء بعدم مشروعية المعاهدة التي عقدها الوطاسيون مع البرتغاليين عام (٨٧٦هـ/١٤٧١م) عقب استيلائهم على أصيلا، ورأى أنه من الواجب نقض تلك المعاهدة، لأنها غير منعقدة بحكم الشرع ، لأن "وقوع ذلك الصلح عقب الداهية الدهيا وهي انتهاز العدو دمره الله الفرصة في بلاد المغرب مع توفر الإسلام والعدو أهلكه الله ليس له فيها مرد "[lx] يوجب الجهاد، كما أنه دحض جميع الأسباب التي يمكن من أجلها أن يعقد الصلح مثل قلة عدد المسلمين أو الخوف من بأس العدو[lxi].

كذلك هناك موقف للفقهاء من التعامل التجاري مع نصارى الأندلس، فرأوا عدم جواز التعامل معهم باعتبارهم دار حرب[lxii]، وأجازوا ذلك في فترات السلم وانعقاد الصلح والمعاهدات، ولكنهم اشترطوا أن تكون البضائع المتعامل فيها لا تفيد في الحرب، كالسلاح والخيول والحديد والنحاس وملابس الحرب، وأباحوا التعامل في البضائع الأخرى[lxiii].

وقد أتخذ الفقهاء موقفاً من إقامة المسلمين في البلاد التي احتلها نصارى الأندلس، حيث حرموا الإقامة في تلك البلاد، وتعد فتوى الونشريسي "أسنى المتاجر فيما غلب النصارى على وطنه ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر" التي

أصدرها عام (٨٩٦هـ /١٤٩١م) أي قبل سقوط غرناطة عام (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م) من أشهر النماذج على موقف الفقهاء من إقامة المسلمين في البلاد التي احتلها نصارى الأندلس، والتي أفتى فيها بتحريم الإقامة في بلاد الكفر، كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق، وأن من استسهل هذه الإقامة " مارق من الدين ومفارق لجماعة المسلمين"[lxiv]، إلا أنه أعطى العذر للضعفاء الذين لا يستطيعون الهجرة، وذلك لقوله تعالى﴿ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُورًا ﴾[lxv]. كما حذر الونشريسي من المخاطر التي قد يتعرض لها المسلمون من اعتداء على النفس والعرض والمال، وتعرضهم للفتنة في دينهم بشتى الطرق، والتي قد يرضخ لها البعض، إضافة إلى إثقالهم بالمغارم والضرائب المجحفة التي قد تؤدى إلى ضياع أموالهم، وما سيتعرضون له من مشاهدة المنكرات بشكل دائم[lxvi]. وقد عكست هذه الفتوى موقف الفقهاء من نصارى الأندلس، وعدم وثوقهم بمعاهداتهم ومواثيقهم.

الموقف الشعبي:

تغيرت رؤية المجتمع المغربي لنصارى الأندلس، فبعد أن كان هناك تعاملات وعلاقات بين المغاربة ونصارى الأندلس، أصبح هناك نوعاً من رفض للتعامل معهم،ولقد رصدت كتب النوازل ذلك الرفض من خلال بعض القضايا، منها تلك القضية التي توضح رفض المجتمع المغربي للصلح الذي عقده الوطاسيون مع البرتغاليين، والذي سبقت الإشارة إليه ــ وكان من بنوده عقد هدنة بين الطرفين لمدة عشرين عاماً، على أن يبقى البرتغاليون آمنون فيما احتلوه من سبتة، والقصر الصغير وأصيلا وما حولها، وأن يؤدى أهالي تلك المناطق الجزية لملك البرتغال، وأن يلزموا السكينة، ولا يقوموا بأي عمل عدائي ضد البرتغاليين، ولا يشاركوا بالرأي أو المشورة من أراد من المسلمين الإغارة عليهم[lxvii]. الأمر الذي أغضب الأهالي، وأثار جدلاً واسعاً بين الناس ودفعهم للتساؤل حول هذا الصلح في وقت الحرب، وقد عبروا عنه في سؤالهم: "عما

عمت به البلوى في بلدنا وعظم من أجله الخطب واتسعت بت المقالات"[lxviii]. كذلك عبر المغاربة عن رفضهم لما تقيمه باقي الدول الإسلامية من علاقات مع نصارى الأندلس، وقد ورد ذلك من خلال أحد القضايا الذي يستنكر فيها صاحب السؤال عقد دولة إسلامية صلحاً مع دولة تحاربها دولة إسلامية أخرى، وأشار السائل إلى معاهدة أهل مصر والشام لنصارى الأندلس، بينما يحاربهم أهل إفريقية والأندلس. فأجابه الفقيه بأن هذا الحديث ينطبق عندما يكون أمر المسلمين في يد إمام واحد وأمرهم واحد[lxix].

ولم يقف الأمر عند رفض المجتمع المغربي لإقامة علاقات مع نصارى الأندلس والتعامل معهم؛ بل وصل الأمر إلى نوع من إضعاف العدو النصراني اقتصاديًا، بمنع شراء سلع نصارى الأندلس، وقد امتد ذلك إلى السلع المفيدة للمسلمين والتي لا تنتج في بلاد المغرب، أو أن إنتاجها لا يكفي الاحتياجات مثل الورق[lxx]. وقد أثيرت أكثر من قضية، في المغرب عامة والمغرب الأقصى خاصة، حول استخدام الورق الآتي من بلاد النصارى، والذي أطلق عيه الورق الرومي، وكان استخدامه شائعاً في بلاد المغرب من مدينة طرابلس حتى تلمسان[lxxi] .

ومن تلك القضايا التي أوردها الونشريسي في معياره، ما سئل فيها الفقيه ابن مرزوق(ت ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م)[lxxii] عن ذلك الورق، وهل تجوز الكتابة عليه بحجة عدم طهارته، لأنه صنع في بلاد النصارى، مما جعله يكتب فتواه المعروفة باسم تقرير الدليل الواضح المعلوم عن جواز النسخ في كاغد الروم"، والمؤرخة بعام (٨١٢هـ/ ١٤٠٩م)، والتي ساق فيها ابن مرزوق الأدلة على استخدام الورق الرومي منذ عصور طويلة، فيذكر انه "ليس النسخ في هذا الورق مختصاً بهذا العصر أو وبما قبله بقليل، بل رأينا كتباً قديمة من كتب العلم منسوخة في الورق الرومي فيما يغلب الظن"[lxxiii]، ثم انتقل ليؤكد كلامه فيما أبعد من المغرب، حيث ذكر ابن مرزوق أن القرآن الكريم قد كتب على الورق الرومي[lxxiv]. كذلك ساق ما يدل على عدم اجتناب ورق الروم "بما ثبت في الأحاديث والسير وكتب الفقهاء؛ من أن الكفار كان يكاتبون النبي صلى الله عليه وسلم،

والصحابة رضي الله عنهم بعده والتابعين بعدهم، إلى زماننا هذا"[lxxv]. ويبدو أن هذه القضية لم تنته عند هذا الحد، فهناك نازلة أخرى وردت من مكناسة الزيتون إلى الفقيه ابن مرزوق حول نفس الموضوع، مما دفعه إلى كتابة مجموع اسماه " المنوعي إلى القول بطهارة الورق الرومي"[lxxvi]. وبالرغم من تلك المعارضة من جانب الكثيرين، على المستوى الشعبي، تجاه التعامل مع نصارى الأندلس، فإن التبادل التجاري لم يقف بين الجانبين[lxxvii].

وهناك من المغاربة من تعدى حالة الرفض، وأسهم بماله في سبيل الجهاد ضد نصارى الأندلس وفداء الأسرى[lxxviii] وتحصين الثغور والقلاع[lxxix]، فأوقفوا الأموال والأراضي والعقارات من فنادق وحوانيت واصطبلات[lxxx]. وهناك من شارك بأشياء يسيرة حسب قدرته، فنجد من وقف ربع أرض صغيرة، أو حبس فرسه لاستخدامه في الجهاد[lxxxi].

كما كان هناك من شارك من المغاربة في الجهاد ضد نصارى الأندلس،حيث تشكلت مجموعات قامت بالإغارة على السواحل الأندلسية المحتلة[lxxxii]. كذلك كان هناك من يقوم بالجهاد في الأراضي المغربية لتحرير الثغور المحتلة، وخاصة بعد ضعف الدولة وعجزها عن الدفاع عنها[lxxxiii]. وهناك بعض من شيوخ القبائل الذين فشلوا في الدفاع عن أراضيهم، ولم يتلقوا الدعم الكافي من السلطات المغربية، فاضطروا لقبول المحتلين من نصارى الأندلس والتعاون معهم، مثل شيوخ هنتاتة وأزمور[lxxxiv].

وعلى الجانب الآخر كانت فئة أخرى من المجتمع المغربي تحكمها المصالح وهي فئة التجار الذين لم يجدوا مانعاً من التعامل مع نصارى الأندلس، خاصة وأن هناك جانباً من المعاهدات والاتفاقيات، التي عقدت بين المغرب ونصارى الأندلس، كان يخص العلاقات التجارية[lxxxv]، كما تعامل بعض التجار مع المحتلين على الأراضي المغربية، وعملوا كوكلاء تجاريين لهم في المغرب وغرب أفريقيا[lxxxvi].

خاتمـــة:

مما سبق يتضح أن رؤية المغاربة لنصارى الأندلس تغيـرت منـذ قيـام حـروب الاسترداد، واحتلال الثغور المغربية، فأصبحت العلاقة بين الطرفين تـدور فـي إطـار العلاقة بين دار الحرب ودار الإسلام، فعلى المستوى الرسـمي: كانـت رؤيـة الدولـة لنصارى الأندلس عدائية، فهم المعتدون على ديار الإسلام، ويسعون للتوسع على حساب أراضيهم، ولكن حكمت العلاقة الظروف والتوازنات السياسية، لذلك تنوعت العلاقة بـين الحرب، وإعلان الجهاد، والسلم، وعقد المعاهدات .

أما بالنسبة للفقهاء، فكان موقفهم معتمدا على الاعتبارات الدينية، لـذلك نظـروا لهم على أنهم دار الحرب المعتدون على ديار المسلمين، وكان لهم مواقف تنوعت بـين إباحة التعامل معهم وتحريمه، وشملت مواقفهم قـضايا الجهـاد والـصلح، والتجـارة والإقامة في بلادهم. ثم كان الموقف الشعبي الذي شمل فئات المجتمع، فكان هنـاك رأى عام رافض لنصارى الأندلس، واتخذت بعض الفئات مواقف إيجابية تمثلت في المقاطعة الاقتصادية، والمساهمة بالمال في الجهاد، والجهاد نفسه، بينما كانت هناك فئات أخـرى عجزت عن المقاومة، واضطرت للخضوع والمهادنة، وفي المقابل كان هنـاك أصـحاب المصالح، وهم التجار الذين لم يجدوا مانعا من التعامل معهم.

وخلاصة القول: كان للمعتقدات والمصالح دور في تحديد رؤية المغاربة لنـصارى الأندلس، لذلك تنوعت المواقف بين القبول والرفض لهم.

الهوامش

الحواشي:

(i) طَلَيْطِلَة بضم الطاءين وفتح اللامين كما ضبطها الحميدى، أما المغاربة فيضمون الأولى ويفتحون الثانية، عاصمة قرطبة تقع على نهر تاجة، ومن أهم المدن الأندلسية (ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٤، ص٣٩ــ٤٠).

(ii) محمد العروسى المطوى: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢ ،١٩٨٢م، ص٢١١ ــ٢١٣، نبيل عبد الحي رضوان: الغزوات الاستعمارية الأسبانية والبرتغالية في الشمال الأفريقي (مجلة المؤرخ العربي ، العدد السادس، المجلد الأول، مارس ١٩٩٨م، ص٥٣٣ــ٨٥١) ص٥٣٣ــ٥٣٤.

(iii) الونشريسي :المعيار المعرب الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، أخرجه محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،١٩٨٥م، جـ٢، ص١٣٧، محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ٢٠٠١م ، جـ٧ ، ص٦٢.

(iv) المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د.مريم قاسم الطويل ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٩٥م، جـ٦، ص٣٨٠، عبد الله محمد جمال: مصير الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ضمن (بحوث الأندلس المدرس والتاريخ، كلية الآداب ، الإسكندرية ١٩٩٤)، ص٢٦٧.

(v) نفس المرجع ، ص٣٦٨ــ ٣٦٩ .

(vi) من الجدير بالذكر أنه منذ نشطت حركة الاسترداد المسيحي في الأندلس ثم امتدت إلى الشمال الأفريقي بنجاح البرتغال في الاستيلاء على سبتة (٨١٨هـ /١٤١٥م) نشب نزاع بين مملكتى أسبانيا والبرتغال على الشواطئ الأفريقية عموماً والمغربية نتج عنه إثره إصدار البابا في روما أكثر من مرسوم بابوي إضافة إلى عقد عدد من الاتفاقيات بينهما لتقسيم مناطق النفوذ = بين كل من المملكتين ، حتى انتهى الأمر بعقد معاهدة تورد سيلاس Tordes Cilas بين مملكتى أسبانيا والبرتغال عام٨٩٩هـ/ ١٤٩٤م) قسم بمقتضاها مناطق النفوذ بين المملكتين حيث عينت تلك المعاهدة خطاً غرب الرأس الأخضر كحد فاصل بين منطقتي نفوذ المملكتين ، فكان شرقي هذا الخط من نصيب أسبانيا وغربه من نصيب البرتغال بما في ذلك فاس والمواحل المغربية باستثناء ما احتلته أسبانيا سابقا (الكراسى :عروسة المسائل فيما لبنى وطاس من الفضائل ، نشرها وعلق عليها عبد الوهاب منصور، مطبوعات القصر الملكى ، الرباط١٩٦٣م، ص٢١ ،هامش ١٧ للمحقق، عبد الهادى التازى : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ، مطبعة فضالة، المحمدية ، ١٩٨٨م، جـ ٧ ، ص٢٣٣ــ٢٣٤، شارل اندريه جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية من الفتح

الإسلامي إلى ١٨٣٠ ، جـ٢ ، تعريب محمد مزالي، البشير سلامه ، الدار التونسية للنشر، تونس،١٩٧٨م، جـ٢، ص٢٥٥، نبيل عبد الحي: الغزوات الاستعمارية، ص٥٣٨.

(vii) نبيل عبد الحي: المرجع السابق، ص٥٣٧.

(viii) نفس المرجع والصفحة.

(ix) ابن القاضي: لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، نشره محمد حجي (ضمن ألف سنة من الوفيات، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر،الرباط ،١٩٧٦م) ص٢٤٠،السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء،١٩٥٤م، جـ٤، ص٩٢، حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي ، الدار السعودية للنشر،جدة، ١٩٩٠م، مج٢ ، جـ٣، ص٦٤؛

Coissac du Chavrelère, Histore du Maroc, Paris 1931, P 251.

(x) أحمد عزاوي: قضايا تاريخية خلال العصرين الموحدي والمريني دراسة وثائقية، الرباط، ٢٠١٠م، ص١٧٠.

(xi) القصر الصغير مدينة بين طنجة وسبته على شاطئ البحر المتوسط ، تبعد عن طنجة١٢ ميلا، وعن سبتة ١٨ميلا (الوزان : وصف أفريقيا ، ترجمة محمد حجي ، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط٢، ١٩٨٣م ، جـ١، ص٣١٦) .

(xii) الوزان : وصف أفريقيا ، جـ١، ص٣١٦، السلاوي: الاستقصا، جـ ٤، ص١١٠، التازي : التاريخ الدبلوماسي ، جـ ٧ ، ص١٦١، نبيل عبد الحي رضوان : الغزوات الاستعمارية ، ص٥٤١ ،

Robert Ricard ,Le Maroc Septentrional au XVe siècle d'après Les Chroinques Portugaises .Hespéris ,Tome XXIII ,Fascicule II ,1936, P130)

(xiii) الوزان : المصدر السابق ،جـ١، ص١٩٧ مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته،مج٢،جـ٣ ، ص٦٩. وأنقى مدينة أسسها الرومان على شاطئ المحيط الأطلنطي، تبعد عن أزمور ستين ميلا (الوزان : نفس المصدر، جـ١، ص١٩٥) .

(xiv) ابن القاضي: لقط الفرائد، ص٢٦٥، نوال علي عبد العزيز : الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في عهد الدولة الوطاسية (مجلة المؤرخ العربي ، العدد السادس ، المجلد الأول ، مارس١٩٩٨م، ص٢٢٣ـ٣٥٥) ص٣٢٣،

Robert ,Le Maroc Septentrional ,P 132 .

(xv) أزمُور مدينة في دكالة على مصب نهر أم الربيع في المحيط الأطلنطي (الوزان : المصدر السابق ، جـ١، ص ١٥٧)

(xvi) نيط من مدن دكالة تقع على ساحل المحيط الأطلنطي وتبعد عن أزمور ٢٤ ميلاً (نفس المصدر ، جـ١، ص ١٥٢).

(xvii) مدينة تطوان أو تطاون وتيطاون بالقرب من مليلة أسسها أبو ثابت المريني (٦٨٥ـ٧٠٦هـ / ١٢٨٦ـ١٣٠٦م) عام (٧٠٧هـ/١٣٧م) لينزل بها الجند (ابن أبي زرع الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكية ، الرباط ، ط٢، ١٩٩٩م: ، ص١٤٥، السلاوي: الاستقصا ، جـ٣،٩٦ـ٩٧، الحريري:: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المرين، دار القلم ، الكويت، ط٢، ١٩٨٧م، ص٣٢٠ـ٣٢١).

(xviii) السلاوي: المصدر السابق ،جـ٤، ص٩٨ـ٩٠، جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية،جـ٢، ص٢٤٩.

(xix) أحمد عزاوي: قضايا تاريخية، ص١٨١.

(xx) عن المعارك التي خاضها الموحدون في الأندلس راجع عنان: دولة الإسلام في الأندلس جـ٥، ص٥٨ـ٣٢٦. والأرك حصن منيع بالقرب من قلعة رباح بالأندلس(الحميري:الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د.إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط١٩٤٨،٢م ، ص٢٧) وعن المعركة راجع: ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ،١٩٨٥م، ص٢٢٢.

(xxi) العقاب نسبة إلى الموقع الذي وقعت فيه المعركة وهو سهل ملئ بالتلال الصخرية القليلة الارتفاع وتسمى العقاب جمع عقبة ، ويقع هذا السهل بين جيان وقلعة رباح بالأندلس وقد دارت هذه المعركة بين قوات الخليفة الموحدي أبو محمد عبد الله الناصر الذي أراد أن يعيد السيطرة على بلاد الأندلس بعد أن هجم النصارى على أطرافها ، فجهز جيشا كبيرا واتجه إلى الأندلس ليواجهه جيوشا نصرانية كبرى تضم ملوك قشتالة وليون ونافار وأراجون ومعظم كبار فرسان أسبانيا وانتهى الأمر بهزيمة الموحدين هزيمة كبرى أدت إلى ضعف الأندلس وكانت سببا في انهيار دولة الموحدين (ابن عذارى: البيان، ص٢٦٦، المقرى :نفح الطيب ، جـ١، ص٤٢٥، مؤنس :تاريخ المغرب وحضارته ، جـ٢، ص١٣٠ـ١٣٢).

(xxii) عنان : المرجع السابق،جـ٧، ص٩٠.

(xxiii) أحمد عزاوي: قضايا تاريخية ، ص١١٠.

(xxiv) نفس المرجع :ص١١٢.

(xxv) ابن أبي عذراى: المصدر السابق ، ص٣٣١.

(xxvi) ابن أبي زرع : المصدر السابق ،ص٤٠٩ـ٤١٠، الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي، ص٤٣.

(xxvii) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ،٢٠٠٧م ،جـ٧،

ص،١٩٢ـــ٢٠٣،١٩٣، ٢٠٧ـــ٢٠٩،جوليـــان :أفريقيـــا الـــشمالية،جـــ٢،ص٢١٩ ،الحريرى: المرجع السابق، ص ٤٨ـــ

(xxviii) ابن خلدون : المصدر السابق ،جـــ٧، ص٢٥٥.

(xxix) موقعة طريف وقعت على نهر سالادو بمدينة طريف بين الجيوش المغربية بقيادة أبـــى الحسن المرينى والجيوش القشتالية بقيادة ألفونسو الحادى عشر والبرتغالية بقيادة صاحب لشبونة وانتهت بهزيمة الجيوش المغربية، عنها راجع (ابن خلدون: المـــصدر الـــسابق ، جـــ٧، ٢٦١ـــ٢٦٤، الحريري :المرجع السابق ،ص ١١٥ـــ١١٦، حسين مؤنس: المرجع السابق ، مج٢، ص٤٦ـــ٥٠. وطريف جزيرة في البحر المتوسط يتصل غربهـــا بـــالمحيط الأطلنطي وتبعد عن الجزيرة الخضراء ثمانية أميال (الحميري: الروض ص٣٩٢).

(xxx) ابـــن خلـــدون: المـــصدر الـــسابق ،جـــــ٧، ص٢٥٥، الـــسلوى: الاستقـــصا،جـــ٣، ص١٣٤ـــ١٣٧، الحريرى: المرجع السابق، ص١١٥ـــ١١٦.

(xxxi) لاقش مدينة شاطئية جنوب البرتغال كانت لهـــا أهميـــة كبيـــرة(التـــازى : التـــاريخ الدبلوماسي، جـــ٧، ص١٥٧.

(xxxii) فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطينة والزاب، تحقيـــق محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيـــروت ،١٩٩٠م، ص١٨٣، التـــازى:التـــاريخ الدبلوماسي، جـــ٧ ، ص١٥٧.

(xxxiii) ماريانو أريباس بالاو: بنو مرين في الاتفاقات المبرمة بين أرجون وغرناطة (مجلة تطـــوان للأبحـــاث المغربيـــة الأندلـــسية ، العـــدد الثـــامن ،١٩٦٣، ص١٩١ـــــ٢٠٤) ص١٩٧ـــ١٩٨.

(xxxiv) التازى: المرجع السابق، جـــ ٧ ، ص١٤١.

(xxxv) ابن الحاج: المصدر السابق ،ص١٨٨ ـــ١٩٩.

(xxxvi) ماريانو أريباس بالاو: المرجع السابق ص١٩٧ـــ١٩٨، الحريري: تـــاريخ المغـــرب الإسلامي ، ص ٢٤٠.

(xxxvii) عن المعاهدات والمراسلات راجع عبد الهادي التازى : المرجـــع الـــسابق ،جـــــ٧، ص١١٩.ـــ١٦٨

(xxxviii) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ دار الرشاد الحديثة ، الدار البيـــضاء ، ط٢ ، ١٩٨٤م ،ص٨٣، أحمد عزواى : قضايا تاريخية ، ١٧٥ ،حميد تيتاو: الحـــرب والمجتمـــع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤســـسة الملـــك عبـــد العزيز،الـــدار البيـــضاء،٢٠٠٩م، ص٢٧٥.

(xxxix) مارمول :أفريقيا ، ترجمة محمد حجـــي وآخـــرون، الجمعيـــة المغربيـــة للتـــأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٨٤م، جـــ١ ، ص ٤٢٤.

(xl) الإفرانى : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الـــدار البيضاء ، ١٩٩٨م . ، ص٤١، جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية ،جـــ٢ ،ص٢٥٧.

(xli) هو وادي نهر اللكوس الذي ينبع من من جبال غمارة ويجرى نحو الغرب عبر سهول الهبط مارا بالقرب من مدينة القصر الكبير وينتهي عند مصب النهر على المحيط الأطلنطي قرب مدينة العرائش (الوزان : وصف أفريقيا،جـ٢، ص٢٤٩).

(xlii) الكراسي : عروسة المسائل، ص ١٥، إبراهيم حركات : المرجع السابق،جـ٢، ص ١٧١.

(xliii) العرائش تقع على المحيط الأطلنطي عند مصب نهر اللكوس (الوازن : المصدر السابق ، جـ١، ص٣٠٢) .

(xliv) حصن يقع في أقصى طرف الأطلس نحو المحيط الأطلنطي (نفس المصدر والجزء ، ص١١٨) .

(xlv) الكراسي: عروسة المسائل، ص١٥، السلاوي: الاستقصا، جـ٤، ص١١٠، حركات، المرجع السابق ، جـ٢، ص١٧٢ نبيل عبد الحي :الغزوات الاستعمارية ، ص٢٢.

(xlvi) بفتحين وكسر الفاء بلدة من بلاد المغرب الأقصى تطل على المحيط الأطلنطي (ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص١٨٠ .

(xlvii) مارمول :أفريقيا ،جـ٢، ص٢٠٣ ،

Robert ,Le Maroc Septentrional, P 130 –131.

(xlviii) السلاوي: الاستقصا،جـ ٤، ص١٤٩، حركات: عبر التاريخ ،ص١٨٤.

(xlix) ابن عذارى: البيان،ص ١٣٠،رضوان البارودى: أضواء على المسيحية والمسحيين في الغرب الإسلامي،دار الفكر العربي ، ١٩٩٠م، ص٣٩.

(l) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٣٢٩ ، رضوان الباردوى: المرجع السابق ،ص ٤١.

(li) مصطفى نشاط: إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الأول ، وجدة، ٢٠٠٣م، ص٣٤.

(lii) نفس المرجع، ص٣٤ــ٣٥

(liii) ابن عذارى :المصدر السابق، نفس المرجع، ص ٣٤

(liv) نفس المرجع، ص ٣٤،

Dufourcq, L'Espagne Catalane et Le Maghrib Aux xiiie et xive Siècles, Parais,1966,P263 .

(lv) نفس المرجع، ص ٤١،

Ibid, P 456.

(lvi) تيتاو : الحرب والمجتمع ، ص٢٧٤.

(lvii) الونشريسي : المعيار جـ٢، ص ٢٠٨، ولقد بلغ من أهمية الحث على الجهاد أن أسقط بعض الفقهاء ومنهم ابن رشد فريضة الحج عن أهل الأندلس لعدم الاستطاعة وفضل عليه الجهاد لأنه أصبح فرض عين على المسلمين هناك ، ولما فيه من فضائل

(الونشريسي: نفس المصدر، جـ١، ص٤٣١ـ٤٣٣) . ويتحول الجهاد من فرض الكفاية إلى فرض عين على كل مسلم ، لسببين: الأول هو أمر الإمام بالخروج للغزو فمن عينه تعين عليه . والثاني أن يفاجئ العدو قوما لهم قوة على مدافعته ، فيتعين عليهم دفاعه وقتاله ، فإن لم يستقلوا بذلك لزم من قاربهم أن يخرج إليهم ، فإن لم يستقل الجميع وجب على من علم بضعفهم وطمع في إدراكهم وعونهم المضي إليهم حتى يندفع عنهم العدو (ابن رشد: المقدمات الممهدات، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،١٩٨٨م،جـ١، ص٣٤٧).

(lviii) الونشريسي : المصدر السابق ، جـ٢، ص٢٠٦ـ٢٠٧

(lix) نفس المصدر والجزء ،ص ٢٠٨ .

(lx) نفس المصدر والجزء، ص٢٠٩.

(lxi) نفس المصدر والجزء، ص٢٠٩

(lxii) ابن رشد: المقدمات ، جـ٢، ص٤١٥١ـ١٥

(lxiii) ابن رشد: نفس المصدر والجزء، ص١٤٥ـ١٥٥ ، الونشريسي: المصدر السابق،جـ٢، ص١٦٦،جـ٦، ص٦٧.

(lxiv) نفس المصدر والجزء، ص١٢٤ .

(lxv) الونشريسي : المعيار ،ص١٢١ ، والآية الكريمة سورة النساء ، أية ٩٨ـ٩٩

(lxvi) نفس المصدر والجزء ،جـ٢، ص١٣٨ـ ١٤٠.

(lxvii) مارمول :أفريقيا ،جـ٢، ص٢٠٣ ،

Robert ,Le Maroc Septentrional, P 130 -131.

(lxviii) الونشريسي : المصدر السابق ، جـ٢، ص٢٠٦ـ٢٠٧.

(lxix) نفس المصدر والجزء ص ١١٥.

(lxx) عرف المغرب الأقصى صناعة الورق في عهد أبي يوسف تاشفين المرابطي ، وكان بفاس وحدها مائة وأربعة معمل لصناعة الورق(عز الدين عمر موسى :النشاط الاقتصادى ، ص٢٢٤، محمد المنوني: تاريخ الوراقة المغربية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ،١٩٩١ م، ص٢١) ، ثم تطورت صناعة الورق في العصر الموحدى حتى أصبح بفاس أربعمائة معمل لصناعة الورق كما اشتهرت سبتة بتلك الصناعة ،إلا أن صناعة الورق قد تدهورت في أواخر العصر الموحدى في أعقاب الفتن والمجاعات التي أصابت المغرب (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٥٩) ، أما في العصرين المريني والوطاسي فلا توجد معلومات واضحة عن صناعة الورق غير ما ذكره الونشريسي من أن فاس مازالت تنتج الورق (المعيار ،جـ١، ص ٨٥،) كذلك ما ذكره الوزان بأن بفاس حوالي ثلاثين دكانا للكتابيين (وصف أفريقيا ، جـ١، ص٢٣٣) . ومن المعروف أن صناعة الورق قد انتقلت من المغرب إلى الأندلس ومنها إلى أوربا في أواخر القرن ١٣م (المنوني: المرجع السابق ، ص٣٣) .

(lxxi) الونشريسي : المصدر السابق، جـ١، ص٨٥ .
(lxxii) ابن مرزوق :هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الخطيب محمد بن مرزوق كان علامة ، محققا ، مفسرا ومحدثا أخذ عن جده وعدد من أعلام المشرق والمغرب ، وأخذ عنه كثيرون منهم التنسي وابن زكرى المازوني ، وله مؤلفات كثيرة منها شروح على البردة ومسائل في الفقه والتفسير (المقري : نفح الطيب ،جـ٧، ص ٣٩٤ـ٣٩٦).
(lxxiii) الونشريسي: المعيار ، جـ١ ، ص٨٩ .
(lxxiv) نفس المصدر والجزء ، ص٩٠.
(lxxv) نفس المصدر والجزء، ص٩٨ .
(lxxvi) الونشريسي: المعيار، جـ١١، ص١٠٢ .
(lxxvii) حركات : المغرب عبر التاريخ ، جـ ٢، ص٨٣.
(lxxviii) الونشريسي :المصدر السابق،جـ٧، ص١٦١،ص٧٠ ، ٣٣٣
(lxxix) نفس المصدر والجزء، ص ١٤٨،١٢٣، ٢٣٣
(lxxx) نفس المصدر والجزء ،جـ٧، ص ١٤٥،١٤٤.
(lxxxi) نفس المصدر والجزء، ص ٥٨، ٤٢٣، ٢١٨
(lxxxii) نبيل عبدالحي: الغزوات الاستعمارية، ص٤٥٠، أحمد عزاوي: قضايا تاريخية، ص١٣٦.
(lxxxiii) السلاوي: الاستقصا، جـ ٤، ص١١١،جوليان: أفريقيا الشمالية،جـ٢، ص٢٥١، نبيل عبدالحي: نفس المرجع، ص٤٥٠
(lxxxiv) أحمد بوشارب :التجربة الاستعمارية البرتغالية في دكالة ودور بعض الفئات الاجتماعية في إرساء قواعدها(مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد بن عبد الله، فاس، العدد الأول،١٩٧٨م،٣١٥ـ٣٣٤) ،ص٣١٩، نبيل عبد الحي : المرجع السابق، ص٥٤١
(lxxxv) تيتاو : الحرب والمجتمع ، ص٢٧٥.
(lxxxvi) جوليان: المرجع السابق ،جـ٢، ص٢٥١، أحمد بوشارب :المرجع السابق ،ص٣١٩

المصادر والمراجع:

أولاً المصادر:

- الأفراني (محمد الصغير الأفراني ت١١٥٧هـ/١٧٤٥م):نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الدار البيضاء ، ١٩٩٨م .
- ابن الحاج النميري (أبو القاسم برهان الدين إبراهيم ت بعد ٧٧٤هـ/١٣٧٤م): فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطينة والزاب ، تحقيق محمد بن شقرون ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٠م .
- الحميرعباس،د بن عبد المنعم ،عاش في ق٧ هـ/١٣م) : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق د.إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٤٨م.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن خلدون ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- ابن رشد(أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ت٥٢٠هـ/١١٢٦م): المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونات الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،١٩٨٨م.
- ابن أبي زرع (علي بن عبد الله بن أبي زرع ت بعد ٧٤١هـ/١٣٤٠م) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكية ، الرباط ، ط٢، ١٩٩٩م .
- السلاوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى ، ت١٣١٩ هـ /١٨٩٧م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر ومحمد الناصرى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء،١٩٥٤م .
- ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين ، تحقيق محمد إبراهيم الكتانى وآخرون ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ،١٩٨٥م.
- ابن القاضي المكناسي (أحمد بن محمد بن أبي العافية ت ١٠٢٥هـ /١٧٩٠م): لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، نشره محمد حجي (ضمن ألف سنة من الوفيات ، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر،الرباط، ١٩٧٦م) .
- الكراسي :عروسة المسائل فيما لبنى وطاس من الفضائل ، نشرها وعلق عليها عبد الوهاب منصور، مطبوعات القصر الملكي ، الرباط١٩٦٣م.

- مارمول كربخال (ألف كتابه عام ٩٧٩هـ/١٥٧١م) :أفريقيا ، ترجمة محمد حجي وآخرين، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٨٤م.
- المقري (أحمد بن بن محمد المقرى التلمساني، ت ١٠٤١هـ/١٦٣١): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د.مريم قاسم الطويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٥م .
- الوزان (الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف ليون الأفريقي ت بعد ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م) :وصف أفريقيا ، ترجمة محمد حجي ، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط٢، ١٩٨٣م .
- الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م) :المعيار المعرب الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، خرجه محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،١٩٨٥ .
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت.

ثانياً المراجع :

- إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٤م.
- أحمد بوشارب :التجربة الاستعمارية البرتغالية في دكالة ودور بعض الفئات الاجتماعية في إرساء قواعدها(مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد بن عبد الله، فاس، العدد الأول،١٩٧٨م، ص٣١٥ــ ٣٣٤).
- أحمد عزاوي: قضايا تاريخية خلال العصرين الموحدي والمريني دراسة وثائقية، الرباط،٢٠١٠م.
- حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، الدار السعودية للنشر، جدة، ١٩٩٠م.
- حميد تيتاو: الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤسسة الملك عبد العزيز،الدار البيضاء،٢٠٠٩م.
- رضوان البارودي: أضواء على المسيحية والمسحيين في الغرب الإسلامي، دار الفكر العربي ، ١٩٩٠م.
- شارل اندريه جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية ، من الفتح الإسلامي إلى ١٨٣٠ ، ج٢ ، تعريب محمد مزالي، البشير سلامه ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٨ م.

- عبد الله محمد جمال : مصير الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ضمن (بحوث الأندلس الدرس والتاريخ، كلية الآداب ، الإسكندرية ١٩٩٤)، ص٣٦٧ .
- عبد الهادي التازي(دكتور): التاريخ الدبلوماسي للمغرب ، قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي ،مطبعة فضالة ، المحمدية ، ١٩٨٨م.
- ماريانو أربياس بالاو: بنو مرين في الاتفاقات المبرمة بين أراجون وغرناطة (مجلة تطوان للأبحاث المغربية الأندلسية ، العدد الثامن ،١٩٩٣، ص١٩١ــ٢٠٤).
- محمد العروسي المطوي(دكتور): الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي ، بيروت،ط٢ ،١٩٨٢م.
- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.
- محمد عيسى الحريري(دكتور): تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار القلم ، الكويت، ط٢، ١٩٨٧م.
- مصطفي نشاط (دكتور): إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الأول ، وجدة ،٢٠٠٣م.
- نبيل عبد الحي رضوان(دكتور): الغزوات الاستعمارية الأسبانية والبرتغالية في الشمال الأفريقي (مجلة المؤرخ العربي ، العدد السادس، المجلد الأول، مارس ١٩٩٨م، ص٥٣٣ــ٨٥١).
- نوال علي عبد العزيز (دكتور): الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في عهد الدولة الوطاسية (مجلة المؤرخ العربي ، العدد السادس ، المجلد الأول ، مارس١٩٩٨م، ص٢٢٣ــ٣٥٥).
- Coissac du Chavreière , Histore du Maroc , Paris 1931.
- Dufourcq, L'Espagne Catalane et Le Maghrib Aux xiiie et xive Siècles

,Parais,1966

- Robert Ricard ,Le Maroc Septentrional au XVe siècle d'après Les Chroinques Portugaises ,Hespèris ,Tome XXIII ,Fascicule II 1936.

الثورة الليبية(١٧ فبراير ٢٠١١) والحوار مع الآخر
(دراسة في العلاقات الدولية الليبية)

د. هدي محمود محمد علي نابل
مدرس تاريخ حديث ومعاصر بالأكاديمية الحديثة

تعتبر ثورات الربيع العربي انتفاضة حقيقية على الأوضاع التقليدية والسلطات الإستبدادية، والقيم اللاأخلاقية التي عاشت فيها النظم العربية، بدءً من النصف الثاني من القرن العشرين بصفة خاصة، واستفحلت في استبدادها، ولم تستطع أن تكون على ما يجب أن تكون عليه سلوكيات الدولة، وانتهى الأمر بوقوع التصادم بين السلطة الحاكمة والرعية المحكومة، وعاشت النظم العربية في محنة نتيجة لأطماع القوى الغربية خاصة، بسبب الثروة النفطية واستثمارات الغاز الطبيعي بكميات تجارية كبيرة، بالإضافة إلى فشل هذه النظم في إدارة الحوار المجتمعي، وعدم قدرتها على تلبية احتياجات الجماهير، والحد من الإنفراد بالسلطة واستبدادها بمقدرات المجتمع، واحتكارها ثرواته. وكل ذلك سبب فجوة بين الحكام والمحكومين، وانتهى الأمر إلى تمزق الأربطة التي من المفروض أن تُسهم في تماسك المجتمع وأفراده وطبقاته. وإذا كانت ثورات الربيع العربي قد بدأت بثورة تونس في ٢٠١١، وأعقبتها ثورة مصر في ٢٥ يناير ٢٠١١، فإن الثورة الليبية كانت ثالث ثورات الربيع العربي. وإذا كانت ثورة تونس قد قامت في مواجهة حكم جمهوري، وتتساوى معها في ذلك ثورة مصر، فإن النظام الليبي، الذي قامت الثورة ضده، كان قد نتج عن ثورة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩، والتي كان قد قام بها مجموعة من الضباط ذوي الرتب الصغيرة، بقيادة العقيد معمر القذافي، من خلال تشكيل للضباط الوحدويين الأحرار في الجيش الليبي، والذي استولى على السلطة، وأعلنت الجمهورية العربية الليبية.

ففي ٢ مارس ١٩٧٧م تم الإعلان عن قيام الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية العظمى، وتحول النظام السياسي من النظام الجمهوري إلى النظام الجماهيري الذي يقوم الحكم فيه على سلطة الشعب، عن طريق الديمقراطية المباشرة Direct Democracy، من خلال المؤتمرات الشعبية الأساسية، لتكون أداة للتشريع، واللجان الشعبية لتكون أداة للتنفيذ، وابتدع العقيد القذافي ما يسمى بالنظرية العالمية الثالثة، والتي استوحى خلاصتها من التجارب الإنسانية في موكب التاريخ.[1]

ولقد ترتب على ذلك النظام الجماهيري؛ الذي كاد أن يكون فريداً من نوعه في الأنظمة العربية، شكل من أشكال العزلة، إما تعالياً من النظام نفسه على بقية النظم سواء العربية أو الغربية، وإما لعدم فهم الأنظمة العربية لما عجز النظام الليبي نفسه عن توضيح فلسفته وأهدافه. ولقد ترتب على النظام الجماهيري الليبي الجديد: حل المؤسسات التقليدية للدولة، وتعطيل القوانين، ومنع الأحزاب، واحتكار الإعلام، ومصادرة الحريات، والإعلان عن التخلي عن منصب الرئاسة، لأن ما يقوم به الزعيم ليس سوى التعبير عما يريده الشعب، في اللجان الثورية والمؤتمرات الشعبية.[2]

ويمكن القول أن المناخ الذي دفع بالشباب في ليبيا إلى الثورة كان يختلف تماماً عن ذلك المناخ الذي دفع بالتونسيين أو المصريين إلى الثورة، ولا نبالغ إذا قولنا أن العنصر الإقتصادي كان له تأثير في مصر وتونس أكثر مما كان الوضع في ليبيا. ولكن بالمقابل كانت قيود الحرية والتعبير عن الرأي في ليبيا شديدة القسوة ولا يمكن تحملها.

لقد استمر حكم العقيد القذافي ٤٢ عاماً[3] لم يسمح فيها بتكوين أي أحزاب أو جماعات سياسية، حتى جماعات الضغط لم يكن لها وجود، كما أن ليبيا كانت أقل الدول

---

(1) باتانتي باولو، ونيقولاي استاريكوف: تاريخ ليبيا من عمر المختار إلى معمر القذافي، ترجمة هند رشدي وفوزي ربيع، القاهرة – دار الإعلان والصحافة ٢٠١١، ص١٣٩.

(2) علي حرب: ثورات القوة الناعمة في العالم العربي من المنظومة إلى الشبكة – بيروت – الدار العربية للعلوم ٢٠١٢م، ص ص ٨٧ – ٨٨.

(3) حيث قامت الثورة الليبية الفاتح في أول سبتمبر ١٩٦٩ وقتل القذافي في ٢٠١٢م.

العربية انفتاحاً عن الخارج، من ناحية الاتصالات الشعبية أو الأخذ عن النظم الغربية. ولقد قام الشباب الليبي بالثورة على حكم العقيد القذافي، في شكل مظاهرات سلمية، في ١٧ فبراير ٢٠١١، بدأت من شرق البلاد. وقد تعاملت معها قوات الأمن بالعنف، لأن مفهوم الحوار بين السلطة والشعب كاد يكون مفقوداً، وكلما كانت تزيد حدة المظاهرات ويتسع حجم المشاركين فيها، كانت تسقط أعداد كبيرة من الشهداء والجرحى. ويمكن فيما يلي تحديد أسباب الثورة، مع إلقاء الضوء على أزمة الحوار مع الآخر في تفاقم أحداثها، وفي عجز القيادة عن مواجهتها. فمن المعروف أن لأي ثورة عدة عوامل عندما تكتمل لابد وأن تنفجر، ولا يوجد عامل وحيد لنشوب الثورات، وإنما تتفاعل هذه العوامل معاً ليصل المجتمع إلى شرارة الثورة لتنطلق أحداثها.

الأسباب المباشرة للثورة الليبية:

من أهم الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة الشبابية الليبية: السياسة التعسفية للعقيد معمر القذافي، والتي تجسدت في تمسكه بالسلطة، وعجزه عن بناء بنية تحتية للدولة، وتجبر رجاله وفساد أولاده. ولا شك أن الحوار مع الآخر فيما قام في تونس ومصر، ودعوات الشباب على أجهزة التواصل الاجتماعي (FaceBook)، والتي حددت تاريخ ١٧ فبراير ٢٠١١ موعداً للتظاهر السلمي، إحياءً لذكرى التظاهرة التضامنية ضد إهانة الدين الإسلامي[٤]، والتي كانت كرد استنكاري لتصريحات وزير إيطالي أعلن فيها دعمه للرسام الدنماركي، صاحب الرسوم المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم، وبدأت هذه المظاهرات السلمية أمام القنصلية الإيطالية في بنغازي، وسقط فيها عدد من القتلى والجرحى بين المتظاهرين أثناء محاولتهم اقتحام القنصلية.[٥]

---

(4) مجلة شئون عربية العدد ١٥٥ خريف ٢٠١٣م (مجلة قومية فصلية تصدر عن الأمانة العامة بجامعة الدول العربية العربية ص٣٥.

(5) موقع "مرانفور ماتزيوتي كورتيا الإيطالي" – بقلم زيفي مازيل – ١٧ فبراير ٢٠١١م.

وهكذا كانت بداية إندلاع الثورة الليبية بالإعتصام السلمي، استجابة للحملة الشعبية التي نظمها ليبيون على صفحات FaceBook. وكان لتصدي الشرطة الليبية للمتظاهرين المشاركين في الاعتصام من المواطنين – بشراسة، أن انضم إلى الأهالي أقارب المعتقلين في سجن أبو سليم، وهو سجن في ليبيا له شهرة سجن الباستيل الفرنسي. كما انضم إلى المتظاهرين أهالي ضحايا حادث القنصلية الإيطالية. ونتيجة لهذا دبت الفوضى في شوارع بنغازي، وتولد شعور عارم لدى السلطة المحلية بأن الوضع خرج عن السيطرة. وقد حاول الزعيم الليبي ونجله "الساعدي" مفاوضة المحتجين الغاضبين، وأرسل معمر القذافي إلى المحتجين رئيس الاستخبارات العسكرية الليبية، والذين افتقدوا جميعاً قدرة الحوار مع الآخر، مما أدى إلى إزدياد الإحساس بالقهر، واعتماد خيار العنف للتخلص من حالة القمع المستوطنة في نفوسهم منذ سنوات طويلة. ومن ثم تجمع المواطنون وقاموا بالهجوم على مقر كتيبة (الفضل أبو عمر) وهي إحدى الكتائب العسكرية الأمنية المسئولة عن تأمين مدينة بنغازي[٦] وتم الاستيلاء على أسلحتها، ولم يلبث أن حدث الأمر نفسه في بقية مدن الشرق الليبي. وقد اتخذت الأجهزة الأمنية الليبية إجراءات أمنية استباقية، يومي ١٥، ١٦ فبراير ٢٠١١، للتفاوض على إلغاء الحركة الاحتجاجية يوم ١٧ فبراير، وتم توقيف فتحي تربل محامي أهالي معتقلي سجن أبو سليم، من أجل شل اليد اليمنى للحركة الاحتجاجية لكن الجماهير زادت في غضبها، مما أجبر الأجهزة الأمنية على إطلاق سراح هذا المحامي، فاتسعت مساحة الاعتصام لتشمل عدة مدن من ليبيا، تضامناً مع حركة بنغازي ورفض المتظاهرون التفاوض.[٧]

---

(6) موقع فورين بوليس الأمريكي بقلم – ديفيد وتكويف ١٧ فبراير ٢٠١١م.
(7) صحيفة الفيناشال تايمز البريطانية – ٢٠ فبراير ٢٠١١م المقال الإفتتاحي.

الأسباب غير المباشرة للثورة الليبية:

أولاً: البعد السياسي

لم تكن ثورة الفاتح من سبتمبر، برغم كل الجهد الذي بذلـه القـائمون عليهـا، بقادرة على تغيير البيئة الاجتماعية والثقافية للمجتمع الليبي. برغم أن ثوار الفاتح مـن سبتمبر كانوا يتشدقون بولائهم لعبد الناصر وبأبوته لهم،[٨] مما جعـل الثـورة تتمتـع باحتضان واسع، ليس من الشعب الليبي فقط، بل من جماهير الأمة العربية وامتـدادتها الإفريقية، مما أعطاها قدرة على الثبات والاستمرارية فترة طويلة من الزمن، وخاصـة بعد تنصيب قائدها بعد رحيل عبد الناصر، ووصيته للقذافي بأنه الأمين علـى القوميـة العربية، وقد كانت هذه الوصية بمثابة إلزام لثورة الفاتح باحتضان العمل الفدائي للثورة الفلسطينية.[٩] وقد كان النظام الجمهوري الذي يتبعه القذافي سبباً فـي حيـرة النخبـة الليبية، جنباً إلى جنب مع عجز الشعب الليبي عن فهم ما يسعى إليه ومـا يطالـب بـه زعيم الثورة، وزاد من سوء موقفه أن الكثيـر مـن الحركـات، الإسـلامية السـلفية والإخوانية، كانت صريحة في عدائها لنظام معمر القذافي، وسبباً رئيسياً في انهيار هـذا النظام فيما بعد، وخاصة بعد الافتراءات التي أطلقتها الحركات الدينية المستترة بالـدين؛ بأن القذافي استبدل بالقرآن الكريم الكتاب الأخضر ولكن ذلك لـم يـؤثر فـي الـدعوة القذافية.[١٠] وحرص القذافي على حشد مجموعة من المثقفين، ذوي الإحساس بحركـة التاريخ وبالقومية العربية بشكل خاص، لينشيء المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، من أجل تقديم نموذج براق يجذب لدراسته مختلف الجامعات والمراكز الثقافية والفكرية العالمية، ويقوم بتنظيم الندوات والمحاضرات، واستقطاب الـصحفيين ورجـال

---

(8) عمار حيدر: أفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديثة – الدار العربية للكتاب طرابلس ١٩٩١ ص٣٢.

(9) جريدة الأهرام المصرية ١٦ أكتوبر ١٩٧١ ص٣.

(10) علي شندي: القذافي يتكلم (أسرار الحكم والحرب والثورة) بيروت: بيان للنشر والتوزيع والإعلام ٢٠١٢م، ص ٢٠ – ٣٥.

الإعلام والمفكرين، لشرح مقولات الكتاب الأخضر، وأسس النظرية الثالثة في السياسة التي كان ينادي بها، والتي جمعت في طياتها نقداً للنظام السياسي الاشتراكي والنظام السياسي الرأسمالي، مؤكداً أن الديمقراطية لدى كل منهما مفهوم خاطئ يجب أن يعاد النظر فيه، وكانت هذه المجهودات من جانب القذافي، وحاشيته من المثقفين والمفكرين، لوناً جديداً في الحوار مع الآخر خارج ليبيا.

وابتدع القذافي في نظامه السياسي نظرية سلطة الشعب، لتمكينه من تسلم السلطة وممارستها عبر المؤتمرات الشعبية التي تقرر، واللجان الشعبية التي تنفذ، وأسند إلى اللجان الثورية مهمة حماية ثورة الفاتح والدفاع عنها والدعاية لها، مع ما تعنيه من تحولها إلى ميليشيا مسلحة رسمية. وحاول القذافي أن يصبغ هذا التحول في هذا الاتجاه إلى التشبيه بالثورة الثقافية الصينية، والتي أطلق عليها، في الخارج لجنة تصفية وقتل المعارضين في الداخل والخارج.[١١]

ولم يلبث القذافي أن أسس جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، للتعبير عن تطلعاته بشأن الإسلام والمسلمين حول العالم، باعتباره ديناً وسطاً بعيداً عن التطرف والغلو والاستغلال، وتوسع نشاط هذه الجمعية بتدريس العلوم الشرعية في كلية الدعوة الإسلامية، وقامت بتشييد عدد كبير من المساجد ومراكز الدعوة الإسلامية، وافتتحت مشروعاً في عدد من الدول العربية والإفريقية والآسيوية[١٢] ويمكن أن يقال إن القذافي كان يبحث عن تنظيم سياسي يتسع لضم كل الشعب، في كل القرى والمدن والقبائل والعشائر والعائلات، والشرائح المهنية من النقابات وروابط مختلفة. وأنشئ ما يسمى بالمؤتمر الشعبي الأساسي على مستوى كل قرية وبلده، وحي وقبيلة ووحدة سكنية، على أن يكون لكل مؤتمر شعبي أمين وأمين مساعد، وينبثق عن كل مؤتمر شعبي أساس مهمة تغيير قرارات المؤتمر الشعبي الأساسي، الذي يملك الحق بالإطاحة بها

---

(١١) المرجع السابق ص٣٦.
(12) انظر الكتاب الأخضر ـ الفصل الأول.

وتغييرها في أي وقت يشاء، ولكن يتشكل من مجموع أمناء المؤتمرات الشعبية وأمناء اللجان الشعبية، على مستوى الدولة، ما يسمى المؤتمر الشعبي العام، حيث يحمل أمناء المؤتمرات مقررات وحاجات مؤتمراتهم ومناقشتها في المؤتمر الشعبي العام، واعتمادها بصياغة موحدة لتصدر بها تشريعات نافذة على مستوى الدولة. وكان يتشكل من مجموع أمناء اللجان الشعبية القطاعية: اللجان الشعبية للقطاع على مستوى الدولة[١٣]، ويتشكل من أمناء اللجان الشعبية العامة القطاعية: اللجنة الشعبية العامة (مجلس الوزراء) ويضاف إلى أمناء المؤتمرات الشعبية: وأمناء اللجان الشعبية أمناء الاتحادات ومختلف النقابات والروابط المهنية والانتاجية على مستوى الدولة.

لقد ظن القذافي أن هذه التركيبة متناقضة المصالح، ومن ثم لا تدفع المجتمع الليبي إلى الأمام، بل ظن أنه بهذا النظام قام بوضع تركيبة تستوعب كل التناقضات وموازين القوى المجتمعية والسياسية في ليبيا، وظن أن ذلك سوف يجعل في جوفه الاستقرار الاجتماعي والسياسي والأمن في البلاد. وظل هذا النظام أربعة عقود (أربعون عاماً) ولكن وضح أن القذافي في واد وأن الشعب الليبي في استيعابه لهذه النظرية الجماهيرية كان في واد آخر. وإن كان ذلك لم يمنع أنه كان يردد كلمات المؤتمرات وشعاراتها كالببغاء، دون فهم لها أو إيمان بها.

وفي عام ١٩٧٧ بدأت تظهر بعد المعارضات المتوارية والاحتجاجات المسكوت عنها، بعد أن تأسست النوادي القبلية في هذا العام، لأن الحراك الاجتماعي لم يتم طبقاً لمتطلبات الجماهير وتراكم الاحتجاجات[١٤]. كانت وظائف هذه النوادي القبلية تهدف إلى مراقبة تحركات الشباب واكتشاف بؤر التوتر الممكنة، وبينما كان الهدف المساعدة على تخفيفها، خرجت عن الدور المنوط بها إلى دور الكبت الذي أسهم في إثارة الشباب ومما

---

(13) أنظر الكتاب الأخضر، مرجع سابق – الفصل الثاني.

(١٤) المنصف وناس: السلطة والمجتمع والجمعيات في ليبيا، تونس: مطبعة الوفاء ٢٠٠٠م، ص٨١.

زاد الطين بلة أن تنظيمات مسلحة، أطلق عليها الحرس الشعبي، تشكلت من شباب القبائل وفتياتها المتطوعين لحمل السلاح والدفاع عن النظام ومكتسبات الثورة، مما أضاف للفكر الثوري فكر عسكرة الثورة. وعندما سقط النظام والقانون؛ فإن هذه التنظيمات لم تجد من يردعها وما يضبط سلوكياتها، وكل هذه الأوضاع لم تجعل من القذافي اليد الحديدية، كما كان يتمنى، مما جعله يقوم بالعديد من الزيارات الشخصية إلى كل مناطق ليبيا، حيث كانت كل زيارة تسفر عن توقيع وثيقة عهد ومبايعة من طرف كل مجموعة قبلية يزورها، إذ كان يناقش مطالب القبائل ويحاول حلها تجنباً لتمرد الأفراد.[١٥]

وهناك سؤال يثور دائماً لدى الكتاب والمفكرين بالنسبة للقذافي، إذ إنه منذ إستيلائه على السلطة، لم نسمع قط على احتجاج عليه أو معارضة له أو اضطرابات ضده وإن كان ذلك لا يعني عدم وقوع ذلك. فقد تكون الرقابة على الصحف[١٦] أو على تسرب الأنباء الصعب، أو تكون هناك محاولات تمرد أو اضطرابات سحقت بدموية وفي صمت، بحيث سوف تكتشف فيما بعد: حجم المجازر التي قد تكون ارتكبت في ليبيا بأوامر مباشرة من القذافي أو حاشيته التي تحكم معه.

ويمكن أن يقال: إن الحوار مع الآخر أنقذ نظام القذافي لفترة طويلة، لكن تكرر الحوار بدون تغيير للفحواه أو استماع لمطالب وشكاوى الجماهير، أدى في النهاية إلى التمرد الذي سنحت له الفرصة، خلال الثورة، أن يعبر عن نفسه، حيث بدأت البلاد تتخبط في الفوضى.

وفي كل الأحوال، كان من المتوقع أن القذافي لن يرحل من تلقاء نفسه، لأنه بشخصيته الثورية سيموت وفي يده السلاح، إلا إذا أمرت الأمم المتحدة باعتقاله. وظن

---

(15) محمد نجيب بو طالب: الظواهر القبلية والجمهورية في المجتمع العربي المعاصر، الدوحة، المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢، ص١٧.

(16) كان إصدار صحيفة في ليبيا أثناء حكم القذافي يحتاج إلى إجراءات شديدة التعقيد ويتطلب تصريحات كان النظام يتعمد أن تتسم بتعقيدات حتى يمكن فرض الرقابة الكاملة على الكلمة.

القذافي وزمرته أن كل تدخل خارجي لن يؤدي إلا إلى تعزيز موقع القذافي وتثبيت سلطانه.[١٧]

ومن الجدير بالذكر أن الضباط الأحرار، في ليبيا، عندما استولوا على السلطة استمدوا مشروعية وضعهم من عصر الثورات، وحركات التحرر التي عرفها العالم العربي عقب الحرب العالمية الثانية، تحت شعار المثلث (محاربة الاستعمار – محاربة الرجعية – محاربة الصهيونية). وضع القذافي خططا عجيبة من هذه الشعارات التي استعارها من قاموس الثورات الأيديولوجية الرائدة، ليطلق على الدولة الليبية الرائدة (الجماهيرية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى).[١٨]

وأصبح في ليبيا نظام سياسي من نوع خاص، أغلق فيه القذافي الأبواب أمام الصحافة والإعلام، وخلت الدولة من البرلمان والأحزاب السياسية، وسادت الدولة ديمقراطية من نوع خاص لا يوجد له مثيل في أي بلد من بلاد العالم، وأصبح كل شيء في ليبيا فريداً من نوعه، بداية بالاسم الرسمي الطويل للدولة (الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية العظمى) ومروراً بشخصية الزعيم معمر القذافي، وأرائه الفلسفية والسياسية التي تثير ردود أفعال قوية، وعلمها الأخضر وهو الوحيد في العالم الذي يحمل لوناً واحداً دون أي رموز، وكتابه الأخضر، وفلسفته المثيرة في الحكم والسياسة، وتوزيع السلطات والعلاقات المتشابكة.

ثانياً: العلاقة مع الآخر بالنظام الليبي

- تميزت العلاقات الليبية مع الغرب بموجات التقارب والتباعد فترات يوجد فيها، في بعض الأحيان، لهجة التهديد ونبرة العداء بين الطرفين، وتتجسد صورة العداء في القذف الجوي الأمريكي في عدة مواقع في مدينتي طرابلس وبنغازي سنة ١٩٨٦،

---

(١٧) الطاهر بنجلون: الشرارة انتفاضات في البلدان العربية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢، ص١٠٢.

(١٨) علي حرب: ثورات القوى الناعمة في العالم العربي من المنظمة إلى الشبكة، بيروت: الدار العربية للعلوم، سنة ٢٠١٢، ص٨٥.

إلى جانب الحظر الجوي الذي فرضته كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا على ليبيا طوال التسعينات، وفترات أخرى كان يودها علاقات حميمة، واستقبالات حافلة للزعيم القذافي في مقر المفوضية الأوروبية في بروكسل، وتلاقى القذافي مع رئيس فرنسا في طرابلس، بعد أن تخلت ليبيا طواعية عن برنامج سري لتطوير أسلحة الدمار الشامل ٢٠٠٣م[١٩]. ويمكن أن نقرر أن ليبيا على مدى خمسة وثلاثون عاماً شهدت نظام حكم لاهو بالجمهوري ولا بالملكي، لاهو بالثوري ولا بالرجعي، لاهو بالتقليدي ولا بالحديث، ولا هو باليداني ولا بالقبلي، لأن كل هذه الأنماط من السلطة لها قواعدها القائمة على ثنائية المباح والمحظور، أو المشروع وغير المشروع. أما القذافي فقد نفى كل القواعد والتقاليد والأعراف، لأن كل شيء عنده مباح الأمر اعترض عليه أو عارضه[٢٠]. وقام القذافي بإلغاء منصب الرئاسة، لا لكي يصبح الأمر فوضى بين الناس، بل لكي يتدخل في كل شأن من غير رقيب أو حسيب، أي بدون أن يسأل عن فعله. في حين أن الحاكم هو المسئول أصلاً، أي الذي يُسأل أمام الناس أياً كان نمط الحكم، وبذلك مارس القذافي سلطة تتيح له أن يفعل ما يشاء، مسخراً السلطة لأهوائه ونزواته ولا يسأل عن فعله. وهذا ما أدى إلى غليان الشعب، وقيام الشباب الليبي بثورته في ٢٠١١/٢/١٧م.

أما عن علاقات الثورة الليبية بالعرب، فقد اختلفت الصورة من دولة إلى دولة، وبرغم أن النظام الليبي، برئاسة القذافي، كان عضواً في اتحاد الشمال الإفريقي الذي شمل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا، إلا أنه كان مذبذباً في مواصلة

---

(19) بافاللي باولو، ونيكولاي إستاريكوف: تاريخ ليبيا من عمر المختار إلى معمر القذافي، ترجمة هند رشدي وفوزي ربيع، القاهرة – دار الإعلان والصحافة للنشر والتوزيع ٢٠١١، ص ١٦٠.

(20) حرب مرجع سابق ص ٨٨.

الاجتماعات، وكانت علاقاته بأكبر الدول العربية مساحة، وتقصد بها المملكة العربية السعودية كانت على غير ما يرام.[٢١]

أما بالنسبة لمصر فكانت في حالة ذبذبة بشكل دائم، واستغل الأوضاع الإقتصادية في مصر، وكان يضغط عليها من ناحية العمالة المصرية في ليبيا. كان الليبي لا يعمل خارج بلده، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا يعمل حتى في وطنه ولا يعود ذلك إلى قلة عدد سكان ليبيا مقارنة بثرواته النفطية الهائلة، وإنما يعود إلى نهج اقتصادي اعتمدته الدولة الليبية من أربعة عقود، ينهض على نظام اجتماعي ابتكره القائد معمر القذافي، وهو النهج الذي جعل الطبقة الوسطى في ليبيا هي الطبقة الأوسع انتشاراً، لتطبيق النظرية الاقتصادية التي تستند إلى مبدأ شركاء لا أجراء. ومن الجدير بالذكر أن المتخصصين العرب في علم الاقتصاد لا يتوقفوا عند هذه النظرية لأسباب مختلفة فرغم بساطتها إلا أنها مثيرة لاهتمام والجاذبية والجدل. وقد وضعت الدولة الليبية جزءاً كبيراً من عائدات النفط لتوزيعه بشكل متساوٍ على الأسر والعائلات الليبية، في إطار عُرف بالمحافظ الاستثمارية، التي تبلغ قيمة المحفظة الواحدة منها – التي تمنح شهرياً لكل أسرة محدودة الدخل– ثلاثين ألف دينار.[٢٢]

يستلم منها خمسمائة دينار شهرياً أو ما يعادله ٦٢٥ دولار، ووزعت هذه المحافظ منذ عام ٢٠٠٧، حيث كشف العقيد القذافي عن وجود مليون فقير في ليبيا، وبدأ التوزيع بالعائلات الأكثر حاجة، ثم اتسعت الدائرة بالعائلات الأقل احتياجاً، وقد بلغ عدد الأسر المستفيدة من هذا المشروع ١٨٠ ألف أسرة ليبية، حسب إحصاءات صندوق الاتحاد الاقتصادي والاجتماعي الذي أسندت إليه مسئولية تنفيذ هذه المهمة، وكانت

(21) إبراهيم أولتيت: الدول العربية وتحديات العلاقات مع الآخر: الدار البيضاء المغربي ٢٠٠٩.
(22) مجلة التنمية والسياسات الإقتصادية: تصدر عن المعهد العربي للتخطيط بالكويت – يونيو ٢٠١١م.

النتيجة الأولى أن هناك حدا أدنى من المال يتوفر شهرياً، وهو الحد الأدنى الذي يسمح لأي مواطن ليبي باختيار طبيعة وشروط العمل الذي سيؤمن له دخلاً آخر.

وفي ضوء ذلك: يمكن القول بأن العامل الاقتصادي يحذف في الحالة الليبية من شروط إندلاع الثورة[٢٣]. ومن المثير للدهشة أن فقراء ليبيا، وخصوصاً في منطقتي أبو سليم والهضبة في طرابلس، كانا يشكلان أحزمة بؤس وفقر نسبي مقارنة بسواهما حول طرابلس، وكان العقيد يتوجس منهما، إلا أنهما شكلا حزام أمان للعقيد ونظامه، وللأسف الشديد، وبرغم الأيادي البيضاء لنظام القذافي على الفضائيات العربية؛ فإن هذه الفضائيات بذلت الكثير من الجهد لتظهر القذافي صاحب الثراء الفاحش، إلا أنها لم تتمكن من إثبات ما حاولت أن تشيعه بين جماهير ليبيا والعالم العربي. وإذا كان من الطبيعي أن يقف فقراء طرابلس مع قائدهم طوال فترة بقائه فيها، فإنه ليس من الطبيعي أن يسأموا من موقفهم بعد سقوط طرابلس وانتقال القذافي إلى مدينة (سيرت)، لكن تأييدهم ظل للقائد، مما دفع الثوار وطائرات الناتو إلى تدمير أبو سليم. وقد أثبتت مجريات الأزمة والأحداث، في ليبيا، أن المعركة لم تكن بين فقير وغني، فلو كان الأمر كذلك لكان كل الفقراء في جبهة، ووقف كل الأغنياء في جبهة مضادة، ولكن الأمر لم يكن على هذا النحو، حيث أن هناك من حمل السلاح ضد القذافي، لكن لم يفعلوا ذلك لأنهم فقراء، وإنما لأسباب أخرى، حيث كان أول المنشقين على نظام القذافي هم المسئولون الذين يتولون السلطة التنفيذية في ليبيا، وكان هدفهم الأكبر من عملية التحريض على التمرد على الزعيم الليبي أن يحاسبوا على ما فعلوا.

صحيح هناك ظواهر فساد وإفساد ورشاوي ومسمرة، كانت ذائعة الصيت في المجتمع الليبي، وكانت السبب في التظاهر والاحتجاج والتذمر، ومع ذلك تمتعت ليبيا بتعليم على حساب ونفقة الدولة، فالتعليم من المرحلة الابتدائية وحتى التخصيص في الخارج كان على حساب ونفقة الدولة، وبهذا تكون ليبيا الدولة شبه الوحيدة التي تتكفل،

---

(23) شندي – مرجع سابق ص٩١.

بشكل كامل، بتكاليف دراسة طلابها في الخارج بغض، النظر عن انتماءاتهم القبلية والعرقية.[٢٣]

وإلى جانب التعليم المجاني هناك التطبيب لكل مواطن ليبي، وكانت الحالات الصحية يتم علاجها على نفقة الدولة في الخارج. وربطت ليبيا بتونس ومصر والأردن، وبعض الدول الأوروبية، اتفاقات صحية وطبية، وفوق ذلك وفرت القوانين الليبية لكل أسرة مسكنها، حيث شيدت في كل المدن والقرى الليبية مساكن لائقة للشباب، وبيعت لهم بأسعار أكثر من تشجيعية، بل كادت تصل إلى شبه مجانية. وكانت أسعار الكهرباء في ليبيا زهيدة بل شبه مجانية، وكانت لا تزيد كافة ضرائب الخدمات عن ٢٠% من دخل أفقر أسرة ليبية. ومن الجدير بالذكر أن عدد سكان ليبيا لا يتجاوز ٦ ملايين نسمة، لكن كان يعيش فوق أراضيها ١٥ مليون نسمة: بين مصري، جزائري، سوري وعراقي، إلى جانب جنسيات أخرى. وفي حوار ناجح مع الآخر أنشأت، مع أفريقيا، صندوق هبات تصرف أمواله على مشاريع إنمائية ودينية واستثمارية مختلفة. إذن يمكن أن نقول في هذه الورقة، ونتيجة الاطلاع على المصادر والوثائق المحايدة: أن القذافي لم يمارس تجهيل الشعب الليبي، ولم يرسخ التخلف في بلده، وهو الاتهام الذي شوه صورته لدى الرأي العام العربي والعالمي، وبرر الحرب الأطلسية على ليبيا وقائدها.

وبمقارنة الظروف الاقتصادية في ثورات الربيع العربي سنجد أن الظروف في كل من مصر وتونس وليبيا، تجعل العوامل الاقتصادية في ليبيا ليست من محرضات الثورة، مقارنة بالثورة المصرية والتونسية.

أما عن دور البعد الاجتماعي في قيام الثورة الليبية؛ فإن نسبة الشباب (أي سن ٢٤ فأقل) تصل إلى ٤٨%[٢٤]، والغالبية الساحقة من السكان عرب، واللغة

(24) منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (التقرير العالمي لليونسكر من مجتمع المعلومات إلى مجتمعات المعرفة) مطبوعات اليونسكو فرنسا ٢٠٠٥م، ص١٢٥.

المسيطرة هي العربية والإسلام هي الديانة المهيمنة. وتصل نسبة الخصوبة في ليبيا إلى ٤/١ طفل لكل إمرأة (معدلات عام ٢٠١٠). ويعد هرم السكان في ليبيا مثيراً للقلق، للتوجه الحاد نحو الفئة العمرية الشابة، ومع ذلك فإن الثروة الضخمة للبلد ١٢،٤ بليون دولار عام ٢٠٠٩، التي يدرها البترول والغاز الطبيعي، مع قلة عدد السكان، جعل الناتج القومي الإجمالي للفرد يبلغ (٩،٧) اى أكثر من تسعة آلف دولار.

وتشير البيانات الاقتصادية إلى تذبذب معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي في ليبيا، على مدى السنوات العشر الممتدة من عام ٢٠٠٠: ٢٠١٠م، حيث بلغ ٣،٧% عام ٢٠٠٠، ثم انخفض إلى أدنى مستوى له ١،٢٥% عام ٢٠٠٢م، ثم قفز إلى أعلى ارتفاع بالتدريج، حيث وصل إلى ١٣% عام ٢٠٠٣م، ثم انخفض إلى ٤،٤% عام ٢٠٠٤م، ثم ارتفع إلى ١٠،٣% عام ٢٠٠٥م، ثم انخفض إلى ٣،٢% عام ٢٠٠٩، وعاد الارتفاع إلى ٤،٢% عام ٢٠١٠م، ويعزي ذلك إلى اختلاف الأسعار العالمية من النفط والغاز الطبيعي.(٢٦)

ويشير التقرير الذي أصدرته منظمة العمل الدولية عن الاتجاهات العالمية للشباب في شهر أغسطس ٢٠١٠م، أن نسبة الفئة العمرية من ١٥: ٢٩ تصل إلى ٢٧،٤% من السكان.(٢٧)

من الواضح أن الحوار مع الآخر شكل في الثورة الليبية عنصراً هاماً، حيث بلغ عدد المشاركين من ليبيا في الإنترنت ٣٥٤ آلف نسمة، بنسبة ٥،٤ من مجموع سكان ليبيا عام ٢٠١١، وأن عدد المشاركين في الـ FaceBook بلغ ٥٣ آلف نسمة،

---

(25) U – N, Statistics population, section of population united nation 2011, table I.

والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي – تقرير التنمية الإنسانية والعربية عام ٢٠١١م نحو إقامة مجتمع المعرفة.

(26) قسم السكان بالأمم المتحدة ٢٠١١م، جدول ١.

(27) تقرير منظمة العمل الدولية ILO ٢٠١٠م.

يمثلون ١٠،٨% من مجموع السكان، وبرغم تلك المشاركة المحدودة للشعب الليبي في وسائل الاتصال الاجتماعي، إلا أنه عوضها في استخدامات الهاتف الجوال التي اتسعت اتساعاً كبيراً بين سكان ليبيا، حيث قفزت نسبة المستخدمين من ١،٣% عام ٢٠٠٢، إلى ٧٣،١% من المجموع الكلي للسكان.[٢٨]

تؤكد الإحصائيات السابقة أن الحوار مع الآخر بين الفئة المثقفة الليبية والخارج؛ كان في نمو متزايد. ولكن من الجدير بالذكر أن العامل القبلي كان هو العامل الرئيسي المتحكم في العلاقات بين أبناء القبيلة الواحدة، وفي علاقات أي قبيلة مع القبائل الأخرى، وهو حجر الأساس الذي بنيت عليه الهياكل السياسية والإدارية والأمنية والاقتصادية للدولة الليبية، من رأس الهرم إلى القاعدة[٢٩]. وتحالفت قبيلة القذاذفة التي ينتمي إليها معمر القذافي – برغم قلة عدد أبنائها مقارنة مع القبائل الكبرى إلا أنها من القبائل الوازنة بفعل تحالفها خصوصاً مع قبيلة ورفلة. ولعل التساؤل هو: هل كانت ثورة ليبيا، التي نحن بصدد أحداثها، كانت هي أولى المحاولات للخروج على القذافي؟ نقول لا، حيث إن الزعيم الليبي سنه ١٩٧٧ تعرض لمحاولة إنقلاب فاشلة، قادها عمر المحيشي أحد ضباط الثورة الليبية ورفيق القذافي، وكان هدفها ينحصر في الإطاحة بالقذافي وتركيباته الحاكمة ممثلة بحركة الضباط الأحرار، ولكن كانت نتيجة هذه المحاولة إيجابية على القذافي.[٣٠]

وقد حاول نظام القذافي، منذ بداية ثورة ١٧ فبراير ٢٠١١م، تحريك المدن والمناطق من خلال استنفاره للرصيد القبلي: إعلامياً وعسكرياً وسياسياً، ولكن فشل.[٣١]

---

(28) لاريموند: ليبيا والاستهلاك التكنولوجي مترجم، باريس ٢٠١٢م ص١٥.

(29) علي شندي: القذافي يتكلم، أسرار الحكم والحرب والثورة – بيروت ٢٠١٢م، بيان للنشر والتوزيع والإعلام ص١٠٦.

(30) علي شندي: مرجع سابق ص١٠٧.

(31) محمد نجيب بو طالب: الظواهر القبلية والجهوية في المجتمع العربي المعاصر، الدوحة ٢٠١٢م، المركز العربي لأبحاث ودراسات السياسات، ص٦٩.

ويقدر عدد القبائل الليبية بنحو ١٥٠ قبيلة متفاوتة الأحجام، وتنقسم القبائل بدورها إلى فروع قبلية، لكن العدد يتضائل بسبب ارتفاع معدلات النحر في المجتمع الليبي.[٣٢]

ثالثاً: أثر سلوكيات القذافي وأبنائه في نشوب الثورة

يؤخذ على العقيد معمر القذافي وأبنائه؛ ممارسة بعض السلوكيات غير اللائقة حضارياً وسياسياً بالزعيم القائد، وتسبب كثير من الانتقادات في ردود فعل من جانب الشعب تجاه السلطة الحاكمة، وكان أبرز هذه الانتقادات على النحو التالي:

- إنشاء الاتحادات فقد أصيب القذافي بشغف لإنشاء الاتحادات، سواء مع الدول الإفريقية أو العربية.

حيث تمت على مدى العقود الأربعة من حكمه لليبيا؛ ست محاولات للوحدة لم يكتب لها النجاح[٣٣] وهي:

١) ميثاق طرابلس الوحدوي بين مصر والسودان وليبيا في ١٩٦٩/١٢/٢٧م.

٢) اتحاد الجمهوريات العربية بين ليبيا ومصر وسوريا في ١٧ أبريل ١٩٧١م باعتبارها النواة الأساسية لتحقيق الوحدة الشاملة.

٣) الإعلان عن الوحدة الإندماجية بين ليبيا ومصر عام ١٩٧٣/١/٩م، عقب المسيرة الشعبية التي قادها القذافي إلى مصر.

٤) بيان جربة لإقامة الجمهورية العربية الإسلامية بين تونس وليبيا، في ١٢ أبريل ١٩٧٤م.

٥) بيان حاسي مسعود الوحدوي بين ليبيا والجزائر، الصادر في ٢٨ ديسمبر ١٩٧٥م.

---

(32) محمد نجيب بو طالب، مرجع سابق، ص٧٢.

(33) بافانسي بولو ونيقولاي ستاريكوف: مرجع سابق، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

٦) بيان وَجده الوحدوي بين المغرب وليبيا لإقامة الاتحاد العربي الإفريقي، الصادر ١٨ أغسطس ١٩٨٤م.

وارتبطت بشخصية الزعيم الليبي مظهرية الحكم، والتي تجسدت في ثلاثة مظاهر لفتت إليه الأنظار، في زيارته لدول العالم المختلفة، وهي: الحارسات النسائيات، والخيمة العربية، والملابس غير المألوفة.

ويمكن أن نضيف إلى عوامل نشوب الثورة سلوكيات أبناء معمر القذافي، والتي لا تتفق مع القيم الأخلاقية والحضارية اللائقة بأبناء زعيم دولة إسلامية[٣٤] فمثلاً: خامس أبناء القذافي هانيبال له سجل ملئ بالمواجهات مع السلطات الأوروبية، حيث اعتقل في جينيف بسبب ضرب خادمة، مما أدى إلى وقوع أزمة دبلوماسية بين سويسرا وليبيا.[٣٥]

أما ثاني أبناء القذافي وهو سيف الإسلام – وكان القذافي يعده لخلافته في حكم ليبيا – والذي حصل على درجة الدكتوراه من كلية العلوم الاقتصادية في لندن، وكان حريصاً على استرضاء الأجانب – فقد إتهم في تفجير الطائرة (لوكربي) وحكم عليه بالسجن مدى الحياة في اسكتلندا، وأفرج عنه عام ٢٠٠٩م، وسمحت له السلطات بالعودة إلى ليبيا وبيت أهله. أما ثالث أبناء القذافي فيدعى "الساعدي" وعرف بسوء سلوكه وتعاطي المخدرات، وكانت له قوات خاصة كانت تساعده في الحصول على امتيازات تجارية.

وكانت إلى جانب الأسباب السابقة ثلاث قضايا أثرت في كراهية الرأي العام الدولي لنظام القذافي، مما أثر في الحوار بين الحاكم الليبي وبين الخارج.

نذكر هذه القضايا على النحو التالي:

---

(34) باقتني بولو: مرجع سابق، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(35) جريدة الأهرام المصرية ٢٠٠٩م، ص٥.

(١) قضية موسى الصدر: وهو قائد شيعي لبناني كان صديقاً للقذافي الذي وجه له الدعوة لزيارة ليبيا، ولكنه اختفى وإثنان من زملائه أثناء الزيارة. والتساؤل الذي يثار حتى الآن ما هو مصير موسى الصدر؟ هل هو ميت أم حي؟ وأكد الرائد الهوني أن الإمام الصدر قتل خلال زيارته، ودفن في منطقة سبها جنوب ليبيا بينما أعلن نجل الإمام الصدر أن والده حبيس في أحد السجون الليبية.

(٢) قضية لوكربي: تعد هذه القضية من أخطر التحديات التي واجهها معمر القذافي مع الغرب، وبرغم أن الغرب لم يكن لديه حجة قوية تدين ليبيا، إلا أن الغرب استطاع الحصول على قرار من مجلس الأمن يلزم ليبيا بتسليم اثنين من مواطنيها مشتبه في ضلوعهما في حادث تفجير الطائرة، وصدر القرار بصيغة يمكن تطورها إلى حد استخدام العمل العسكري ضد ليبيا، تطبيقاً للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة.[٣٦]

(٣) الممرضات والبلغاريات: غضب العقيد معمر القذافي على الممرضات البلغاريات القادمات إلى ليبيا للعمل بمرتبات مجزية، وانتهى الأمر إلى السجن لاتهامهن بحقن ٤٣٦ من أطفال بنغازي بفيروس الإيدز، وقد حامت الشكوك حول مصداقية الاتهام، مما آثار الجدل. وانتهت القضية بدفع تعويضات لأسر الأطفال المصابين بلغت نحو نصف مليار دولار، وإزداد الأمر تعقيداً عندما اعترف سيف الإسلام القذافي بتعرض الممرضات للتعذيب، ولم تدفع بلغاريا فلساً واحداً لليبيين، وقام القذافي بتحويل أموال الصفقة لتعود إليه.[٣٧]

---

(36) هو الفصل الذي يبيح للمجتمع الدولي أن ينيب بعض القوى العسكرية في الإعتداء على ليبيا في صورة شرعية دولية.

(37) تقرير حال الأمة العربية ٢٠١١ ـ ٢٠١٢ تحرير د/ أحمد يوسف أحمد ود/ نيفين ـ مصر ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ٢٠١٢م ـ ص٢٢٠.

نشوب الثورة وتطور أحداثها

بدأت الثورة في صورة مظاهرات شعبية سلمية في شرق البلاد وطالبت برحيل النظام، وتوسعت الحركة الاحتجاجية وتوجهت غرباً، وبرغم تصدي قوات الأمن بعنف لها، إلا أنها نجحت في لفت الأنظار إليها، وحاول العقيد القذافي أن يجعل أنصاره يقودون مظاهرات احتجاجية تواجه تلك المظاهرات، لكنه لم يستطع أن يتصدى للثورة وتمرد الجماهير. وبدأت الانتقادات من خارج ليبيا تجاه القذافي تطالبه بالتنحي، وصدرت بيانات دولية تؤكد أن أعمال القذافي، تجاه المتظاهرين، تحولت إلى جرائم ضد الإنسانية.

وقامت سويسرا[٣٨] بتجميد أموال القذافي وعائلته، وفي ٢٥ فبراير قامت ألمانيا وبريطانيا بإرسال طائرات عسكرية على ليبيا لإجلاء رعاياهم، كما قامت تركيا بعمل جسر جوي، وفي اليوم التالي قام قتال عنيف في مدينة الزاوية القريبة من طرابلس، وحاولت ليبيا أن تتهم رسمياً الولايات المتحدة الأمريكية بوقوع ما أسمته بالمؤامرة. وفي أول مارس ٢٠١١ قامت الأمم المتحدة بتعليق عضوية ليبيا في مجلس حقوق الإنسان التابع للمنظمة الدولية، بسبب ما وصفته بالقمع المفرط الذي تمارسه قوات الأمن ضد الثوار، وبدأ الثوار تدريجياً يسيطرون سيطرة كاملة على مناطق محددة، وطالب الرئيس الإندونيسي "سوسيلو بامبينج يو يونو" تدخل الأمم المتحدة لإيقاف العنف والقتال في ليبيا.

إن ما قام به المتظاهرون في ليبيا، منذ ١٧ فبراير ٢٠١١م من احتجاجات كانت تطالب بإسقاط القذافي ونظامه، ولا يمكن الجزم بأن هذه الاحتجاجات كانت متوقعة على السلطة والسيطرة التامة على مطالب الأمور، وإن كان لا يمكن الإنكار بأن ثورتي تونس ومصر قد أثرت على أحداث الثورة الليبية. وطالبت مجموعة من الشخصيات والفصائل والقوى السياسية والهيئات الحقوقية بتنحي الرئيس الليبي، وقامت أجهزة الإعلام

---

(38) صحيفة فينانشيال تايمز البريطانية ٢٠١٢م، ترجمة أمجد فتحي.

بالتعبير عما يدور: البعض في استحياء والبعض في شكل واضح، إلى أن عبر الاتحاد الأوروبي وعدد من الدول الغربية عن القلق الشديد إزاء تطور الأحداث في ليبيا، ودعوا إلى نبذ العنف فوراً، والدعوة إلى حوار بين جميع الأطراف في ليبيا.

وعبرت الخارجية الأمريكية عن قلقها الشديد؛ مما أسمته بالتقارير الخاصة بالصور المقلقة القادمة من ليبيا، ولم تلبث أن تطورت الأمور سريعاً، فسقط عدد من المدن الليبية في أيد المتظاهرين، وقدم عدد كبير من السفراء الليبيين، المعتمدين في الأمم المتحدة، استقالتهم احتجاجاً على استخدام النظام الليبي الطائرات لقذف المتظاهرين من أبناء الشعب الليبي، وأطلق الشيخ يوسف القرضاوي، الداعية الشهير المقيم في قطر، فتاوي تحرض على قتل معمر القذافي، من خلال سحب الشرعية الدينية عنه، وصولاً إلى حد تكفيره، وأدت هذه الفتاوى دورها في اهتزاز مبايعات الكثير من مشايخ ليبيا، كما استخدم الإعلام الفضائي العربي، وبالذات قناة الجزيرة أوراقاً تطعن في إسلام القذافي وانتمائه إلى ليبيا، وتتحدث عن يهوديته[٣٩] .

نهاية القذافي:

أصدر مجلس الأمن القرار رقم ١٩٧٣ بفرض عقوبات على النظام الليبي، وتحركت قطع عسكرية غربية بالقرب من الشواطئ الليبية، في تجمع ليس له مثيل من أجل إنقاذ السكان المدنيين من الشراسة القاتلة للقذافي ومرتزقته، وأتاح القرار ١٩٧٣ لحلف الناتو القيام بتوجيه الضربات الجوية التي كانت سبباً مهماً في إسقاط القذافي (وقتله يوم ٢٠ أكتوبر ٢٠١١م) وأعلنت روسيا أن القذافي مات سياسياً ولابد له من الرحيل، وقالت مندوبة الولايات المتحدة، لدى هيئة الأمم المتحدة، إن الزعيم الليبي يعيش في وهم.[٤٠]

---

(39) مصطفى الحباب: (محرر) الإسلاميون عام ٢٠١٢م – بيروت، الانتشار العربي سنة ٢٠١٣م، ص٧٢.

(40) بافيني: مرجع سابق، ص١٦٢.

وقد شارك الطيران الأمريكي، وخصوصاً الطائرة بدون طيار، التي أطلقت مجموعة من الصواريخ على رتل سيارات كان يركبها القذافي، وركزت كل تلك الضربات على سيارة القذافي التي ترجل مصاباً بجراح في رأسه، وانتهى الأمر بالقبض على القذافي وبعض أنصاره، وبقوم المطاردون له بقتله. وفي النهاية لم ينفع القذافي وأولاده، كحاكم، كل ما قام به، ولم يشفع محاولته في تطوير ليبيا والتي لا تنكر، وذلك لأنها كانت في النهاية تصب لصالح القذافي وأسرته، ولاشك أن انشقاق المقربين إليه في آخر أيام الثورة، وبالذات عبد السلام جلود النائب الأول له، وخيانة محمد المقريف قائد الحرس الجمهوري، وكذلك انشقاق وزير خارجيته موس كوس، ووزير النفط شكري غانم، ووزير الصحة محمد حجازي، ومولده الجديد إلى الأمم المتحدة على الزيكي. وحدث انشقاق دبلوماسي غير مسبوق في سفارات الجماهيرية لدى الجامعة العربية والأمم المتحدة، ثم في واشنطن ولندن وباريس.

ومما يؤكد سوء الحوار مع الآخر العربي: أن الدول العربية بما فيها الخليجية سحبت سفارتها من طرابلس في الأيام الأولى للثورة، واعترفت بالمجلس الوطني الانتقالي قبيل سقوط طرابلس. وكانت صدمة القذافي في كل ما حدث حوله هو: انشقاق الرائد عبد السلام جلود رفيق دربه، ووقوفه في قناة الجزيرة العربية صدمة كبيرة، واعتبرها المحللون السياسيون مؤشراً لسقوط طرابلس.[41]

ويمكن إبعاز نجاح الثورة إلى رعونة القذافي في مواجهاتها إلى نجاح التدخل الأجنبي في إسقاط النظام الليبي بعملية عسكرية شارك فيها حلف الناتو (حلف شمال الأطلسي).

ولا شك في المشهد الرمادي الذي عاشت فيه ليبيا، سواء في الصراع على السلطة، أو خلال الرحلة الضالة للبحث عن أرقى نظام سياسي تتنباه الجماهيرية. ولكن برغم أن بقية الثورات العربية تميزت بالفاعل الداخلي؛ فإن ثورة ليبيا تميزت بالتدخل

---

(41) الأهرام ٢٠ أكتوبر ٢٠١١م.

الخارجي، وإدانة الجامعة العربية لها بالانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان والقانون الإنساني الدولي.

ونختتم بالكلام عن إنجازات الثورة الليبية في النقاط التالية:

١) حقق حلف الناتو والثوار الليبيين الذين قاتلوا معه التخلص من العقيد القذافي بقتله في مدينة سرت ٢٠ أكتوبر ٢٠١١م.

٢) عودة الهدوء إلى القبائل والجماعات السياسية الليبية بشكل متواضع، على عكس ما كان يتوقعه الكثيرون.

٣) بروز ولاءات قوية للمناطق والجهات لدى الفاعلين السياسيين.

٤) حصول تحول في بنية العلاقات الاجتماعية وفي مظاهر انتماء الأفراد.

٥) إقرار القانون الانتخابي، في ١٢ فبراير ٢٠١٢، الذي اعتمد نظاماً انتخابياً يجمع بين نظام الأغلبية وخصص له ١٢٠ مقعداً، والنظام النسبي وخصص له ٨٠ مقعداً.

٦) أجريت أول انتخابات تشريعية لبرلمان ليبي في ٧ يوليو ٢٠١٢م، ووصل عدد المسجلين في الانتخابات نحو ٢،٧٢٨،٢٤٠ مواطن ليبيا حسب أرقام المفوضية العليا للانتخابات، وفاز فيها تحالف القوى الوطنية حيث حصل على ٣٩ مقعداً وحصل حزب العدالة والبناء (مرجعية إسلامية) على ١٧ مقعداً، وحصلت الأحزاب الصغيرة على ٢٤ مقعداً من جملة ٨٠ مقعداً خصصت للأحزاب.[٤٢]

الخاتمة:

لا يبقى في نهاية هذه الدراسة سوى القول بأن هناك تحديات تواجه ليبيا، أسوة بتلك التحديات التي تواجه دول ثورات الربيع العربي نذكر منها:

لابد من تجاوز الفرقة التي قامت بين المجموعات القبلية بعضها والبعض، ولابد من مواجهة مشكلة مليوني ليبي من أرض الوطن خوفاً من الاضطهاد والثأر منهم نتيجة لارتكاب بعض المجازر الجماعية. وهناك ضرورة عامة لتجريد الليبيين من

(42) الجريدة الرسمية – ليبيا – طرابلس – أول أغسطس ٢٠١٢م.

السلاح، لكن ثوار ليبيا يرفضون إلقاء السلاح، لأنه عنصر القوة الوحيد الذي يسمح لكل فريق من الثوار بفرض كلمته ونيل حصته من غنائم الحرب، ورسم مناطق النفوذ. وأخيراً يجب أن نقر ونعترف بأن ليبيا الدولة أصبحت مصطلحاً من الماضي البعيد، حيث قوى اتجاه الليبيين إلى إقامة نظام سياسي جديد يرتكز على الفيدرالية القبائلية، أو حتى فيدرالية الدولة، وهذا يتطلب تجاوز هذا الاتجاه من أجل الحفاظ على الوحدة الليبية.

قائمـــة المراجـــع:

١) إبراهيم أوتنيت: الدول العربية وتحديات العلاقات مع الآخر: الدار البيضاء المغربي ٢٠٠٩.
٢) تقرير حال الأمة العربية ٢٠١١ – ٢٠١٢ تحرير د/ أحمد يوسف أحمد ود/ نيفين – مصر – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ٢٠١٢م – ص٢٢٠.
٣) بافانني باولو، ونيكولاي استاريكوف: تاريخ ليبيا من عمر المختار إلى معمر القذافي، ترجمة هند رشدي وفوزي ربيع، القاهرة – دار الإعلان والصحافة ٢٠١١، ص١٣٩.
٤) بافانني باولو، ونيكولاي استاريكوف: تاريخ ليبيا من عمر المختار إلى معمر القذافي، ترجمة هند رشدي وفوزي ربيع، القاهرة – دار الإعلان والصحافة للنشر والتوزيع ٢٠١١، ص١٦٠.
٥) تقرير منظمة العمل الدولية ILO ٢٠١٠م.
٦) جريدة الأهرام المصرية ١٦ أكتوبر ١٩٧١ ص٣.
٧) جريدة الأهرام المصرية ٢٠٠٩م، ص٥.
٨) الجريدة الرسمية – ليبيا – طرابلس – أول أغسطس ٢٠١٢م.
٩) حيث قامت الثورة الليبية في أول سبتمبر ١٩٦٩ وقتل القذافي في ٢٠١٢م.
١٠) صحيفة الفيناشيال تايمز البريطانية – ٢٠ فبراير ٢٠١١م المقال الإفتتاحي.
١١) صحيفة فيناشيال تايمز البريطانية ٢٠١٢م، ترجمة أمجد فتحي.
١٢) الطاهر بنجلون: الشرارة انتفاضات في البلدان العربية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢، ص١٠٢.
١٣) علي حرب: ثورات القوة الناعمة في العالم العربي من المنظومة إلى الشبكة – بيروت – الدار العربية للعلوم ٢٠١٢م، ص ص ٨٧ – ٨٨.
١٤) علي حرب: ثورات القوى الناعمة في العالم العربي من المنظمة إلى الشبكة، بيروت: الدار العربية للعلوم، سنة ٢٠١٢، ص٨٥.
١٥) علي شندي: القذافي يتكلم (أسرار الحكم والحرب والثورة) بيروت: بيان للنشر والتوزيع والإعلام ٢٠١٢م، ص ٢٠ – ٣٥.
١٦) علي شندي: القذافي يتكلم، أسرار الحكم والحرب والثورة – بيروت ٢٠١٢م، بيان للنشر والتوزيع والإعلام ص١٠٦.
١٧) علي شندي: مرجع سابق ص١٠٧.
١٨) عمار حيدر: آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديثة – الدار العربية للكتاب طرابلس ١٩٩١ ص٣٢.
١٩) قسم السكان بالأمم المتحدة ٢٠١١م، جدول ١.

٢٠) كان إصدار صحيفة في ليبيا أثناء حكم القذافي يحتاج إلى إجراءات شديدة التعقيد ويتطلب تصريحات كان النظام يتعمد أن تتسم بتعقيدات حتى يمكن فرض الرقابة الكاملة على الكلمة.
٢١) الكتاب الأخضر.
٢٢) لاريموند: ليبيا والاستهلاك التكنولوجي مترجم، باريس ٢٠١٢م ص١٥.
٢٣) مجلة التنمية والسياسات الاقتصادية: تصدر عن المعهد العربي للتخطيط بالكويت – يوليو ٢٠١١م.
٢٤) مجلة شئون عربية العدد ١٥٥ خريف ٢٠١٣م (مجلة فصلية تصدر عن الأمانة العامة بجامعة الدول العربية العربية ص٣٥.
٢٥) محمد نجيب بو طالب: الظواهر القبلية والجمهورية في المجتمع العربي المعاصر، الدوحة، المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢، ص٦٧.
٢٦) محمد نجيب بو طالب: الظواهر القبلية والجهوية في المجتمع العربي المعاصر الدوحة ٢٠١٢م، المركز العربي لأبحاث ودراسات السياسات، ص٦٩.
٢٧) مصطفى الحباب: (محرر) الإسلاميون عام ٢٠١٢م – بيروت، الانتشار العربي سنة ٢٠١٣م، ص٧٢.
٢٨) المنصف وناس: السلطة والمجتمع والجمعيات في ليبيا، تونس: مطبعة الوفاء ٢٠٠٠م، ص٨١.
٢٩) منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (التقرير العالمي لليونسكر: من مجتمع المعلومات إلى مجتمعات المعرفة) مطبوعات اليونسكو فرنسا ٢٠٠٥م، ص١٢٥.
٣٠) موقع "مرالفور مانزيوني كورتيا الإيطالي" – بقلم زيفي مازيل – ١٧ فبراير ٢٠١١م.
٣١) موقع فورين بوليس الأمريكي بقلم – ديفيد وتكويف ١٧ فبراير ٢٠١١م.
32) U – N, Statistics population, section of population united nation 2011, table 1.
والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي – تقرير التنمية الانسانية والعربية عام ٢٠١١م نحو إقامة مجتمع المعرفة.

العرب والملايويون في القرون الإسلامية الوسيطة[1]
(ق ٧ - ق١٠ هـ / ق ١٣ - ق ١٦م)

أ.د. غيثان بن علي بن جريس
أستاذ التاريخ الإسلامي - جامعة الملك خالد

في هذه الورقة نلخص المحاور الرئيسة التي ناقشناها في البحث الرئيس ، وهي على النحو التالي :

أولا : الملايويون هم سكان أرخبيل الملايو (إندونيسيا ، وماليزيا ، والفلبين، وما جاورها) في جنوب شرق آسيا . وقد ناقشنا أصول الجنس الملايوى ، ووجدنا أن هناك آراء عديدة تذكر موطنهم الأول ، ففريق من الباحثين ذكر أنهم من جزيرة سومطرة الإندونيسية ، ورأي آخر يذكر قدومهم إلى جنوب شرق آسيا من مرتفعات شبه القارة الهندية ، وفريق ثالث يذكر أن أصولهم تعود إلى الجنس المنغولي ، وأصحاب هذا القول الأخير يذكرون أنهم وصلوا إلى بلاد الأرخبيل من شمال الهند المحاذية لجنوب الصين ، وعلى وجه الخصوص من مرتفعات يونان، أي شمال الهند الصينية [2] .

---

(١) هذه الورقة قدمت في مؤتمر اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة لعام (٢٠١٣م) خلال يومي الأربعاء والخميس (٢-٣ من شهر المحرم١٤٣٥هـ الموافق ٦-٧ نوفمبر٢٠١٣م). وفي هذا المؤتمر تم تكريم صاحب هذه الورقة ضمن كوكبة من شوامخ المؤرخين العرب لعام (١٤٣٥هـ/٢٠١٣م).

(٢) للمزيد انظر علي بن الحسن المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت : دار بيروت ، ١٤٠٤ هـ /١٩٨٤ م) مج ١، جـ ١، ص٣٢٤ وما بعدها ، غيثان بن علي

ثانياً: تحدثنا بإيجاز عن انتشار الإسلام في بلاد الملايو قبل القرن (٧ هـ/ ١٣م)، وفي هذا العنصر ذكرنا العديد من العوامل السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية التي ساعدت على وصول الإسلام إلى الديار الملاوية، ثم أوردنا بعض التفصيل عن حملة الإسلام الأوائل إلى الملايويين، وكيف كان العرب أقدم وأول من نقل الإسلام إلى الجنس الملايوي [١].

ثالثاً: ركزنا في هذا المحور على نشأة وتطور القوى السياسية التي ظهرت في اندونيسيا وماليزيا وما جاورها، خلال العصر الإسلامي الوسيط (ق٧ – ق ١٠ هـ/ق١٣ – ق١٦م) [٢]. ومن أهم الحكومات السياسية التي لها أصول عليا عربية في تلك الفترة: إمارة بيرلاك [٣]، وممالك باساي، وملقا، وآتشية[٤]، ودول

بن جريس . الوجود الاسلامي في أرخبيل الملايو (إندونيسيا وماليزيا انموذجاً – ق ١ – ق ١٠ هـ / ق ٧ – ١٦م) (الرياض : مطابع الحميضي ، ٣٠ – ١٤٣١ هـ / ٢٠٠٩ – ٢٠١٠ م) ، ص ٣٣ – ٣٩ . ومن الملاحظ أن الهنود والصينيين والعرب قد خالطوا الملايويين في بلادهم من عصور سابقة للإسلام ، ولا زالوا يعيشون جنبا الى جنب حتى عصرنا الحاضر

(١) انظر أحمد يحيى البلاذري . فتوح البلدان. تحقيق رضوان محمد رضوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص١١٥ وما بعدها. المسعودي، مروج، مج ١، جـ١، ص١٥٨. حسين مؤنس. عالم الاسلام (القاهرة: دار المعارف ، ١٩٧٣ م) ص٧٥، ٧٦، عبد الغني يعقوب يوسف قطاني. دور العرب في نشر الإسلام جنوب شرق آسيا .رسالة دكتوراه من كلية اللغة العربية ، جامعة الازهر (١٣٩٧هـ /١٩٧٧)، ص١١٤ وما بعدها.

(٢) للمزيد انظر، عبد الوهاب بن الحاج كيا. مسلمو ماليزيا بين الماضي والحاضر (ليبيا: منشورات كلية الدعوة الاسلامية ، ١٩٩٣م)، ص٤٦، محمد عبد الرؤوف. " الإسلام في عالم الملايو". مجلة الوعي الاسلامي، س(١) عدد (٤) ربيع الثاني (١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥م)، ص ٧٨ وما بعدها ، مرزوقي حاج محمد طه. الإسلام في أرخبيل الملايو ، ظهوره ، وانتشاره. رسالة دكتوراه من كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر (القاهرة، ١٣٧٩ هـ/١٩٧٧م)، ص٣٩ وما بعدها.

(٣) امارة بيرلاك الاسلامية ظهرت في جزيرة سومطرة الإندونيسية قبل نهاية القرن (٧هـ/١٣م).

أخرى ظهرت في جوهور بشبه الجزيرة الملايوية (ماليزيا الغربية)[٤] ، وممالك إمارات دماك ، وباجانج ، وما ترام، وتشربون ،

ومالوكو ، وسولاويسي، وتوستنجارا، في اندونيسيا [١] ، وأثناء دراسة التاريخ السياسي والحضاري لتلك الحكومات الإسلامية؛ اتضح لنا أن اللغة العربية والنظم الإسلامية العربية، التي كانت معروفة في الشرق الأدنى، هي نفسها التي كانت سائدة ومعمولا بها في بلاد الملايو، خلال العصر الإسلامي الوسيط.كما عكست بعض المصادر العربية والملايوية الصلات الحضارية والسياسية التي كانت سائدة بين سلاطين وأمراء تلك الحكومات الملايوية، وبين حكومات وسلاطين الدول الإسلامية في الشرق الأدنى [٢] كما أشرنا إلى دور العرب العلويين الصوفيين في توطين قدم الإسلام في إندونيسيا وماليزيا ، وما بذلوه من جهود كبيرة في نشر الإسلام بين جميع طبقات المجتمع الملايوي ، وما حققوه من نجاحات لا زالت تذكر فتشكر [٣] .

---

(٤) مملكة باماي أو(سامودرا باماي) في جزيرة سومطرة خلال الفترة (ق ٧-٩هـ/ ق١٣ -١٥م). ومملكة ملقا(ملاكا) في ماليزيا الغربية(ق ٨- ق ١٠هـ/ق ١٤هـ ق ١٦م)، ومملكة آتشية في جزيرة سومطرة خلال القرن (١٠هـ/ ١٦ م).

(٥) زمن ظهور هذه الدول في القرن (١٠ هـ / ١٦ م) .

(١) هذه الممالك قامت في جزيرة إندونيسيا الغربية والشرقية خلال القرنين (٩-١٠/١٠-١٦م). وللمزيد من التفصيلات عن الممالك الاسلامية العربية التي ظهرت في بلاد الملايو من القرن السابع الى العاشر الهجري(الثالث عشر الى السادس عشر الميلادي). انظر غيثان بن جريس، الوجود الإسلامي في ارخبيل الملايو (ق١- ق١٠هـ)، ص١٥٦ وما بعدها.

(٢) قطاني ، دور العرب ، ص ١١٠ وما بعدها ، عبد القادر الحبشي . دخول الإسلام وانتشاره في اندونيسيا حتى القرن السابع عشر الميلادي . رسالة دكتوراه من كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر (١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) ، ص ٤٩٣ وما بعدها ، مرزوقي طه، ٤٧٩ .

(٣) انظر المسعودي ، مروج ، مج ١ ، جـ ١ ، ص ١٧٤ ، الحبشي ، ص ٣٣٧ وما بعدها، فان دون بريغ (فرنسي). حضرموت والمهاجر العربية في الجزر الهندية (أي اندونيسيا)

رابعاً : ناقشنا صلات العرب المسلمين في إندونيسيا في ما بينهم ، وكذلك صلاتهم بالقوى البوذية والهندوكية التي كانت تعيش في أرض الملايو، وكيف قضى العرب والملايويون المسلمون على نفوذهم وسطوتهم السياسية، وما بذلوه من جهود في التصدي للغزو الاستعماري البرتغالي؛ الذي مد نفوذه إلى أرخبيل الملايو، خلال القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) [1]. وفي نهاية الدراسة خرجنا بالعديد من النتائج والتوصيات التي نذكر أهمها في البنود التالية:

١ – العرب هم أصحاب الريادة في حمل الإسلام إلى شعوب الأرض ، وهم مع الأجناس الفارسية والهندية والصينية المسلمة ، وصلوا إلى أرخبيل الملايو ونشروا الإسلام بين الملايويين ، بل استطاعوا في نهاية الأمر بناء وتأسيس حكومات عربية إسلامية في أنحاء بلاد الملايو .

٢ – كانت قلب بلاد الملايو، مثل إندونيسيا وماليزيا، ترزح تحت سيطرة القوى والعقائد والثقافة الهندوكية والبوذية ، ولم يأت القرن السابع الهجري(الثالث عشر الميلادي) إلا وبعض نواحي هذا الأرخبيل الملايوي صارت بلاداً مسلمة، ديناً ودولة، وصارت اللغة العربية والنظم الإسلامية هي الدستور والأسس الرئيسة التي تتبعها وتحتكم إليها تلك الحكومات المسلمة، ومن ثم كانت القرون الإسلامية الوسيطة (ق ٧– ق ١٠هـ/ ق١٣– ق١٦م) هي العصر الذهبي للعرب والمسلمين في تلك الجزائر الملايوية.

٣ – لم تقف العداوة بين الشرق والغرب ، بل بين العرب المسلمين وغيرهم من القوى الغربية الصليبية، عند حد الصراعات الدامية التي وقعت بين البلدان العربية والإسلامية والغرب الصليبي في الشرق الأوسط، وإنما امتد هذا الصراع

(بتافيا، ١٨٨٦ م) ص ١٩٢ وما بعدها. غيثان بن جريس، الوجود الإسلامي في أرخبيل الملايو، ص ٢٩١ وما بعدها.

(١) انظر ، الحبشي ، ص ٤٨٢ وما بعدها ، مرزوقي طه ، ٥٢٥ وما بعدها ، محمد عبد الرؤوف ، ص ٨٣ وما بعدها ، فطاني ، دور العرب ، ص ١٠٩ وما بعدها .

العقدي إلى أقصى الشرق الأقصى، ونقلت بعض الدول الأوربية الصليبية حروبها إلى الهند وجزائر إندونيسيا وماليزيا، وذلك من أجل القضاء على الحكومات العربية والإسلامية التي ظهرت هناك، وكان البرتغاليون أول من اصطدم بالمسلمين في ماليزيا وإندونيسيا، ثم جاءت دول أخرى استعمرت البلاد والعباد، وسفكت الدماء وأهلكت الحرث والنسل في كل مكان .

٤ – إن بلاد الملايو (إندونيسيا وماليزيا والفلبين وغيرها من دول جنوب آسيا) تعد، من وجهة نظرنا، منطقة ثغور إسلامية، فهي تقع في أقصى الشرق الأقصى، وتحيط بها الدول الكافرة من كل مكان، والمسئولية ملقاة على عاتق الدول العربية والإسلامية، فتكون على اتصال مستمر مع حكومات وشعوب تلك الجزائر بالمساندة والدعم، وما يستطيعون، حتى يبقى الإسلام عالياً قوياً في ذلك الأرخبيل الإسلامي. والذي يجعلني أنادي بهذا ما لمسته أثناء جمع مادتنا العلمية لأحد مؤلفاتنا المطبوعة والمنشورة عن ذلك الأرخبيل، وأثناء زيارتنا لتلك الجزر؛ اتضح لنا الفقر المعرفي الذي نعيشه – معاشر العرب – بشأن تاريخ وحضارة تلك البلاد، والأمجاد التاريخية الشامخة التي عاشتها الحضارة العربية والإسلامية في تلك الجزر، خلال العصور الإسلامية الوسيطة . وللأسف فإن معظم جامعاتنا ومؤسساتنا الثقافية والفكرية، في البلاد العربية، تكاد تكون شبه خالية من الدراسات الحضارية والثقافية والتاريخية الخاصة بتلك الجزر الإسلامية الملايوية العريقة. فحبذا لو ارتفعت همة بعض الجامعات والمؤسسات الثقافية، في بلادنا، إلى حيث تقوم بتأسيس بعض المراكز البحثية والعلمية الخاصة بالشرق الأقصى، وبخاصة الدولة الإسلامية منها، وهذا بدون شك سوف يردم الهوة الثقافية التي نعيشها نحن العرب، ومن ثم يجعلنا على اتصال ثقافي وفكري وحضاري حقيقي بإخواننا في تلك الجزر الملايوية .

٥ – ان الباحث والمتجول في بلاد الملايو يجد النشاط المنقطع النظير، الذي تبذله القوى الهندوكية والصينية والغربية الصليبية؛ من أجل مسخ هوية تلك الأوطان العربية والإسلامية، والقضاء على دعوة الإسلام هناك. وإذا كان ثمة بعض الجامعات والمؤسسات، أو الدعاة المجاهدين الذين يبذلون جهوداً كبيرة في التصدي لتلك الهجمات الشرسة، لكنهم في مجملهم ذوو جهود محدودة وضعيفة أمام ما يدفع ويخطط له من تلك القوى المعادية.

٦ – نحن معاشر المؤرخين والباحثين في المراكز والأقسام العلمية والثقافية في أوطاننا العربية؛ يجب أن نكون على صلات جيدة بإخواننا الملايويين، وينبغي أن نوجه طالباتنا وطلابنا للدراسات العليا، وكذلك الباحثين والمهتمين في مؤسساتنا الأكاديمية، إلى أن يولوا تلك البلاد بعض الاهتمام، والتركيز على شئونها في بحوثهم ودراساتهم وندواتهم ومؤتمراتهم . كما يجب أن تكون على اتصال بالمراكز العلمية والباحثين في تلك الجزر الإسلامية، فنجالسهم ونتصل بهم ونتبادل معهم ألوان المعرفة الأكاديمية والثقافية، ونحن على يقين أن سلوك مثل هذا الطريق سيصب في النهاية في خدمة الإسلام والمسلمين، ودعم الأخوة العربية والإسلامية.

٧ – اتضح لنا في أثناء تجوالنا وزيارتنا لبلاد إندونيسيا وماليزيا؛ تأثر أهلها بالحياة الغربية البحتة، وللأسف فإن القائمين على شؤون التعليم، وبخاصة في الجامعات والمؤسسات التعليمية العامة والعالية، مغرمون ومعجبون بكل ما هو وافد من بلاد الغرب. وهذه كارثة يعيشها معظم المسلمين في البلاد العربية والإسلامية، والتأثر بالغرب في الجوانب الإيجابية أمر محمود، ولكن ما يقتبس من السلبيات يفوق الإيجابيات.

٨ – لا زالت المكتبات العريقة، في جنوب شرق آسيا وفي الجامعات الغربية، تزخر بآلاف المخطوطات والكتب النادرة التي تعكس تاريخ وحضارة العرب والمسلمين

في بلاد الملايو، خلال العصر الإسلامي الوسيط، من القرن السابع إلى العاشر الهجري (ق١٣- ق١٦م). والواجب على جامعاتنا العربية ومؤسساتنا الأكاديمية إن تدعم وتشجع دراسة وجلب مثل هذا التراث العربي العريق ، بحيث يتولاه الباحثون والمتخصصون بالبحث والدراسة والتحقيق. ومن يفعل ذلك فسوف يسدي للأمة العربية الإسلامية فضلا عظيما وكبيرا في أبواب العلم والمعرفة.

حملة المارشال الفرنسي بوسيكو على الإسكندرية وسواحل بلاد الشام (١٤٠٣م/٨٠٦هـ)

د. ياسر مصطفي عبد الوهاب
أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة كفر الشيخ

يعتقد البعض أن استرداد المسلمين لسواحل الشام ومدنه في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، هو نهاية المطاف بالنسبة للحروب الصليبية، وأن ما حدث بعد ذلك من حملات لا يعدّ كونه ضرباً من القرصنة والأعمال العدوانية، التي لا ترقى إلى مستوى الحملات الصليبية التي وقعت على الشرق، في الفترة ما بين ١٠٩٦-١٢٩١م/ ٤٩٠-٦٩٠هـ. وهو اعتقاد ليس صحيحاً تماماً، حيث إن الحملات التي جاءت أواخر العصور الوسطى، كانت لا تقل خطورة عما كانت عليه مثيلاتها من قبل، فعلى الرغم من أنها لم تحتل أرضاً، ولم تُقم مستعمرات في الشرق، إلا أن هناك العديد من الحملات لاتزال تستحق المزيد من الدراسة والتحليل، ومنها حملة المارشال الفرنسي بوسيكو Boucicaut على الإسكندرية وسواحل بلاد الشام، في عام ١٤٠٣م/٨٠٦هـ.

وفي حقيقة الأمر، أن حملة المارشال بوسيكو لم تلق الاهتمام الكافي من الكتابات والدراسات التاريخية، فيما عدا وريقات قليلة أوردها كلٌ من نورمان هوسلي Norman Hously، وديني لا لاند Denis La Lande، ضمن سردهم لحياة بوسيكو في أعمالهم[١]. في حين ذكرت الحملة في بضعة سطور في الدراسات العربية، على اعتبار أنها مجرد غارة قام بها بعض القراصنة الأوربيين على السواحل الإسلامية[٢]. ونظراً لأن ما سبق يعد أفكاراً قليلة عن تلك الحملة، برغم زخم أحداثها وما أسفرت عنه من نتائج، بالإضافة لخلو المكتبة التاريخية من بحث قائم بذاته، يتناول تلك الحملة بشكل

كاف، لذلك وقع اختيار الباحث على هذا الموضوع، مع الأخذ في الاعتبار بنصيحة المؤرخ دولافيل لو رو Delaville Le Roulx في قوله: " إنها حملة صعب تتبعها برغم تعدد مصادرها، فهي غير واضحة تماماً لا في هدفها، ولا في أحداثها، ولا في نتائجها

'Cette Expédition, que est Certaine, Pusquélle Nous est Parvenue Par des Sources Différentes, N'est Bien Claire ni Dans Son Objet, Ni Dams Ses Circonstances, ni Dans Ses Résultats'[٣]

وقبيل الخوض في تفاصيل الحملة، ونظراً لتداخل أحداثها في كثير من الأحيان وتشابكها، كان من الأوفق أن نعرض بعضاً من جوانب شخصية المارشال بوسيكو، وحياته المليئة بالأحداث، وبالطبع تشمل إعطاء صورة عن أحوال القوى السياسية الموجودة آنذاك؛ خاصة وأنه من المعروف أن الحملات دائماً ما يتأثر قادتها، والمشاركون فيها، بالأوضاع العامة المحيطة بهم، وانعكاس ذلك على سلوكهم ودوافعهم، وأن تفاعل الأحداث مع بعضها بعض؛ يؤدي في النهاية إلى تحديد نتائج تلك الحملات، سواء سلباً أو إيجاباً.

بطبيعة الحال سوف نستدل على حياة بوسيكو من خلال ما أورده عنه كاتب سيرته – والذي يعتقد أنه أحد جنوده المقربين – وذلك في كتاب الأعمال Le Livre des Faicts[١] الذي أوضح أن بوسيكو هو لقب عائلته، وأن اسمه الحقيقي هو جان الثاني لو مينجر Jean II Le Meinger، وهو فرنسي الأصل، ولد في مدينة تورين Touraine عام ١٣٦٦م/٧٦٨هـ، وينحدر من أسرة فرنسية عريقة، كان لها سمعتها كإحدى الأسر المحبة للحياة العسكرية، والمساندة للتاج الملكي الفرنسي[٢]. وعندما بلغ جان – أو بوسيكو كما أصبح يطلق عليه – السادسة عشرة من عمره، بدأ الدخول في المشاركات العسكرية، ونال ثقة الملك الفرنسي شارل السادس Charles VI (١٣٨٠-١٤٢٢م/٧٨٢-٨٢٥هـ)، الذي عهد إلى لويس الثاني دوق البوربون

Louis II duc de Bourbon برعاية بوسيكو، وبالفعل شارك الأخير مع لويس في عدة حملات ضد بعض المتمردين على الملك الفرنسي، وذلك في عام ١٣٨٢/ ٧٨٤هـ[٦] ثم شارك ضمن القوات الفرنسية المساندة لفرسان التيوتون في حروبهم ضد وثنيين ليتوانيا، في شرق أوربا في عام ١٣٨٣م/٧٨٥هـ[٧].

بدأت علاقة بوسيكو بالأراضي الإسلامية في عام ١٣٨٨م/٧٩٠هـ، عندما قام برحلة حج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، وحينما علم بوقوع صديقه فيليب دو أرتوا Philippe d' Artois في أسر السلطات المملوكية، وأنه أصبح أسيراً في القاهرة – وبالرغم من عدم إعطاء تفاصيل عن ذلك الحدث من جانب مؤلف الأعمال – إلا أنه أخبرنا بأن بوسيكو توجه إلى القاهرة ومكث بها أربعة شهور، ولم يغادرها إلا برفقة صديقه عائداً إلى الغرب الأوربي، وذلك في نوفمبر ١٣٨٩م/٧٩١هـ[٨]. وفي عام ١٣٩٠م/٧٩٢هـ شارك في الحملة التي قادها لويس دوق البوربون على مدينة المهدية في الشمال الأفريقي[٩]، وعقب عودته، منحه الملك شارل السادس لقب مارشال Maréchal نتيجة لجهوده العسكرية في خدمة التاج الفرنسي، وذلك في عام ١٣٩١م/٧٩٤هـ[١٠]، ثم لعب بوسيكو دوراً مهماً في قيادة القوات الفرنسية ضمن ما يعرف بالحلف الصليبي الأوربي، والذي نال هزيمة مريرة من الأتراك العثمانيين في معركة نيكوبوليس Nicopolis في عام ١٣٩٦م/٧٩٩هـ[١١]، والتي كانت بمثابة محنة قاسية على بوسيكو بعد وقوعه في أسر الأتراك، حيث ظل في الأسر حتى تم دفع الفدية، وإطلاق سراحه في عام ١٣٩٧م/٨٠٠هـ[١٢]، وتلا ذلك انضمامه إلى جماعة فرسان آلام السيد المسيح Militio Passionis Jhesus Christi، والتي أسسها الداعية الصليبي فيليب دوميزيير Philippe de Meziére، حيث كان من أهم أهدافها الدعوة لحملة صليبية تتوجه إلى الشرق لمحاربة المسلمين، والاستيلاء على الأراضي المقدسة[١٣]، وعندما بدأ الأتراك العثمانيون في تهديد مدينة القسطنطينية، أسرع الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني Manuel II (١٣٩١-١٤٢٥م/٧٩٤-٨٢٨هـ) في

الاستنجاد بالغرب الأوربي، وذلك في عام ١٣٩٩م/٨٠٢هـ[١١]، وكان الملك شارل السادس أول من لبى نداء العاهل البيزنطي، وكلف المارشال بوسيكو بقيادة حملة عسكرية – هدفها الأول والأساسي حماية العاصمة البيزنطية – وهو ما نجح فيه بوسيكو، وأثبت مقدرة عسكرية هائلة في ذلك[١٢]. وبعد هذا الزخم الشديد من الأحداث التي عاصرها المارشال بوسيكو، وهو لم يتجاوز بعد الثالثة والثلاثين من عمره؛ نتوقف قليلاً، حيث يرجح الباحث أن المرحلة السابقة من حياة بوسيكو كانت سبباً رئيسياً لظهور ما يعرف بالدافع الشخصي لقيام بوسيكو بحملته الصليبية على الشرق بعد بضع سنوات، إذ تسببت الأحداث السابقة في إيقاظ الروح الصليبية عنده، وزيادة كرهه للمسلمين، وذلك عقب مشاركته في حملتين فاشلتين ضدهم في المهدية ونيكوبوليس، ومحنته في مرافقة صديقه الأسير في القاهرة. وأيضاً محنته الكبرى عقب وقوعه في أسر الأتراك العثمانيين عقب معركة نيكوبوليس، ومحاربته إياهم أثناء دفاعه عن القسطنطينية، وبالطبع لا نغفل انضمامه لجماعة فرسان آلام السيد المسيح، وتأثره بأفكارها التي تدعو لشن حملة صليبية ضد المسلمين لاستعادة الأراضي المقدسة. وقد علق على ذلك المؤرخ سيتون Setton " بقوله: بأن بوسيكو وجد نفسه في صورة المحارب الصليبي الذي تمناه فيليب دو ميزيير "[١٣].

على أية حال، شهد عام ١٤٠١م/٨٠٤هـ تحولاً كبيراً في مسيرة المارشال بوسيكو، وذلك عندما اختاره الملك شارل السادس ليكون حاكماً على مدينة جنوة الإيطالية[١٧]، وكانت جنوة قد مرت بسلسلة من الثورات الداخلية، أدت بها في النهاية إلى خضوعها للملك الفرنسي[١٨]، وما إن تولى بوسيكو حكمها حتى أظهر نشاطاً واضحاً، حيث أعاد الأمن والنظام إليها، بعد طرد العناصر المثيرة للاضطرابات والفتن، كذلك نجح في الحفاظ على مستعمراتها التجارية في الخارج[١٩]. وعن ذلك يقول المؤرخ ستيفن إبستين Steven Epstein: ان بوسيكو بدأ يتصرف في جنوة وكأنها من أملاكه، وبسبب ذلك وجد نفسه في النهاية في صدام لا مفر منه، ليس فقط مع البنادقة

– العدو الدائم لجنوة – بل أيضاً مع دولة المماليك الجراكسة في مصر والشام[٢٠]، وذلك بعد تدهور النشاط التجاري لجنوة، نتيجة ازدهار العلاقات التجارية بين البنادقة والمماليك، وكثرة الامتيازات التي حصل عليها البنادقة من سلاطين المماليك، وكانت بالطبع على حساب المصالح الجنوية[٢١] الذين ما لبثوا أن أظهروا حقدهم وكرهم للطرفين المتحالفين تجارياً، وأخذوا في محاربتهما في كل مكان، في شكل عمليات قرصنة ضد سفنهما في البحر المتوسط، أو مهاجمة متاجرهما على السواحل المملوكية في مصر والشام[٢٢]. ففي عهد السلطان فرج بن برقوق (١٣٩٩-١٤١٢/ ٨٠٢-٨١٥هـ) حدث أن قام بعض القراصنة الجنوية بالهجوم على ميناء طرابلس، واستولوا على سفينتين تحملان قدراً كبيراً من البضائع، وكانتا تستعدان للتوجه للموانئ المصرية، وذلك في ٢٠سبتمبر ١٤٠١م/١٠ صفر ٨٠٤هـ[٢٣]. والجدير بالذكر، أنه على الرغم من أن بوسيكو نفى أن يكون له أية علاقة بما فعله القراصنة الجنوية في طرابلس[٢٤] إلا أنه من المرجح أن يكون بوسيكو هو المحرض لهؤلاء القراصنة، أو على الأقل كان على علم بما فعلوه، رغبة منه في استكشاف القدرات الدفاعية للسلطات المملوكية، خاصة وأنه لم يصطدم، حتى ذلك الوقت بالمماليك في أية مواجهة عسكرية مباشرة.

زادت الأمور تعقيداً على بوسيكو في عام ١٤٠٢م/٨٠٥هـ، عندما قام الملك القبرصي جانوس الثاني[٢٥] Janus II بالهجوم على ميناء فاماجوستا القبرصي، محاولاً انتزاعه من سيطرة الجنوية عليه منذ أكثر من ثلاثين عاماً[٢٦]، وهو ما أغضب المارشال بوسيكو – بوصفه حاكما على جنوة – وأعلن أن ما يقوم به الملك القبرصي يتم بتحريض من البنادقة والمماليك؛ ردا على الأعمال العدائية التي يقوم بها القراصنة الجنوية في شرق البحر المتوسط[٢٧]. ومن ثم يرجح الباحث أن ما حدث من هجوم الملك القبرصي على فاماجوستا، وما تلاه من اتهام بوسيكو للبنادقة والمماليك بأنهما

المحرضون له، كانت الذريعة التي اتخذها بوسيكو للقيام بحملته، والتي أصبح خروجها تجاه سواحل مصر والشام أمراً لا مفر منه، في تلك الفترة.

وفي ضوء ما سبق، فإننا إذا حاولنا تفسير دوافع قيام المارشال بوسيكو بحملته على الشرق، نجد تلك الأسباب متعددة ومتشابكة، فإذا كان الدافع الديني هو العامل الرئيسي الذي سيطر على الحروب الصليبية في دورها الأول، فإن المصالح الاقتصادية لم تلبث أن تحكمت في تكييف العلاقات بين الشرق والغرب، في أواخر العصور الوسطى، أي في القرنين الرابع والخامس عشر الميلاديين/الثامن والتاسع الهجريين[٢٨]، لذلك لم يكن غريباً أن يأتي في مقدمة دوافع بوسيكو؛ الدافع الاقتصادي. وعن ذلك يقول التاجر والمؤرخ إيمانويل بيلوتي Emmanuel Piloti – أحد المقربين من السلطان فرج – وشاهد عيان على أحداث الحملة[٢٩] إنه على الرغم من تظاهر بوسيكو بأن قدومه بحملته على الشرق من أجل السيد المسيح والأراضي المقدسة، إلا أنه كان في الحقيقة تحركه أطماعه في الحصول على الغنائم والأسلاب، متشبهاً في ذلك بالملك القبرصي بطرس دولوزينيان Pierre de Lusignan الذي فعلها منذ أكثر من ثلاثين عاماً[٣٠]، كذلك لا ننسى ما حدث من سيطرة البنادقة على التجارة في الجانب الشرقي للبحر المتوسط، بفضل علاقاتهم الطيبة بالسلطات المملوكية، وهي السياسة التي أدت إلى نمو الشعور بالغبن والكره لدى الجنوية – وعلى رأسهم حاكمهم بوسيكو – بعد ما تكبدوه من خسائر جراء ذلك، وهو الأمر الذي أشار إليه برناردو مورو سيني Bernardo Morosini – وكيل البندقية في قبرص – في تقريره الموجه لمجلس السناتو البندقي عقب نهاية الحملة مباشرة، بقوله : " إن بوسيكو كان يحمل بداخله حقداً شديداً بسبب ازدهار تجارتنا مع بلاد السلطان المملوكي، لذلك سعى بكل قوته لإفسادها من أجل حبه للمال "[٣١]، وأيضاً قد يكون ذلك الكره زاد بعد الشائعات التي راجت في هذا الوقت، والخاصة باتهام بوسيكو للبنادقة والمماليك بتحريض الملك القبرصي على مهاجمة قاماجوستا، وطرد الجنوية منها. ثم كان الدافع الديني الذي

أفاض كاتب سيرة بوسيكو في الحديث عنه، مشيراً إلى أن بوسيكو سخر كل موارد جنوة من أجل محاربة المسلمين، وأنه كان على ارتباط روحي بالأراضي المقدسة، والتي كان يحلم بانتزاعها من أيدي المسلمين[٢٢]. وفي موضوع آخر يضيف أن بوسيكو أراد من حملته الإكثار من عدد من يعتنقون العقيدة الكاثوليكية المقدسة بين طوائف الشرق [٢٣] Pour Maltiplier La Sainteés Parties d'Orient . في حين تضيف حولية أنطونيوموروسيني Chroniaue Antonio Morosini دافعاً ثالثاً يستند إلى أن انتصار المغول على أحد القوى الإسلامية في ذلك الوقت، وهم الأتراك السلاجقة في معركة أنقرة – وذلك قبيل أشهر قليلة من حملة بوسيكو – كان حافزاً دفع بوسيكو لمهاجمة أراضي السلطان المملوكي[٢٤]. وعلى الرغم من المبالغة الواضحة التي أبداها كاتب سيرة بوسيكو؛ في إظهاره في صورة المحارب الصليبي الذي يعتبر هدفه الأول والأخير القضية الصليبية، إلا أن الباحث يتفق مع كل ما ورد من آراء أوردها المؤرخون حول دوافع قيام بوسيكو بحملته على الشرق، مضيفاً دافعاً رابعاً في غاية الأهمية، ويتعلق بالدافع الشخصي، والممثل في الرغبة المتأججة لدى المارشال بوسيكو للانتقام لكرامته الشخصية لما حدث له من قبل على يد المسلمين من هزائم ومحن؛ بل وأسر، في كل مكان التقى بهم فيه، لذلك ظل يتحين الفرصة، إلى أن قرر الانقضاض على السواحل الإسلامية في مصر وبلاد الشام.

وانطلاقاً مما سبق، وفي أوائل عام ١٤٠٣م/٨٠٥هـ رأى المارشال بوسيكو أن الظروف قد وافقت رغباته لإتمام خروج حملته المرتقبة، فوجدناه يرسل للملك شارل السادس، وكذلك إلى لويس دوق البوربون، عارضاً عليهما فكرة القيام بعمل عسكري في الشرق، يعيد لفرنسا مجدها السابق في الحروب الصليبية، ولكن لم يجد بوسيكو أية استجابة منهما، واكتفى الملك الفرنسي بإرساله بعض الأموال، وأيضاً عددا من الفرسان الفرنسيين ليكونوا في خدمة بوسيكو[٢٥]. ومن المرجح أن عدم استجابة كل من شارل السادس ولويس دوق البوربون لدعوة بوسيكو – على الرغم

من أن الحرب بين فرنسا وإنجلترا، فيما يعرف بحرب المائة عام، كانت تمر بفترة من الهدوء النسبي بين الطرفين المتصارعين[٣٦] – ترجع إلى أن شارل السادس ولويس قد وعيا الدرس من مغامرتهما الصليبية الفاشلة، سواء في المهدية أو في نيكوبوليس، وقررا عدم خوض مغامرة ثالثة ضد المسلمين، تاركين لبوسيكو تحمل تبعات هذا العمل العسكري.

وفي ذلك الوقت أو بعده بقليل، أعلن بوسيكو أنه يرحب بالتفاوض السلمي مع الملك القبرصي فيما يخص مشكلة فاماجوستا، لذا أرسل أحد رجاله وهو هيرميت دولافوي L'ermite de La foye إلى قبرص، حاملاً رسالة تحمل في طياتها هذا المعنى، وذلك في ٢٤ مارس ١٤٠٣م/ ٢٩شعبان ٨٠٥هـ[٣٧]، ولكن لم يكد مداد الرسالة السابقة يجف، حتى فاجأ بوسيكو الجميع بحشد ما يقرب من أربعة آلاف جندي، يساندهم بعض الفرسان الفرنسيين التابعين له، على متن ثمانية سفن ضخمة، والمعروفة باسم الغليون Gallion[٣٨]، ليغادر ميناء جنوه دون أن يفصح عن وجهته، وذلك في أول ضوء يوم ٣ إبريل ١٤٠٣م/ ١٠ رمضان ٨٠٥هـ[٣٩]. وفي ضوء ما سبق يدور التساؤل: لماذا خرج بوسيكو بقواته في هذا التوقيت، وبشكل سري، على الرغم من إعلانه التفاوض السلمي مع الملك القبرصي ؟ وفي ذلك يرجح المؤرخ فريدريك لان Frederic Lane أن بوسيكو أعلن التفاوض السلمي مع جانوس كنوع من التمويه، في حين كان غرضه إخضاعه بالقوة، وكان طامعاً في التاج القبرصي[٤٠]. بينما يرى المؤرخ ميشيل بالار Michel Balard أن بوسيكو كان له هدف مزدوج ألا وهو: محاربة الملك جانوس، ثم التوجه بعدها لمحاربة المسلمين[٤١]. ويتفق البحث مع الرأي الأخير، مع الإضافة بأنه قد تكون القوة العسكرية التي خرج بها مناسبة لمحاربة الملك القبرصي، ولكنها لم تكن مناسبة بالطبع للقيام بحملة صليبية ضد أراضي السلطان المملوكي؛ لذلك كان من الواضح أنها ليست الحملة الرئيسية التي خطط لها بوسيكو، وأن الحملة سوف تكتمل قوتها فيما بعد.

على أية حال، لم تُجْدِ السرية التي حاول بوسيكو أن يفرضها على حملته نفعـاً؛ إذ ما لبث أن وصلت أخبار خروجه بقواته إلى البندقة، حيث أرسل مجلس السناتو البندقي إلى كارلوزينو Carlo Zeno – قائد الأسطول البندقي والمتواجد في ذلك الوقت في المياة اليونانية – يطلب منه ملاحقة أسطول بوسيكو ومعرفة وجهته، وذلك في ٤ إبريل ١٤٠٣م/ ١١ رمضان ٨٠٥هـ[٤٢]، وعندما بات بوسيكو وقواته على بعد عشرين ميلاً من ميناء مودون Modon[٤٣]، حدث أن التقى بالإمبراطور البيزنطي، والذي كان في طريق عودته للقسطنطينية بعد رحلته التي سبق الإشارة إليها، والتي طاف فيها الغرب الأوربي، واستمرت ثلاث سنوات، وحسبما ذكر كاتب سيرة بوسيكو : إن بوسيكو عرض على الإمبراطور استضافته في جنوة حيث سيعيش هناك، كما لو كان في القسطنطينية، ولكن الإمبراطور اعتذر شاكراً، وحدث أن قام الإمبراطور برد أربع سفن لبوسيكو، كان الأخير قد زود الإمبراطور بها من قبل[٤٤] وفي المكان نفسه أيضاً، وفي منتصف إبريل ١٤٠٣م/رمضان ٨٠٥هـ أصبح أسطول بوسيكو وجهاً لوجه أمام الأسطول البندقي وقائده كارلوزينو، ليدخل القائدان في مرحلة من المفاوضات[٤٥]، وفي حين يذكر كاتب سيرة بوسيكو أن كارلوزينو هو الذي سعى للتفاوض[٤٦]، وجدنا جاكو بو Jaco Po – كاتب سيرة كارلوزينو وحفيده في الوقت نفسه – يشير إلى أن بوسيكو هو الذي سعى لذلك[٤٧]. وبرغم هذا التباين، إلا أن ما يعنينا أن بوسيكو أخبر كارلوزينو بأن خروجه بقواته من جنوة لا يعني أنه ينوى محاربة الملك القبرصي، وإنما ينوى عقد سلام معه، حتى يصبح متفرغاً للمهمة الكبرى، وهي استعادة الأراضي المقدسة، ومحاربة المسلمين، عارضاً عليه التحالف معه، وعند ذلك رد كارلوزينو بأن قرار التحالف العسكري معه، أو الانضمام لحملته ضد المسلمين، ليس بقراره، بل قرار مجلس السناتو البندقي، لذا سوف يرسل له الرد في أقرب وقت ممكن[٤٨]. وبالطبع ما كان عرض بوسيكو على كارلوزينو ما هو إلا نوع من المراوغة السياسية، التي يهدف من ورائها عدم الدخول في صدام مباشر مع البندقة في ذلك الوقت، حتى لا يتعطل مشروعه

الصليبي، فقد كان معلوماً لديه أن الرفض هو الرد المتوقع من الجانب البندقي، الصديق المقرب من السلطات المملوكية، والعدو النذود للجنوية في تلك الفترة.

كيفما كان الأمر، فلم تمض سوى بضعة أيام حتى وجدنا كارلوزينو يكتب إلى القنصل البندقي في الإسكندرية، محذراً من هجوم وشيك ليوسيكو وقواته على السواحل المصرية، مطالباً إياه بأن يبلغ السلطان المملوكي بهذا الأمر[٤٩]. وفي أوائل مايو ١٤٠٣م/شوال ٨٠٥هـ وصل بوسيكو وقواته إلى جزيرة رودس الخاضعة لفرسان الإسبتارية[٥٠] حيث استقبله هناك فيليبر دو نيلاس Philibert de Nillace مقدم إسبتارية رودس (١٣٩٦-١٤٢١م/٧٩٩- ٨٢٤هـ) بمنتهى الحفاوة والترحاب[٥١]. وأثناء وجوده في رودس وصله الرد من كارلوزينو رافضاً تعاون البنادقة معه في حملته المرتقبة[٥٢]، ويعلق كاتب سيرة بوسيكو على ذلك بأن بوسيكو شعر بخيبة الأمل من تصرف البنادقة برفض التعاون معه، وكذلك لتحذيرهم السابق للسلطان المملوكي[٥٣]. ولاشك أن مؤرخ سيرة بوسيكو قد جانبه الصواب فيما أشار إليه، ذلك لأن تصرف البنادقة كان متوقعاً، ولم يكن من قبيل المفاجأة للمارشال بوسيكو.

وعقب أن انتشرت أخبار قدوم المارشال بوسيكو في حملة على أراضي السلطان المملوكي، حاول بوسيكو أن يلجأ إلى الخداع السياسي، حيث أرسل اثنين من أتباعه الجنوية إلى الإسكندرية؛ حاملين رسالة من قائدهم إلى السلطان فرج، حيث تسلمها نائبه على المدينة، وأكد بوسيكو فيها على صدق نواياه، وأنه لا يفكر مطلقاً في مهاجمة الأراضي المملوكية، مطالباً السلطان بعدم الإنصات لتلك الشائعات التي يروجها البنادقة، واصفاً إياهم " بالمسيحيين الأشرار dez Maulvais Crestiens ". ويذكر المؤرخ إيمانويل بيلوتي – الذي شهد لقاء مبعوثا بوسيكو مع نائب السلطان – أن السلطان لم ينخدع برسالة بوسيكو؛ لاقتناعه بصدق ما أخبره به البنادقة بأن بوسيكو في طريقه لمهاجمة الساحل المصري[٥٤]. وفي منتصف مايو ١٤٠٣م/ذو القعدة ٨٠٥هـ عاد هيرميت دو لافوي إلى سيده بوسيكو، ليخبره بفشل مهمته في قبرص، وأن الملك القبرصي

رفض حل مسألة فاماجوستا بطريقة سلمية[٥٥] ليعلن بوسيكو، ومن رودس: الحرب رسمياً على الملك القبرصي، وأخذ يعد العدة من أجل ذلك، بعد أن وصلت إليه العديد من السفن الحربية منها أربع من الملك الفرنسي، وثمان من المستعمرات الجنوية في بيرا وخيوس وغيرهما[٥٦]. وحدث أن وقع بوسيكو اتفاقاً مع "فيليبر دو نـيلاك" يقضي بتعهد الأخير بالذهاب إلى قبرص، لمقابلة ملكها، وحل مشكلته مع بوسيكو بطريقة ودية بدلاً من الحرب، ليتفرغ المارشال لمشروعه الصليبي المرتقب. كذلك يقدم للمارشال مبلغ أربعمائة ألف دوقية[٥٧] بالإضافة لضمان مساندة استبارية رودس للمارشال في حملته الصليبية، كل ذلك في مقابل قيام المارشال بمهاجمة أحد موانئ آسيا الصغرى، وهو ميناء العلائية Alaya الخاضع لسيطرة الأتراك في تلك الفترة[٥٨]، وهو ما قام به بوسيكو، واستمر هجومه على العلائية ما يقرب من أسبوعين، في الفترة ما بين ٢٩ يونيو إلى ١٢ يوليو ١٤٠٣م/ ٧ ذو الحجة إلى ٢٠ ذو الحجة ٨٠٥هـ، وفي الوقت الذي أشار كاتب سيرة بوسيكو بأن ما فعله سيده في العلائية هو انتصار للمسيحية على أعدائها؛ وجدنا حولية أنطونيو موروسيني تعتبر ما فعله بوسيكو عملاً من أعمال السلب والنهب[٥٩].

وبينما كانت الأحداث السابقة تدور أمام سواحل آسيا الصغرى، كان فيليبر دو نيلاك قد نجح في مهمة التفاوض مع الملك جانوس في قبرص، حيث وافق الأخير على التخلي عن فكرة ضم فاماجوستا لحكمه، وتركها كما كانت خاضعة لجنوة وحاكمها بوسيكو، كذلك أن يدفع لبوسيكو مبلغ مائة وخمسين ألف دوقية على سبيل التعويض، وقد وقعت هذه الاتفاقية في ٧ يوليو ١٤٠٣م/١٥ ذي الحجة ٨٠٥هـ[٦٠] وبعدها بأيام قليلة وصل بوسيكو بقواته إلى قبرص، حيث قام بالتصديق على الاتفاقية السابقة، وأثناء لقائه بالملك جانوس أخبره عن حملته الصليبية ضد المسلمين، طالباً منه الانضمام لحملته، ولكن رفض جانوس المشاركة في حملة بوسيكو، خوفاً من رد فعل السلطان المملوكي، مكتفياً بمنحه عدداً من الجنود القبارصة، بالإضافة إلى سفينتين

حربيتين[٦١]، ومع ازدياد القوة العسكرية لبوسيكو، أصدر أوامره بتجميع قواته وجميع سفنه، في ميناء ليماسول Limassol القبرصي، انتظاراً لأوامره[٦٢].

انطلاقاً مما سبق، احتشدت قوات بوسيكو، وقد قدرت بثلاثين سفينة حربية مختلفة الأحجام والأنواع، بالإضافة إلى ما يقرب من سبعة عشر ألف رجل، ما بين فرسان ومشاه ورماه من مختلف الأجناس، فمنهم الفرنسيون والجنوية والقبارصة، وكذلك فرسان إسبتارية رودس[٦٣]، ليجتمع بوسيكو بهم في حضور فيليبر دو نيلاس مقدم الإسبتارية، وشاتو موران Chateau Morand – نائب بوسيكو وقائد قواده، وكذلك جان سنتوريوني Jean Centurione قائد الأسطول، ولوك دو فايسكو Luc de Faiasque، وأنطونيو ريجي Antoine Regie، وأندريه نوميليه Andree Nomelin، وهيرميت دولافوي، والعديد من القادة الآخرين[٦٤]. واعتماداً على ما أورده كاتب سيرة بوسيكو – وهو مصدرنا الوحيد عن تفاصيل هذا الاجتماع – أعلن بوسيكو عزمه التوجه لمحاربة السلطان المملوكي، لأنه عدو المسيحية، وأن هذا العمل هو واجب مقدس على الجميع المشاركة فيه، حيث أنه "من الأمور العلية جداً القيام بذلك العمل، وشرف كبير" Que Ce Serait très Bien Faict et Grand Honneur" مذكراً إياهم بما حدث للمسيحيين، قبيل سنوات قليلة، على يد المسلمين في نيكوبوليس، وأن ما يقدمه لهم هو " عرض جيد وجميل ومشرف " Emprise Bonne et belle et Honnorable "، من أجل استعادة الأراضي المقدسة، مضيفا بأن الإسكندرية هي هدفه، لأنها مفتاح أراضي السلطان، وأهم مدن الشرق، وهي الآن ضعيفة وسهل الاستيلاء عليها، خاتماً حديثه بقوله: فلنمض لمحاربة الكفار[٦٥]. وعند ذلك، ونظراً لعدم اكتمال استعدادات الأسطول للإبحار، وكذلك لعدم معرفتهم بما قام به السلطان من إجراءات دفاعية، عقب علمه بنوايا بوسيكو العدائية ضد أراضيه، وأيضاً لغموض موقف كارلوزينو والأسطول البندقي، اقترح بعض القادة بألا تخرج الحملة مكتملة إلى الإسكندرية، وأن تقسم إلى قسمين: أحدهما يبحر أولاً تحت قيادة بوسيكو، وينتظر

بالقرب من الساحل المكندري، ثم يرسل في استدعاء القسم الآخر، لتهاجم الحملة مجتمعة الإسكندرية، وبالفعل وافق بوسيكو على هذا الاقتراح[٦٦]. ومن ثم يشير الباحث إلى عدة نقاط مهمة في تلك الخطة التي وجهها بوسيكو لقواته منها : محاولته إعادة الخطب الحماسية التي كانت مثار اهتمام الصليبيين، منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي حتى نهاية الوجود الصليبي في الشرق في عام ١٢٩١م/٦٩٠هـ، وهي وسيلة إعطاء صبغة صليبية على حملته المرتقبة. كذلك لم يكن اختياره لمدينة الإسكندرية، كهدف للحملة، يرجع لكونها " مقدمة الطريق لغزو بيت المقدس " Qui Seroit Ceroit Commencement, de Conquester Yherusalem"؛ بل كان له غرض آخر خفي وهو رغبته في أن تصبح فاماجوستا هي المتحكمة في تجارة البحر المتوسط[٦٧]، وذلك لن يتحقق إلا بالاستيلاء على الإسكندرية – مركز التجارة المنتعش في تلك الفترة – أو على الأقل تخريبها وتعطيل تجارتها، وهو ما يلحق بالسلطات المملوكية، وحلفائها من البنادقة، خسائر اقتصادية جسيمة، في مقابل انتعاش فاماجوستا الخاضعة له باعتباره حاكماً على جنوة. وهناك ملاحظة أخرى تتلخص في أنه منذ تعرض الإسكندرية للتخريب على يد بطرس دو لوزينيان، قبيل خمسة وثلاثين عاماً، دأب سلاطين المماليك على زيادة استحكاماتها باستمرار[٦٨]. ومن ثم، من المؤكد أن بوسيكو جانبه الصواب كثيراً فيما أشار إليه حول سهولة احتلال الإسكندرية، حال هجومه عليها.

سبقت الإشارة إلى أن أخبار حملة بوسيكو قد وصلت إلى مسامع السلطان فرج، قبيل مجيئها بما يقرب الشهرين، الذي ما لبث أن أمر بالقبض على التجار الجنوية الموجودون في الإسكندرية، خوفاً من تعاونهم مع الغزاة، وبلغ من ألقى القبض عليهم أربعين تاجراً تم نقلهم إلى سجون القاهرة. كذلك مر التجار البنادقة، وعلى رأسهم إيمانويل بيلوتي من المدينة، متوجهين إلى القاهرة أيضاً، خوفاً من رد فعل بوسيكو إذا ما دخل المدينة[٦٩]. كذلك كلف السلطان بعض الأمراء بالتوجه إلى الإسكندرية للإشراف على الدفاع عن المدينة حال مهاجمتها، يرافقهم أربعة آلاف جندي على أهبة الاستعداد

للقتال[٧٠]، وأضاف المؤرخ ابن الصيرفي: أن السلطان أرسل كذلك فرقة من قواته إلى مدينة دمياط[٧١]. ويشير اهتمام السلطان بتحصين دمياط، أيضاً، إلى أن هدف الحملة الرئيسي لم يكن معلوماً بدقة عند السلطان، حتى تلك الفترة.

على أية حال، ما لبث أن وصل بوسيكو يرافقه القسم الأول من قواته على بعد ستة أميال من ميناء الإسكندرية، وذلك في ٢٧ يوليو ١٤٠٣م/ محرم ٨٠٦[٧٢]، وعندما تأكد من أن السلطات المملوكية قد اتخذت الاحتياطات اللازمة للتصدي له، ظل ثلاثة أيام في عرض البحر يتشاور مع القادة بشأن البت في استدعاء القسم الثاني من قواته، والذي كان لا يزال في الأراضي القبرصية، تحت قيادة فيليبر دو نيلاس[٧٣]. وحدث أن اقتربت إحدى سفن البنادقة من أسطول بوسيكو فحاصرها جنوده، وقبضوا على من فيها، متهمين إياهم بالتجسس لصالح كارلوزينو والسلطان المملوكي[٧٤]. ثم هبت عاصفة شديدة شتت سفن بوسيكو، ليخبره بحارته استحالة رسو سفنه على الساحل السكندري [٧٥]، وعلى الفور اجتمع بوسيكو مع قادته الذين أشاروا إليه بعدم التسرع في استدعاء القسم الثاني من القوات، وأن الظروف تحتم عليهم ضرورة الانسحاب، والعودة للأراضي القبرصية، والتشاور هناك حول معاودة المحاولة مرة أخرى، وبالفعل استدارت السفن عائدة لقبرص في نهاية اليوم الرابع[٧٦].

وفي ضوء ما سبق، يدور التساؤل: هل العاصفة الشديدة – كما ذكر كاتب سيرة بوسيكو – هي الدافع الأساسي وراء انسحاب الحملة بهذا الشكل من أمام الإسكندرية دون قتال؟ في حقيقة الأمر، وفي محاولة للإجابة على هذا التساؤل، نجد أن الذريعة التي ذكرها كاتب سيرة بوسيكو لم تكن كافية، إذ من المعروف أن الإسكندرية لا تتعرض للعواصف الشديدة التي تمنع رسو السفن عليها، في تلك الفترة من السنة، وكان يمكن لبوسيكو الانتظار قليلاً ريثما يصل القسم الثاني من قواته للانضمام إليه، ومن ثم يرى الباحث: أن هناك أسباباً أخرى وراء انسحاب بوسيكو، فمن خلال ما أوردته حولية "أنطونيو موروسيني" بأنه تواردت شائعات بأن الأسطول البندقي، تحت قيادة

كارلوزينو، قد بدأ في مغادرة المياه اليونانية فور علمه بوجود حملة بوسيكو أمام الإسكندرية[٧٧]، وما أشار إليه "إيمانويل بيلوتي" بأنه علم فيما بعد، من أحد التجار الجنوية، أن المناقشات احتدت بين بوسيكو وقواده أثناء اجتماعه معهم على أحد السفن في اليوم الرابع، والتي دارت حول تحديد مصير الحملة، ومطالبة قواده بضرورة الانسحاب، لأن مهمة الحملة لن تكون سهلة أمام الإسكندرية[٧٨]، لذلك فإنه من المرجح أن الخوف من الاصطدام بالأسطول البندقي، بعد توارد الشائعات حول مجيئه، وكذلك شعور قادة الحملة بأن الاستيلاء على الإسكندرية ليس بالسهولة التي توقعها بوسيكو، وأن ما حدث في حملة بطرس، قبيل خمسة وثلاثين عاماً، من الصعب تكراره.

استكمالاً لما سبق، يجب الإشارة إلى أن هناك قضية أثارها المؤرخون العرب، وهي تدور حول برهان الدين المحلي وهو كبير تجار الكارم في مصر، وأكثرهم ثراء في هذه الفترة[٧٩]، حيث ذكروا أن السلطان فرج أرسل هذا التاجر إلى الإسكندرية فور علمه بوصول بوسيكو هناك، وذلك دون إبداء أسباب واضحة حول المهمة التي كلف بها[٨٠]. في حين وجدنا المؤرخ إيمانويل بيلوتي يتناول هذا الموضوع بنوع من الاستفاضة، مشيراً إلى أنه أثناء وجوده بالقاهرة، عقب فراره مع زملائه من التجار البنادقة من الإسكندرية، استدعاه السلطان وطلب منه مرافقة التاجر برهان الدين في مهمة إلى الإسكندرية، حيث كان بحوزة برهان ما يقرب من نصف مليون دوقية، ليتفاوض من خلال هذا المال مع المارشال بوسيكو، حتى يثنيه عن مهاجمة الإسكندرية مقابل هذا المبلغ من المال، يعطيه إياه، ويعود من حيث أتى، وأن السلطان استعان ببيلوتي لمرافقة التاجر برهان، نظراً لخبرة بيلوتي في التعامل مع الأجانب، ولكنهما عندما وصلا إلى الإسكندرية، علما بأن بوسيكو انسحب بقواته من أمام المدينة[٨١]. ولاشك أن استعانة السلطان بالتاجرين – يقصد برهان وبيلوتي – لتلك المهمة الخطيرة، لدليل على مدى الأهمية التي وصلت إليها طبقة التجار في هذا العصر [٨٢]، ولاشك أن القضية تكمن في: كيف يلجأ السلطان إلى شراء الحل السلمي مع الغزاة، بالرغم من أنه قد اتخذ

الاستعدادات اللازمة نحو التصدي العسكري للحملة ؟! وفي حقيقة الأمـر، إن الباحـث يميل لتلك الرواية التي أوردها بيلوتي، بسبب ما عرف عن تعرض السلطان فرج للعديد من الفتن والمؤامرات الداخلية[٨٣]، وهو ما يجعله حريصاً على عدم الدخول في صـدام عسكري مع قوة خارجية، لذلك من الأفضل اللجوء للحل السلمي إن أمكن ذلك، وأيـضاً عرف عن بيلوتي أنه أشهر الأجانب المقربين من السلطان فرج في تلك الفتـرة، وأنـه كلف بعدة مهام تتعلق بالتعامل مع قوة خارجية[٨٤]، وأيضاً استناداً لمقولة المـؤرخ "دو لافيل لورو" بأن شهادة ايمانويل بيلوتي عن الحملة تعتبر من" الطراز الأول "Le tè Moignage de Emmanuel Piloti est de Premier Ordre [٨٥]، ولاشـك أن معاصرته للأحداث؛ بل ومشاركته فيها، كانت أبلغ دليل على صدق روايته فيمـا يخـص تلك القضية.

لم يفتّ ما حدث أمام الإسكندرية من عضد المارشال بوسيكو، الذي ما لبـث أن وصل إلى فاماجوستا – الخاضعة لحكمه – حيث عقد مجلس حرب هناك، حـضره مقدم الإسبتارية والعديد من القادة الآخرين، ونقرر في هذا الاجتماع مواصلة الحرب ضد المسلمين، ولكن في مكان آخر، ليقع الاختيار في هذه المرة على مدينة طرابلس على سواحل بلاد الشام[٨٦]، ليقرر بوسيكو الخروج بقواته مكتملة العدد والعدة، من ميناء فاماجوستا عابراً البحر متجهاً إلى طرابلس[٨٧]، وعن ذلك يتحدث كاتب سيرة بوسيكو قائلاً : لقد خرجنا هذه المرة، ونحن على علم بأن البنادقة نـشروا أخبـار حملتنا " في كل أراضي المسلمين، تلك التي في مصر، وكذلك التي فـي سـوريا [٨٨] "Par Toutes Les Terres des Sarrasins Tant en Egypt, Comme en Syrie.

على أية حال، في صباح الثلاثاء ٧ أغسطس ١٤٠٣م/١٢محرم ٨٠٦هـ، لاح في الأفق بوسيكو وأسطوله على بعد ميل ونصف من شاطئ طرابلس[٨٩]، وكمـا كـان متوقعاً، كان المقاتلون المسلمون يقفـون علـى أهبـة الاسـتعداد للتـصدي للهجـوم

الصليبي[٩٠]، وعلى الرغم من عدم وجود نائب السلطان على المدينة وهو الأمير دمرداش في المدينة في ذلك اليوم؛ إلا أن المقاتلين المسلمين ومعهم الأهالي دخلوا في قتال شرس مع الغزاة[٩١]، ولنترك لكاتب سيرة بوسيكو يروي ما حدث، حيث أشار إلى سقوط العديد من القتلى من الجانبين، وبرغم ذلك نجح الصليبيون في النهاية في الاستيلاء على الميناء، في نفس يوم وصولهم أمام المدينة، وذلك بعد تراجع المدافعين عنه إلى الخلف[٩٢]، ولكن لم يكن التراجع يعني استسلام المدافعين عن مدينتهم، إذ ما لبثوا في اليوم التالي وبعد عودة أميرهم – يقصد دمرداش – أن تجمعوا داخل المدينة للدفاع عنها، وحينما تقدم بوسيكو وجد مقاومة عنيفة منهم، وبرغم براعة جنود بوسيكو في استخدام سهام اللهب والمنجنيقات[٩٣]، إلا أن المدافعين استطاعوا وقف الزحف الصليبي، بل وحاولوا تطويق الصليبيين، واستمر القتال الشرس داخل طرابلس لمدة ثلاثة أيام، وخلاله ملأت الثقوب خوذة بوسيكو من كثرة ما تعرض له من ضربات أثناء القتال[٩٤]، ونجح الصليبيون في أسر مجموعة كبيرة من المقاتلين المسلمين، بل واستطاعوا الاستيلاء على إحدى السفن الحربية التي كانت بالقرب من شاطئ المدينة، وتم ذبح من عليها، ونتيجة لشعورهم بالإرهاق من كثرة القتال، ومع تعاظم الإمدادات القادمة لمساندة المدافعين عن المدينة، أشار القادة على بوسيكو بالتراجع إلى الشاطئ، ومن ثم الصعود على السفن والتوجه لمكان آخر بعد أن نجحوا في الوصول إلى ما كانوا يهدفون إليه[٩٥].

مما لاشك فيه، أن رواية الأحداث السابقة من جانب واحد فقط – وهو الجانب المعتدي – أمرٌ يفتقر إلى الصواب، وخاصة في ظل صمت المصادر العربية عن ذكر تفاصيل القتال في طرابلس، واكتفاؤها بالقول بأنه حدث قتال شديد هناك، وأن الغزاة عادوا ولم يحققوا شيئاً[٩٦]، لذلك رجعنا إلى رواية أخرى، وهي ما ذكره برنارد موروسيني في تقريره، فقد اتفق مع كاتب سيرة بوسيكو، والمؤرخين العرب، في أن القتال كان شديداً، ولكنه أشار إلى أن كل ما نجح فيه بوسيكو هو سلب طرابلس ونهبها

، وأسر مجموعة من النساء والأطفال،وأن شدة القتال وتوالي الهزائم على بوسيكو، أجبرته على التراجع، وهو ما تم بطريقة عشوائية وغير منظمة، حتى إنه فقد آنذاك ما يقرب من مائة رجل من قواته في عملية التراجع تلك[٩٧].

وإزاء التناقض الواضح بين الروايتين السابقتين؛ نقف وقفة قصيرة لمناقشة تساؤل مهم مفاده: هل نجح بوسيكو في تحقيق أهدافه في طرابلس أم لا ؟ وفي حقيقة الأمر، لم يحقق بوسيكو نجاحاً في طرابلس، فلا هو استولى على المدينة، ولا هو مكث ليدافع عن ميناءها الذي استولى عليه في اليوم الأول لقدومه، وأن كل ما حققه هو سلب ونهب فقط، بل إن ذبح طاقم السفينة العربية التي أسرها رجاله أمام سواحل طرابلس؛ هو عمل لا أخلاقي، لا يتناسب مع صورة الفارس الشجاع الذي حاول كاتب سيرته إضفاءها عليه، خلال الثلاثة أيام التي دارت فيها المعارك. وهناك دليلٌ آخر على ما سبق ذكره، إذ أشارت المصادر العربية إلى أن أهل طرابلس استنجدوا، عند بدء الهجوم، بنائب السلطان على الشام وهو الأمير شيخ المحمودي[٩٨]، الذي لبى النداء، وجمع قوات عديدة متوجهاً نحو طرابلس، ولكنه وصل إليها في اليوم التالي لرحيل بوسيكو[٩٩]، وذلك يفسر العبارة التي أوردها كاتب سيرة بوسيكو، عن كثرة الإمدادات التي تصل للمدافعين عن المدينة، وبالتالي ذلك الانسحاب غير المنظم الذي قام به بوسيكو، والذي كلفه فقدان للعديد من الجنود أثناء ذلك الانسحاب.

على أية حال، ما إن غادرت الحملة طرابلس، حتى اتجهت بضعة أميال جنوباً حتى وصلت إلى حصن بترون Batroun – الذي يقع جنوبي طرابلس مباشرة – وذلك في مساء الأربعاء ٩ أغسطس ١٤٠٣م/٢٠ محرم ٨٠٦هـ، حيث استغلوا عدم وجود مدافعين عن الحصن، وقاموا بمهاجمته، وانفرد كاتب سيرة بوسيكو بالحديث عن قيام الصليبيين بمذبحة للأهالي العزل القاطنين هناك، بل وقاموا بحرق منازلهم بعد سرقتها ونهبها، وتركوها واتجهوا جنوباً في نفس الليلة[١٠٠]. وفي صباح الخميس ١٠ أغسطس/٢١ محرم، وصل بوسيكو وقواته أمام بيروت[١٠١]، تلك المدينة التي وضعها

المؤرخ والتاجر "إيمانويل بيلوتي" في المركز الثاني بعد الإسكندرية من حيث الرواج التجاري في شرق البحر المتوسط [١٠١]، وما أن شاهد أهالي بيروت – ومنهم المؤرخ صالح بن يحيى – الأسطول الصليبي يقترب من مدينتهم، حتى قرروا إخلاء المدينة، وقاموا بجمع نسائهم وأولادهم وأموالهم، وصعدوا إلى الجبال للاحتماء بها، ولم يتركوا خلفهم إلا من يقدر على حمل السلاح[١٠٢].

ما لبث أن نزل الصليبيون من سفنهم إلى البر، وبالتحديد في الجهة الغربية للمدينة، وعندما وجدوها خالية، قاموا بنهب منازلها؛ بل وأحرقوا منزل المؤرخ صالح بن يحيى، وكذلك حرقوا السوق القريب من الميناء[١٠٣]، وقاموا بتحديد منازل التجار البنادقة وحرقها، وتلا ذلك الاستيلاء على مخازن تجارتهم، والتي كانت منتشرة في أرجاء المدينة، وبلغ ما نهبوه من مخازن البنادقة ما يقرب من خمسمائة بالة من التوابل والقطن. وحسبما يذكر إيمانويل بيلوتي أن خسائر البنادقة كانت أكثر بكثير مما خسره المسلمين، الذين نجحوا في تخزين بضائعهم في المناطق الجبلية، قبيل نزول الصليبيين لمدينتهم[١٠٤]. وفي مساء نفس اليوم، وفي الوقت الذي اعتقد فيه الصليبيون أنهم تملكوا المدينة دون أي مقاومة تذكر، خرج عليهم أهالي بيروت المسلّحون، وذلك من إحدى المناطق التي كانوا يختبئون فيها، وقاموا بهجوم مباغت على الصليبيين، وزاد الأمر سوءاً عندما نجح المسلمون في استدراج الصليبيين إلى القتال في الشوارع الضيقة، في تكتيك عسكري أذهل بوسيكو وقواته، وتكبد الصليبيون خسائر فادحة في الأرواح، مقابل ثلاثة رجال فقط من الجانب الإسلامي – حسبما ذكر المؤرخ صالح بن يحيى – واستمر القتال حتى صباح اليوم التالي[١٠٥]، وتحت وطأة شدة القتال، قرر بوسيكو التراجع إلى الشاطئ، وكالعادة كان متسرعاً، ودون تنظيم، حتى إنه ترك قتلاه في شوارع المدينة، وكان جل اهتمامه هو شحن البضائع المسروقة، والتي حملت على أربع عشرة سفينة. ووصلت الأخبار، في الوقت نفسه، بتحرك الأسطول البندقي بقيادة

كارلوزينو، من أمام جزيرة كريت، إلى جهة غير معلومة، فقرر بوسيكو مغادرة بيروت على وجه السرعة، وذلك في يوم الجمعة ١١ أغسطس ١٤٠٣/ ٢٢محرم ٨٠٦هـ[١٠٧].

الجدير بالذكر، أن الأحداث السابقة التي جرت في بيروت، تسببت في إثارة أكثر من قضية مهمة، أولها وأهمها: تلك التي أثارتها حولية أنطونيو موروسيني بالتساؤل حول كيف علمت السلطات المملوكية – بعد ما حدث في طرابلس – أن وجهة بوسيكو القادمة هي بيروت، وهي المدينة ذات الأهمية التجارية، وبرغم ذلك لم تبد أي استعدادات عسكرية لصد الهجوم المرتقب ؟[١٠٨]، وهو ما أثار الدهاش كاتب سيرة بوسيكو، عندما ذكر أن بوسيكو فوجئ بعدم وجود المقاتلين المسلمين في انتظاره، كما حدث أمام طرابلس، برغم علم المسلمين بقدوم الصليبيين[١٠٩]. ويذكر المؤرخ صالح بن يحيى، أن بيروت " لم يكن بها متول ولا عسكر مجرد للحرب " وقت وصول الصليبيين إليها، بل إن حاكمها، وهو الأمير يوسف التركماني، وصل عقب استيلاء الصليبيين على المدينة[١١٠]. وحسبما تشير المصادر العربية أن الأمير شيخ المحمودي – نائب السلطان على الشام– وصل بقواته عقب مغادرة الصليبيين لبيروت، وكان كل ما فعله جمع جثث قتلى الصليبيين وحرقها[١١١]. لذلك فمن المرجح أن السلطات المملوكية لم تُعط حملة بوسيكو الأهمية في البداية، واعتبرتها مجرد غارة يقوم بها بعض القراصنة، ولكن عندما أدركت خطورة الموقف كلفت شيخ المحمودي بالتعامل والتصدي لبوسيكو وقواته، بدليل أن شيخ المحمودي دعي للجهاد في دمشق، عندما علم بالهجوم على طرابلس[١١٢].

أما القضية الثانية فهي التي تخص حادثة إحراق منازل البنادقة وسرقة مخازنهم في بيروت، فقد كان من الملاحظ أن كاتب سيرة بوسيكو حاول تبرئة سيده من هذا العمل بشتى السبل، فيشير إلى لقاء جمع بوسيكو مع القنصل البندقي "لورينزو أورسو Lorenzo Orso" قبيل نزول قوات بوسيكو لشاطئ بيروت، وأن سيده اتفق مع القنصل على أن يقوم التجار البنادقة بوضع علامة سرية على منازلهم ومتاجرهم، حتى

لا يتعرضوا للأذى من جانب الصليبيين عند اقتحامهم المدينة[١١٣]، كذلك يشير إلى أن بوسيكو أرسل خطابين أحدهما إلى "ميشيل ستينو Michele Steno" دوق البندقية، والآخر إلى كارلوزينو، يذكر فيهما أنه اعتقد بأن التجار البنادقة وضعوا كل ما يملكونه في مكان أمين، وأن كل ما تبقى في المدينة يخص الأعداء، ثم إنه لا أحد طالبه باسم البنادقة بالأشياء التي سرقت[١١٤]. بينما كان للمؤرخين البنادقة رأي آخر، فيقول إيمانويل بيلوتي: إن الجنوية المرافقين لبوسيكو عارضوه في هذا العمل، معتبرين إياه بمثابة إشعال الحرب بين جنوة والبندقية[١١٥]، أما برناردو موروسيني فيروي في تقريره: أن لورينز أورسو قابل بوسيكو بالفعل، ولكن بعد ما فعله الأخير بالبنادقة، وأخبره في غضب أن المتاجر والمنازل التي أحرقها بوسيكو تخص البنادقة[١١٦]. في حين ذكرت حولية أنطونيو موروسيني: أن بوسيكو عقب نهاية حملته في الشرق، قام ببيع البضائع المسروقة من بيروت في مزاد علني أقامه في فاماجوستا، وأنه كان يفتخر بأنها تخص البنادقة وأنه نهبها منهم[١١٧]، واختتم "جاكو بو" الحديث بقوله: إن السلام الذي كان قد تم قبيل أكثر من عشرين عاماً، بين البنادقة وجنوة، وهو ما يعرف بهدنة تورين Turin، قد انتهى نهاية مأساوية، بعد هجوم بوسيكو على أملاك البنادقة في بيروت، وأن الحرب قادمة لا محالة بين جنوة والبندقية[١١٨]. وفي حقيقة الأمر، إن الاحتمال الثاني هو الأقرب إلى الصواب، والذي يرجح بأن بوسيكو فعل ما فعله بالبنادقة في بيروت عن قصد وتعمد، وليس عن طريق الخطأ، وأنه لم يحذر البنادقة قبيل اقتحامه للمدينة، وأنه كانت تحركه أطماعه في أملاك البنادقة، وكذلك حقده عليهم ورغبته في الانتقام، محملاً إياهم فشله أمام الإسكندرية، وما حدث له بعد ذلك، على اعتبار أنهم نشروا أخبار حملته عند السلطات المملوكية، ويؤكد على ذلك رد فعل البنادقة بتحرك أسطولهم من أمام كريت، وما حدث من اصطدام البنادقة في معركة عسكرية كبرى عقب نهاية الحملة، كما سوف نشير فيما بعد.

واصلت حملة بوسيكو الاتجاه جنوباً، إلى أن وصلوا إلى مدينة صيدا، في يوم السبت ١٢ أغسطس ١٤٠٣م/ ٢٣محرم ٨٠٦هـ، وهناك كان الوضع مختلفاً عما حدث في بيروت، إذ وصل الأمير شيخ المحمودي نائب السلطان بقواته، حيث انضم إلى المدافعين عن المدينة[١١٩]، حتى إن كاتب سيرة بوسيكو أعلن أن الصليبيين شعروا بالرعب، عندما وجدوا حشوداً إسلامية بلغت أكثر من اثنى عشر ألف رجل، ما بين فرسان ومشاة[١٢٠]، وقام الصليبيون بقصف المدينة بالمنجانيق، وقرر بوسيكو تكليف فارسه "جان دو أوني Jean d' Ony" يرافقه أربعمائة جندي بمهاجمة صفوف المسلمين أثناء القصف، وقد نجح جان دو أوني في اختراق الدفاعات الإسلامية على الشاطئ، وبدؤا بالتوغل داخل المدينة، في الوقت الذي أخذ فيه المدافعون على المدينة في التراجع، وقد أفاض كاتب سيرة بوسيكو في مدح جان دو أوني، ودوره في القتال، مشبهاً إياه بالقائد اليوناني ليونيدوس Loonidos في معركة ثرموبيلاي Thermopiae[١٢١]، ولكن تجمعت القوات الإسلامية داخل المدينة، وقاموا بهجوم معاكس أربك صفوف الصليبيين، والمترك المؤرخ صالح بن يحيى – الذي حضر الدفاع عن صيدا – في هذا القتال، وظل القتال دائراً طوال اليوم[١٢٢]، واضطر الصليبيون إلى الانسحاب، والصعود على سفنهم، وعند ذلك عين شيخ المحمودي مجموعة من الأمراء ترافقهم قوة كبيرة لحراسة الشاطئ، وظلوا يراقبون الصليبيين طوال الليل، وأمر كذلك بإحضار مصاريع الأبواب، واتخاذها زحافات وستائر للزحف عليها عند نزولهم، وعند ذلك قرر بوسيكو الانسحاب بقواته من أمام صيدا[١٢٣]، وكالعادة قام الصليبيين، أثناء مغادرتهم، بالاستيلاء على إحدى السفن التجارية القادمة من دمياط، والتي كان على متنها بضائع ذات قيمة كبيرة[١٢٤]، وعند ذلك أقام شيخ المحمودي الاحتفالات في مدن الشام ابتهاجاً باندحار الصليبيين، وانسحابهم[١٢٥].

في محاولة يائسة من المارشال بوسيكو، اتجه شمالاً راغباً في الاستيلاء على أية أراضٍ إسلامية في طريقه، فوصل بالقرب من ميناء اللاذقية، وذلك في يوم الاثنين

١٤أغسطس ١٤٠٣م/ ٢٥محرم ٨٠٦هـ[١٢٦]، وعند ذلك أرسل اثنين من رجاله على متن إحدى السفن، ليلقي نظرة عن قرب على تحصينات المدينة، ولكن على ما يبدو لم يستطيع بوسيكو انتظار عودة من أرسله، لذلك قرر المضي قدما تجاه الساحل، ليفاجأ هناك بوجود برجين يحرسان مدخل ميناء اللاذقية، وهما مشحونان بالمقاتلين، كذلك وحسبما روى كلّ من كاتب سيرة بوسيكو، وحولية أنطونيو موروسيني – وهما المصدران الوحيدان اللذان أوردا تفاصيل الأحداث أمام اللاذقية – أن المقاتلين المسلمين بلغ عددهم ما يقرب من ثلاثين ألف رجل، كانوا يختبئون خلف الأشجار انتظاراً للهجوم الصليبي، وأن ذلك كان بمثابة الكمين للقوات الصليبية[١٢٧]، وعند ذلك وجد بوسيكو أن ربع أسطوله فقط هو ما يصلح للقتال في تلك الفترة، في ظل ازدياد عدد القتلى والجرحى في قواته، لذلك قرر الانسحاب، ليس من أمام مدينة اللاذقية فحسب، بل من أمام الساحل الشامي بأكمله، وذلك في صباح يوم الثلاثاء ١٥ أغسطس / ٢٦ محرم، وهو ما علقت عليه حولية أنطونيو موروسيني بالقول " إن المناورة أمام اللاذقية كانت إشارة إلى نهاية الحملة على سوريا، والتي بدأت ناجحة، وانتهت نهاية مأساوية

Lo d'e Monstration Devant Laodicée Marque La Fin de La Compagne de Syrie; Commecée Brillamment, elle se Terminait Piteusement[١٢٨]

على أية حال، وصل بوسيكو إلى قاماجوستا بقبرص، يرافقه أسطول بحري يفوق بكثير ما كان قد خرج به في بداية حملته، إذ بلغ ستا وأربعين سفينة، شحنت أربع عشرة منها بالغنائم والبضائع التي حصل عليها، والتي تم إفراغها فور وصوله للميناء، حيث تم بيع البضائع في مزاد علني عاد عليه بأموال طائلة[١٢٩]، إلا أن خسائره البشرية كانت كثيرة، بعد فقده للعديد من قواته، إذ كان عليه أن يحمل ثلاث سفن مليئة بالمرضى والجرحى، تتوجه مباشرةً إلى جنوة لعلاجهم هناك[١٣٠] وبعد أيام قليلة قضاها في قبرص؛ غادر بوسيكو وقواته ميناء قاماجوستا متوجهاً إلى جزيرة رودس،

حيث وصلها في أواخر أغسطس / صفر، ليجد هناك فيليبر دو نيلاس– والذي كان قد سبقه إليها – قد أعد له استقبالاً حافلاً، حيث أقيمت الاحتفالات والولائم دون انقطاع، ولمدة اثنى عشر يوماً، وشارك فيها سكان رودس؛ معتبرين ما حققه بوسيكو في حملته على الشرق انتصاراً يستحق الاحتفال به[١٣١].

والجدير بالذكر أن هناك حادثة تستحق الإشارة إليها، وهي قيام بوسيكو – أثناء إقامته في رودس – بإرسال سفينتين حربيتين تحملان ما يقرب من خمسمائة مقاتل، تحت قيادة كلٍّ من "بولو أركوا Pollo Arqua"، و"بيرناتون السافوني Pierre Naton Saton" إلى الإسكندرية، والتي وصلاها في أوائل سبتمبر ١٤٠٣م/صفر ٨٠٦هـ[١٣٢]، وفي الوقت الذي أشارت فيه المصادر العربية إلى مجيء السفينتين دون إظهار تفاصيل عن ذلك[١٣٣]، يشير كاتب سيرة بوسيكو إلى أن سيده أراد من ذلك استعراض قوته العسكرية أمام الممالك، وإثبات أنه لا يزال قادراً على مهاجمتهم وقتما يشاء[١٣٤]، إلا أن تفاصيل تلك الحادثة يوردها بشكل مختلف "إيمانويل بيلوني" والمقيم في الإسكندرية آنذاك، بقوله: إن السفينتين المذكورتين وصلتا بالفعل إلى الإسكندرية، وطلبتا مقابلة السلطان، وسمح لبولو أركوا بالنزول بمفرده إلى اليابسة، حيث قابل مندوب السلطان وعرض عليه رغبة بوسيكو في السلام مع السلطان المملوكي، وهنا أبلغه المندوب أن السلطان غاضبٌ غضباً شديداً من تصرفات بوسيكو ورجاله، رافضاً الصلح، وفي الوقت الذي رجعت فيه السفينتان، ظل بولو أركوا موجوداً بمفرده في مصر، ولمدة ثلاثة شهور، متنقلاً بين الإسكندرية والقاهرة، حتى انتهى الأمر بموافقة السلطان على الصلح مع بوسيكو، بشرط الحصول على تعهد من بوسيكو بعدم فعل ما فعله مرة ثانية، ودفع تعويض مادي كبير قيمة ما أحدثته الحملة من تلفيات في أراضي السلطان، وعند ذلك أخبر بولو أركوا السلطان بأنه سوف يعود لسيده ليخبره بشروطه لإبرام الصلح[١٣٥]. وبتلك المفاوضات السابق ذكرها، انتهت حملة بوسيكو بشكل رسمي.

على أية حال، لم تمض سوى أيام قليلة حتى جاءت أولى نتائج حملة بوسيكو، وذلك عندما أصدر السناتو البندقي أمراً بتحرك الأسطول البندقي تجاه بوسيكو وقواته عقب مغادرتهم لرودس – وإعطاء أمر مباشر لكارلوزينو بمهاجمتهم، وذلك في ٢٥ سبتمبر ١٤٠٣م/ ٧ ربيع أول ٨٠٦هـ [١٣٦]، وبالفعل طارد كارلوزينو بوسيكو في المياه اليونانية، وبالقرب من ميناء "مودون" اشتبك الطرفان في معركة كبرى، في أوائل أكتوبر ١٤٠٣م/ ربيع أول ٨٠٦هـ، انتهت لصالح البندقة، ووقع في الأسر عدد كبير من الجنود الجنوية والفرنسيين، كذلك تم الاستيلاء على ثلاث سفن من أسطول بوسيكو، في هزيمة فادحة، وصفتها حولية أنطونيو موروسيني بالكارثة، التي كانت النتيجة الطبيعية لمغامرة بوسيكو العسكرية في الشرق[١٣٧]. وفي ظل الانقطاع التام للتجارة الجنوية مع السلطات المملوكية عقب حملة بوسيكو، حاول الأخير إعادتها، ولكن بعد مفاوضات مع السلطان المملوكي، الذي رفض بالطبع عودة النشاط التجاري للجنوية في الشرق، بل وصادر أيضاً بعض البضائع الفرنسية في الإسكندرية، وذلك في نوفمبر ١٤٠٣م/ ربيع آخر ٨٠٦هـ [١٣٨]، وأيضاً زادت معاناة التجار الجنوية المحبوسين في سجون القاهرة بأوامر من السلطان، وذلك منذ مجيء الحملة إلى الإسكندرية، ودخل هؤلاء في مفاوضات طويلة مع السلطان، إلى أن تم الإفراج عنهم بعد دفع مبالغ مالية ضخمة كفدية عن حياتهم، وذلك في عام ١٤٠٥م/٨٠٨هـ[١٣٩]. كذلك ظلت العلاقات بين جنوة والبندقية متوترة، حتى اضطر بوسيكو إلى الاستنجاد بالبابا بونيفاس التاسع Boniface IX (١٣٨٩-١٤٠٤م/٧٩٢-٨٠٧هـ) الذي وافق على رعاية السلام بين الطرفين، وهو ما تحقق بعد فترة بمعاهدة الصلح التي كان من أهم شروطها: تعهد جنوة بدفع التعويضات المناسبة للبندقية، لما أحدثته حملة بوسيكو من أضرار مادية بالبندقة؛ وخاصة تلك البضائع التي استولى عليها منهم أثناء حملته على الشرق[١٤٠]، وعلق على ذلك بيلو دو ماريني Pileo de Marini – رئيس أساقفة جنوة – في رسالته التي وجهها إلى الملك الفرنسي شارل السادس، بقوله : إن بوسيكو لم يكتف بتسخير كل موارد جنوة من أجل حملته

الصليبية على الشرق، بل تسبب كذلك في خراب الخزانة الجنوية، بعدما اضطر لدفع تعويضات هائلة للبنادقة[١١١]. وهكذا لم تجن جنوة سوى الخراب والركود الاقتصادي؛ جراء حملة بوسيكو الصليبية على الإسكندرية وسواحل بلاد الشام.

وعلى الرغم مما سبق، فإن فكرة شن حملة صليبية على الأراضي الإسلامية في الشرق، ظلت تراود المارشال بوسيكو، فوجدناه ينجح في إقناع فرسان رودس بمرافقته مرة أخرى في حملة تتجه إلى الإسكندرية، ولكن عندما عرض هذا المشروع على الملك القبرصي جانوس الثاني، رفض الأخير الاشتراك في تلك الحملة، بل ورفض مقابلة المارشال؛ خوفاً من غضب المماليك في حال موافقته، وذلك في عام ١٤٠٧م/٨١٠ هـ[١١٢]، ويعلق المؤرخ "تورمان هوسلي" على ذلك بقوله : " إن بوسيكو عرض على الملك القبرصي مشروع حملته الصليبية، رغبة منه في إيجاد التمويل المالي، نظراً لعدم استطاعة جنوة، أو الملك الفرنسي، مساندته مادياً "[١١٣]. وعندما انتهت السيطرة الفرنسية على جنوة في عام ١٤٠٩م/٨١٢هـ، عاد بوسيكو إلى فرنسا، وبات واضحاً أنه تخلى تماماً عن الفكرة الصليبية، بعد أن انشغل بمساندة الملك شارل السادس في حروبه؛ خاصة بعد تجدد حرب المائة عام بين فرنسا وإنجلترا، حيث قاد بوسيكو القوات الفرنسية في معركة "أزينكورت Agincourt" الشهيرة، والتي انهزمت فيها القوات الفرنسية من نظيرتها الإنجليزية هزيمة فادحة، ووقع العديد من القادة الفرنسيين أسرى لدى الإنجليز، وكان منهم المارشال بوسيكو، وذلك في ٢٥ أكتوبر ١٤١٥م/ ٧ربيع آخر ٨١٨هـ [١١٤]، وقد ظل بوسيكو ست سنوات أسيراً في السجون الإنجليزية؛ إلى أن توفي هناك في ٢٢ سبتمبر ١٤٢١م/ ٢٤رمضان ٨٢٤ هـ[١١٥].

بعد استعراضنا السابق لمصير حملة المارشال بوسيكو على الإسكندرية وسواحل بلاد الشام، والمتمثل في عدم تحقيق الغرض منها المعلن عنه وقتها، وهو استرجاع الأراضي المقدسة، وكذلك الفشل في تحقيق الغرض الخفي للحملة، وهو الحصول على امتيازات تجارية لجنوة، أو على الأقل تحطيم ميناء الإسكندرية – المنافس لفاماجوستا

– وتعطيل تجارته، مما يلحق بالتحالف المملوكي البندقي أكبر خسارة اقتصادية ممكنة. والفشل السابق ذكره يرجع لعدة أسباب، حددها المؤرخ إيمانويل بيلوتي بثلاثة أسباب هي : أن بوسيكو لم يتعلم مما حدث لحملة الملك الفرنسي لويس التاسع Lawis IX، فلم يتخذ بوسيكو السرية اللازمة في التحركات، كذلك لم يستخدم عامل المباغتة الاستخدام الأمثل[١٤٦]، أيضا عدم قدرة بوسيكو على السيطرة التامة على قواد حملته، وهو ما ظهر واضحاً في ذلك الاجتماع الذي عقد أمام الإسكندرية، وخضوع بوسيكو لهم، وقراره المفاجئ بالانسحاب[١٤٧]، وأشار بيلوتي إلى أن اعتماد بوسيكو على استبارية رودس، بشكل أساسي في حملته، كان أمراً خاطئاً، ذلك لأنهم لم يكونوا بالقوة العسكرية الكبرى في ذلك الوقت[١٤٨]. ويضيف الباحث أسباب أخرى لا يمكن إغفالها، ولعبت دوراً أساسياً في فشل الحملة، مثل: الموقف الذي تبناه البنادقة تجاه الحملة منذ خروجها من جنوة، فقد رفضوا في البداية مشاركة بوسيكو في هجومه على أراضي المماليك، كذلك حذروا السلطان المملوكي من قدوم بوسيكو بحملته نحو أراضيه، بل وكلف الأسطول البندقي يتتبع الحملة في كل مكان يتوجه إليه، وهو ما كان له أبلغ الأثر في شعور بوسيكوبالقلق من تتبع البنادقة لهم، وبالتالي على قرارات خط سير الحملة. أيضا لا نغفل أن الحملة خرجت في وقت تلاشت فيه الحماسة الصليبية عند الأوروبيين، وبالتالي لم يجد بوسيكو مساندة فعالة منهم. وخاصة من جانب الملك شارل السادس ولويس دوق البوربون – أشد المتحمسين لفكرة قيادة حرب مقدسة في تلك الفترة – إذ لم يكونا من السذاجة والتهور بحيث يقومان بمغامرة عسكرية غير مأمونة العواقب في الشرق، وكارثة نيكوبوليس لا تزال في ذاكرتهم.

الجدير بالذكر، أن حملة المارشال بوسيكو لم تكتف فقط بفشلها في تحقيق هدفيها سواء المعلن أو الخفي، بل إن ما أسفرت عنه من نتائج زادت من معاناة الغرب الأوربي بشكل عام، وجنوة بشكل خاص، فيشير إيمانويل بيلوتي إلى أن الحملة أضاعت الكثير من هيبة الصليبيين، وأضرت بالقضية كثيرا[١٤٩]. أما من الناحية الاقتصادية فقد

تأثرت التجارة في البحر المتوسط كثيراً، بعد أن أصيبت الحركة التجارية بنوع من الركود طوال فترة أحداث الحملة[١٥١]، حتى إن جنوة التي كانت لا تتطلع إلى الحروب الصليبية كقضية مقدسة؛ بل كانت تنظر إليها من خلال مصلحتها التجارية - ازداد نشاطها التجاري تدهوراً وانخفاضاً، نتيجة المعاملة السيئة لتجارها من قبل السلطات المملوكية، الذين لم ينسوا لهم مشاركتهم في الحملة، وبالتالي أصبحت أحوال جنوة المالية في حالة يرثى لها، بعد أن اضطرت كذلك إلى دفع تعويضات هائلة للبنادقة، وهو ما أشار إليه الأسقف بيلو دو مارينى، وكان جل اهتمام الجنوية في تلك الفترة: هو محاولة كسب ود المماليك من أجل عودة نشاطهم التجاري المتوقف، ولا ننسى تلك النتيجة السريعة التي تمثلت في الهزيمة المروعة، التي لاقاها بوسيكو والأسطول الجنوي بعد أيام قليلة من نهاية حملته، وذلك على يد البنادقة في "مودون"، كذلك ظهرت الحملة، وفي فترات عديدة من أحداثها، وكأنها حملة يقودها بعض اللصوص، وخاصة بعد ما فعلته في البترون و بيروت، وبات واضحاً أن مكانة بوسيكو - كفارس من فرسان الغرب المشهورين- قد اهتزت كثيراً بعد الحملة، وعلى الرغم من ذلك؛ فإن حملة بوسيكو لم تكن هي الحلقة الأخيرة في الصراع بين الغرب اللاتيني والشرق الإسلامي.

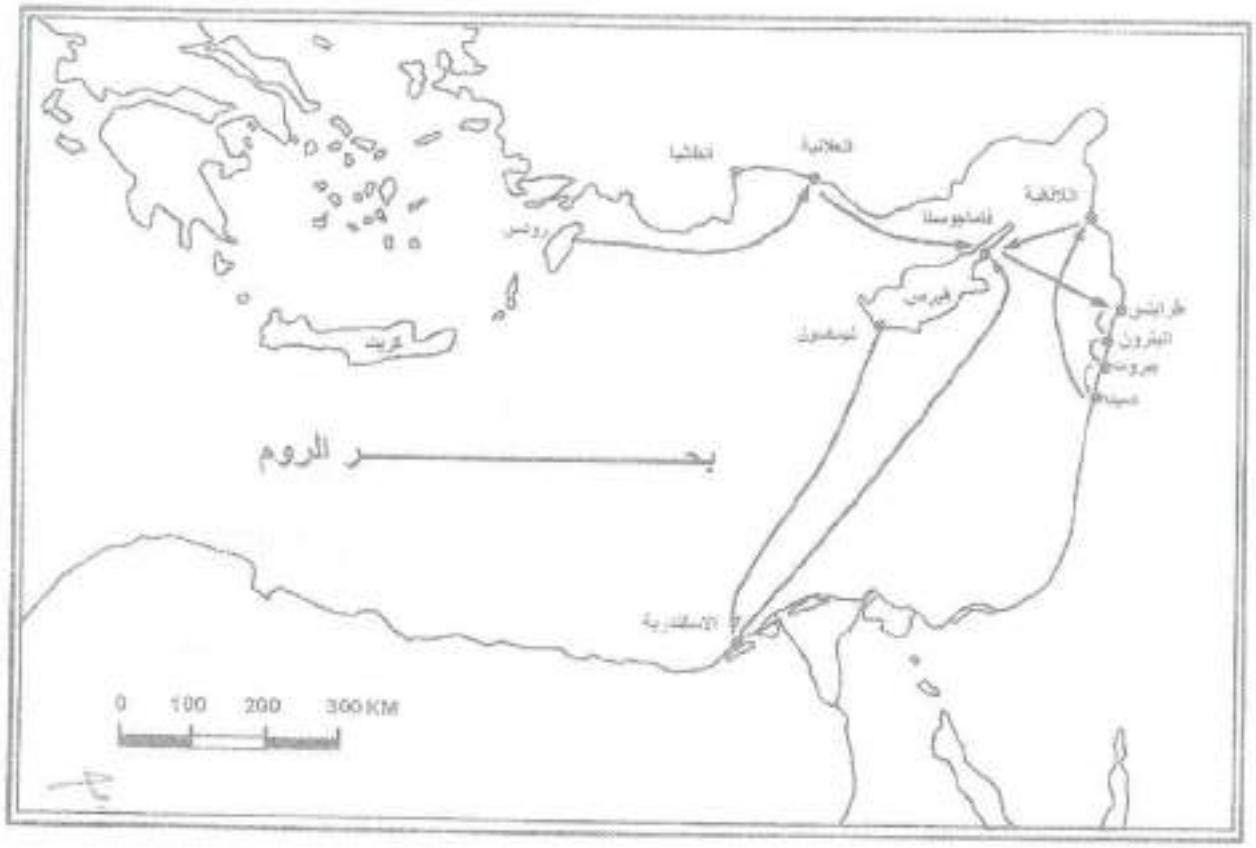

خط سير حملة نابوليون بونابرت على الإسكندرية وسواحل بلاد الشام

هوامش البحث

(١) Hosley, N., One Man and his Wars: The depiction of Warfare by Marshal Boucicaut's Biographer, in J. M. H, vol. 29 (2003), PP. 27 – 40; La Lande, D., Jean II Le Meingre, Dit Boucicaut, 'Etude D'une Biographir H'eroiaue, (Gen'eve, 1988).

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٥م، ص٢٦٩؛ محمد فتحي الزامل: الحصار الاقتصادي على مصر أواخر العصور الوسطى (١٢٩١ – ١٥١٧)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٩م، ص١١١.

(٣) De La ville Le Roulx, La France en Orient au XIVe Si'ecle, (Bibiothe'que des Ecoles Francasies d'Athènes et de Roma, S'er. I, Xliv – XLV), 2 Vols, (Paris, 1885 – 1886), vol. 1, P. 445.

(٤) ينقسم كتاب الأعمال الذي يتناول حياة المارشال بوسيكو إلى أربعة أجزاء، الجزء الأول منذ مولده حتى عام ١٣٩٩م، بينما يتناول الجزء الثاني الأحداث التي مر بها حتى عام ١٤٠٤م، في حين يتناول الجزء الثالث حياته حتى عام ١٤٠٩م، أما الجزء الرابع فينتهي بوفاته عام ١٤٢١م. انظر:
Le Livre des Faicts du Mareschal de Boucicaut, 'ed. M. Petitot, 4 Parties, (Paris, 1825); C F. also; La Lande, D., Jean II le Meingre, P. XL III.

(٥) كان والده ويدعى جان الأول لومينجر Jean I Le Meinger قد شارك بجانب الملك الفرنسي شارل الخامس Charles V في عده معارك؛ لذلك منحه الأخير لقب مارشال، وقد توفي جان الأول في مدينة ديجون Dijon عام ١٣٦٧م. انظر: Le Livre des Faicts, I, Ch.1P.2.

(٦) من أهم الحملات التي شارك فيها بوسيكو ضمن القوات الفرنسية، تلك الحملة التي توجهت للقضاء على ثورة الفلاندر، وزعيمهم فيليب فان أرتفيلد Philip van Artevelde، وبالفعل انتصروا عليه في معركة روزبيج Rosebeck. انظر:
Le Livre des Faicts, I, Ch.X.P.32.
كذلك أيضاً: سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، جزءان، القاهرة ١٩٧٨م، ج١، ص٥٠١.

(٧) Le Livre des Faicts, I, Ch.III.P.41.

ولمزيد من التفاصيل عن حروب فرسان التيوتون ضد وثنيي ليتوانيا في تلك الفترة، انظر:

سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج٢، ص٦٢٧ – ٦٢٩.

(٨) انفرد كاتب سيرة بوسيكو بذكر تلك الحادثة، ولكن دون إعطاء تفاصيل سوى أن فيليب دو أرتوا قد تم القبض عليه من قبل حاكم دمشق، الذي أرسله بدوره إلى السلطات المملوكية في القاهرة، حيث تم حبسه في أحد السجون، وهو ما دفع بوسيكو للذهاب إلى القاهرة، والبقاء بجوار صديقه. انظر:

Le Livre des Faicts, I, Ch. XVI,P.101; CF. also: Housley,N., Documents on the Later Crusade, 1274 – 1580, (New York, 1996), P. 101 .

(٩) وصل لويس دوق البوربون بحملته إلى مدينة المهدية في الشمال الأفريقي في يوليو ١٣٩٠م، وبجانب العناصر الفرنسية ضمت الحملة قوات من جنوه وانجلترا وأراجون، في حشد بلغ أكثر من خمسة عشر رجل، وكان بوسيكو ضمن القوات الفرنسية التي قادها لويس بنفسه، حيث ظلت قوات الحملة تحاصر المهدية ما يقرب من شهرين في استماتة واضحة من سلطان تونس في الدفاع عن مدينته، لتتم مفاوضات لرفع الحصار وعقد معاهدة سلام، وهو ما حدث بالفعل في ٢٠ سبتمبر ١٣٩٠م. لمزيد من التفاصيل، انظر:

ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ أجزاء، (بيروت ١٩٧١م)، ج٦، ص٤٠٠، وكذلك:

سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية "صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى"، جزءان، ط٧، القاهرة ١٩٩٧م، ج٢، ص٩٨٢ – ٩٨٥. انظر أيضاً:

Aziz, S. A., The Crusade in The Later Middle Ages, (London, 1938), PP. 401 – 404.

(١٠) منح الملك شارل السادس لقب مارشال لبوسيكو في حفل أقيم بكاتدرائية القديس مارتن St. Martin في تورين، وذلك في ٢٥ ديسمبر ١٣٩١م. انظر:

Le Livre des Faicts, I, Ch. XIX, P. 70.

(١١) نتيجة لازدياد خطر الأتراك العثمانيين على الأراضي الأوروبية، وخاصة بعدما أضاف السلطان العثماني بايزيد مدينة فيدين البلغارية الواقعة على نهر الدانوب، والخاضعة لسجسموند Sigismond ملك المجر (١٣٨٧ – ١٤٣٧م)، الذي استنجد بباقي القوى الأوروبية، فأصدر كل من بابا روما بونيفاس التاسع Boniface IX (١٣٨٩ –

١٤٠٤م)، وبابا أفنيون بندكت الثالث عشر Bendict XIII (١٣٩٤ – ١٤٢٢م)،مرسوما يدعو لانارةحرب صليبية.وبدات القوات الاوربية تتجمع من كافة الأنحاء الأوروبية، وبينما نجح سجسموند باتخاذ خطة الدفاع وأنه من الأصوب استدراج الأتراك إلى داخل بلاد المجر ، ثم يهاجموتهم من مواقع سبق تجهيزها، قرر باقي القادة الهجوم والتقدم، وغلب رأيهم على رأي سجسموند، ووصل الجيش الصليبي إلى نيكوبوليس – التي تعتبر أهم معاقل الأتراك على نهر الدانوب – وذلك في ٢٤ سبتمبر ١٣٩٦، وشارك المارشال بوسيكو ضمن القوات الفرنسية التي حققت انتصاراً مؤقتاً على الأتراك في المناوشات التي تمت في ذلك اليوم، ولكن في المعركة الفاصلة التي تمت في ٢٥ سبتمبر، فاجأ السلطان العثماني الجيش الصليبي المتحالف، وانقض عليه، وقتل منهم الكثيرين، لتصبح مذبحة للجيش الصليبي.انظر :

Le Livre, I. XXV, PP. 90 – 91; CF. also: Aziz, S. A. The Crusade of Nicopolis, (London, 1934), PP. 149 – 150, Devries,K., The Lack of a Western European Military Response to The Ottoman Invasions of Europe from Nicopolis (1396) to Mohaca (1526). J. M. H. vol. 63, No. 3 (Jul. 1999), PP. 539 – 559, P. 539.

(١٢) Le Livre des Faicts, I, Ch. XXVI, P. 101; CF. also:Aziz, S.A, The Crusade of Nicopolis, PP. 150 – 151.

(١٣) يعد فيليب دو ميزيير من أشهر الدعاة الصليبيين في القرن الرابع عشر الميلادي / الثامن الهجري، وقد ولد من أسرة متواضعة بمقاطعة بيكاردي Picardy وطاف عدة بلدان في الغرب الأوروبي، حتى أصبح من المقربين من الملك القبرصي بطرس الأول (١٣٥٩ – ١٣٦٩م) الذي عينه في منصب مستشار مملكة قبرص، وقد رافقه في حملته الصليبية على الإسكندرية في عام ١٣٦٥م، وفي عام ١٣٧٣م عينه الملك الفرنسي شارل الخامس عضواً في مجلس شورى المملكة، ثم أصبح من المقربين من الملك شارل السادس، وقد وضع فيليب عدة تصورات من أجل شن حملة صليبية تتوجه للشرق لاسترجاع الأراضي المقدسة، وكذلك أسس جماعة فرسان آلام السيد المسيح من أجل الدعوة إلى ذلك، ومن مؤلفاته: حلم الحاج العجوز Songe du Vieil P'elerin، ورسالة إلى الملك ريتشارد Epistre au Roy Richar، وقد توفي في ٢٩ مايو ١٤٠٥م، ولمزيد من التفاصيل. انظر:

Aziz, S. A., The Crusade in The Later Middle Ages, PP. 139 – 146.

(١٤) حدث أن توترت العلاقات بين الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني والسلطان العثماني

بايزيد، لذلك توجه الأخير وقام بمهاجمة المناطق المحيطة بالقسطنطينية ثم قام بمحاصرتها بعد ذلك في سنة ١٣٩٤م / ٧٩٧هـ، وعندما بدا الأمر وكان القسطنطينية مهيأة للسقوط في أيد العثمانيين، لم يكن أمام الإمبراطور البيزنطي إلا مغادرة القسطنطينية في أواخر عام ١٣٩٩م / ٨٠٢هـ، يرافقه كبار النبلاء ورجال الدين البيزنطيين، متوجها للغرب الأوروبي لمناشدة قادته حماية القسطنطينية، وكانت البندقية هي المحطة الأولى في هذه الجولة حيث وصل إليها في أوائل عام ١٤٠٠م / ٨٠٢هـ. لمزيد من التفاصيل، انظر:

Barker, J. W., Manuel II Palaeologus, 1391 – 1425, A Study in Later Byzantine Statesmanship, (New Jersey 1969), P. 215; Bréhier, L., The Life and Death of Byzantium, trans. Margaret Vaughan, (New York, 1977), PP. 327 – 328.

(١٥) قاد المارشال بوسيكو أسطولا يتكون من ست سفن حربية، على متنهاما يقرب من ألف ومئتي جندي فرنسي وجنوي، وكذلك انضم إليهم في الطريق بعض البنادقة، حيث توجه إلى القسطنطينية ونجح في التصدي للهجوم التركي على المدينة والمناطق المجاورة، وعند عودته ترك بوسيكو للدفاع عن المدينة فرقة صغيرة، بالإضافة إلى أربع سفن حربية، انظر:

Nicol, D., The Last Centuries of Byzantium 1261 – 1453, (Cambridge, 2002), PP. 308 – 309.

انظر أيضاً: هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد محمد رضا، مراجعة: عز الدين فودة، الهيئة العامة للكتاب، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩٨٥ – ١٩٩٢، ج٣، ص١٢٣.

(١٦) Setton, K., The Papacy and the Levant (1204 – 1571), vol. 1, (Philadelphia, 1976), P. 370.

(١٧) Le Livre des Faicts, II, Ch. 2, P. 4.

(١٨) هايد: تاريخ التجارة، ج٣، ص١٣٢.

(١٩) امتلكت جنوة العديد من المستعمرات التجارية في عدة أماكن، وخاصة بالقرب من القسطنطينية والبحر الأسود مثل: بيرا وخيوس وكافا، وخرسون، وغيرها، وقد عين بوسيكو القائد شاتومورانChateou Morant قائداً عاماً على تلك المستعمرات. انظر:

Pero Tafur, Travel and Adventures, trans, by Malcolm Letts (London, 1946), P. 29.

انظر أيضاً: هايد: تاريخ التجارة، ج٣، ص١٣٢ – ١٣٣.

(٢٠) Steven, A. E., Genoa and Genoese, 958 – 1528 (University of North Carolina Press, 2000), P. 260.

(٢١) ناجلا محمد عبد النبي: مصر والبندقية " العلاقات السياسية والاقتصاد عصر المماليك الجراكسة (١٣٨٢ – ١٥١٧م / ٧٨٤ – ٩٢٣هـ) "ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠١م، ص١٨٣.

(٢٢) Ashtor, E., Levant Trade in the Later Middle Ages, (Princeton University Press, 1983), P. 218.

(٢٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، أربعة أجزاء في أثنى عشر قسماً، حقق الجزئيين الأوليين محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٩ – ١٩٤٢م، وحقق الجزئيين الثالث والرابع سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠ – ١٩٧٣م، ج٣، ص١٠٥٩؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تسعة أجزاء، تحقيق محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦م، ج٥، ص٣.

(٢٤) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXIII, P. 23.

(٢٥) تتم تتويج الملك جانوس ملكاً عل قبرص في ١١ نوفمبر ١٣٩٩م، انظر:
Mahkairas, L., Recital Concerning The Sweet Land of Cyprus entitled " Chronicle ", ed. With trans and notes by R. M. Dawkins, 2 vois., (Oxford, 1930), vol. 1, P. 317.

(٢٦) Le Livre des Faicts,II,ch. XI, P. 26.
اتخذ التنافس التجاري بين جنوة والبندقية طريقه إلى السياسة الداخلية في قبرص، ومن ثم أسرعت جنوة بالاستيلاء على ميناء فاماجوستا القبرصي، ونجحت في القبض على الملك بطرس الثاني (١٣٦٩ – ١٣٨٢م / ٧٧١ – ٧٨٤هـ)، ثم أطلقت جنوة سراحه نظير الاعتراف باحتلالها فاماجوستا فضلاً عن فدية كبيرة، وذلك في أكتوبر ١٣٧٤م. انظر:
سعيد عبد الفتاح عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢م، ص٨٢ – ٨٣.

(٢٧) Le Livre des Faicts, II, Ch. XI, P. 27, CF. also: Mate, C., Venise et La Moldavie au d'ebut du XVe Sie'cle, S. M. I. M., XXI, (2003), P. 121.

(٢٨) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٤٨.

(٢٩) التاجر والمؤرخ إيمانويل بيلوني، ولد في جزيرة كريت التابعة للبندقية في تلك الفترة – وذلك في عام ١٣٧١م / ٧٧٤هـ، وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره، ارتحل للعمل بالتجارة في مصر وذلك في عام ١٣٩٦م / ٧٩٩هـ، وكان من المقربين من

السلاطين المماليك؛ خاصة في عهد السلطان فرج بن برقوق، الذي كلفه بمهام دبلوماسية عديدة، خاصة في التفاوض مع القوى المختلفة في الغرب الأوروبي، نظرا للخبرة التي تمتع بها بيلوتي، وإجادته لأكثر من لغة. وقد زار بيلوتي بلاد الشام أكثر من مرة في خلال الخمسة والثلاثين عاماً التي قضاها في مصر، اندمج خلالها مع المصريين والمجتمع المصري، وعقب زيارة طاف خلالها عدة بلدان مثل: كريت والبندقية وفلورنسا، حيث قابل خلالها البابا أوجين الرابع EugeniusIV ، عاد إلى مصر في عام ١٤٣٥م / ٨٣٨هـ، لنجده يظهر اهتماماً خاصاً بجمع المعلومات العسكرية عن القوات المملوكية، وتحصينات مدينة الإسكندرية ، ليعد بعدها تقرير يتناول أفضل السبل المتاحة لتجهيز حملة صليبية من أجل استرداد الأراضي المقدسة، وعندما غادر مصر للمرة الأخيرة أواخر عام ١٤٣٨م / ٨٤١هـ، وصل إلى الغرب حيث عرض هناك التقرير السابق ذكره على اعتبار أنه مشروع صليبي لاستعادة الأراضي المقدسة، ولكنه لم يلق أية استجابة تذكر في الغرب الأوروبي، وذلك في عام ١٤٤١م / ٨٤٤هـ. انظر:

Emmanuel Piloti, Traite' d'Emmanuel Piloti Sur Le Passage en Terre Saint (1420), ed. P. H. Doop, Publication de L'Uiversite' Lovanium de L'eopoldville. (Louvain, 1958), PP. XI – XVII.

(٣٠) Emmanuel Piloti, Traite, P. 190.

هاجم الملك القبرصي بطرس دو لوزينيان مدينة الإسكندرية في يوم الجمعة الموافق ١٠ أكتوبر عام ١٣٦٥م، واقتحمها دون صعوبة وفر أهالي المدينة بعد أن انتابتهم حالة من الذعر والخوف، ليظل بطرس ستة أيام ينهب ويدمر في المدينة، وانسحب منها عندما علم بقدوم القوات المملوكية لمحاربته، وعندما عاد للغرب أقيمت له احتفالات كبرى لحملة صليبية تعد فاشلة بكل المقاييس، إذ كل ما حققته هو الحصول على بعض الغنائم، لمزيد من التفاصيل: سهير نعينع: الحروب الصليبية المتأخرة " حملة بطرس الأول لوسينيان على الإسكندرية ٧٤٧هـ / ١٣٦٥م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٢م، صفحات متفرقة.

(٣١) Lettre de Bernardo Morosini dans Marino Sanuto, Vite de' Duchi di Venezia, in Muratori. L. A., R. I. S., XXII (Milan, 1786).P.800 ; CF. also: Ashtor, E., Levant Trade,PP.218-219.

(٣٢) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXII, PP. 29 – 30.

(٣٣) Le Livre des Faicts, II, Ch. XIII, P. 35.

(٣٤) Chronique d' Aantonio Morosini, Extroits Relatifs a' L' histoire de France, introduction et Commentaire Par Germain Le fe'vre –

Pontalis, text 'etable et traduit Par L'eon Dorez. t. 1, (Paris, 1897), P. 43.

(٣٥) Le Livre des Faicts, II, Ch. XI, P. 27.

(٣٦) على الرغم من أن تلك الحرب أطلق عليها حرب المائة عام، إلا أنها جرت على شكل حروب متقطعة، يمكن تحديدها على مرحلتين فاصلتين، الأولى بدأت في عام ١٣٣٨م، وأهم حوادثها انتصار الإنجليز في موقعة كريسي Cresy، واختتمت فيما يعرف بمعاهدة بريتاني في عام ١٣٦٠م. أما المرحلة الثانية فبدأت بانتصار الإنجليز على الفرنسيين في معركة ازينكورت Agincourt عام ١٤١٥م، وانتهت بهزيمة الإنجليز في معركة تلبوت عام ١٤٥٣م، لمزيد من التفاصيل عن حرب المائة عام. انظر:

نظير حسان سعداوي: تاريخ انجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٨، ص١٣٥ – ١٤٨.

(٣٧) Le Livre des Faicts, II, Ch. XIV, P. 38; Chronique d' Antonio Morosini, P. 53.

(٣٨) الغليون هي كلمة معربة عن الإسبانية Galeon وبالفرنسية Gallion وبالإنجليزية Galleon وبالإيطالية Galeone، وهي أحد السفن عالية الأطراف تمتاز بعظمة المقدمة والمؤخرة، وكانت تستخدم في نقل المحاربين، وفي بعض الأوقات تستخدم لحمل البضائع. انظر:

درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية ١٩٧٤م، ص١١٢ – ١١٣.

(٣٩) في الوقت الذي ذكر فيه كلّ من كاتب سيرة بوسيكو وإيماتويل بيلوتي أن عدد السفن التي صاحبت بوسيكو عند خروجه من جنوة بلغ ثمانية سفن حربية ضخمة، وجدنا حولية أنطونيو موروسيني تذكر إنهما اثنتي عشرة سفينة. انظر:

Le Livre des Faicts, II, Ch. XI, P. 27; Emmanuel Piloti, Traite', P.190; Chronique d' Antonio Morosini, P.191.

(٤٠) Lane, F., Venice and History, (Baltimore, 1966), P. 367.

(٤١) Balard, M., Genoese Naval Forces in The Mediderranean in The 15th and 16th Centuries, (Oxford, 2003), P. 259.

(٤٢) Chronique d' Antonio Morosini, P. 37.

(٤٣) ميناء مودون يقع في شبه جزيرة المورة إلى الغرب من خليج كورنثة، وقد عرف عنه أهميته التجارية، نظراً لسيطرة البنادقة عليه، وكذلك كان يعد محطة هامة للحجاج الغربيين المتجهين للأراضي المقدسة فترة العصور الوسطى. انظر: إبراهيم سعيد: حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى (١٢٩١ – ١٢١٧م / ٦٩٠ –

٩٢٣هـ)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٧م، ص٢٩٧.

(٤٤) Le Livre des Faicts, II, Ch.XIII, PP. 34 – 35.

(٤٥) Chronique d' Antonio Morosini, P. 49.

(٤٦) Le Livre des Faicts, II, Ch. XII, P. 34.

(٤٧) جاكو بو حفيد كارلو زينو وكاتب سيرته، كان أسقفاً لمدينة Padua منذ عام ١٤٦٠م / ٨٦٤هـ حتى وفاته في عام ١٤٨٨م / ٨٩٢هـ. انظر:

Vita Caroli, Riss, XIX, pt. 6 (1968), P. 101; CF. also: Setton, K., The Papcy and The Levant, P. 385.

(٤٨) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXI, P. 32 ; Vita Caroli, PP. 101 – 102.

(٤٩) Emmanuel Piloti, Traite', P. 191; Le Livre des Faicts, II, Ch XIX, P. 49; Chronique d' Antonio Morosini, P. 65.

(٥٠) عقب نهاية الوجود الصليبي في بلاد الشام عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ، توجه فرسان الاسبتارية إلى جزيرة رودس حيث تم اتخاذها مقراً لهم، وبالفعل نجحوا في انتزاعها من البيزنطيين في عام ١٣٠٨م، لتصبح رودس حصناً حصيناً للاسبتارية، وقاعدة يشن من خلالها الصليبيين غارتهم وهجماتهم على الشرق أواخر العصور الوسطى. لمزيد من التفاصيل، انظر:

Nicholson, H., The Knights Hospitallers, (Woodbridge Boydell Press, 2001), PP. 22 – 26.

انظر أيضاً: سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٧٤ – ٩٧٥.

(٥١) Le Livre des Faicts, II, Ch. XIV, P. 36.

(٥٢) Le Livre des Faicts, II, Ch. XIV, P. 37 ; Vita. Caroli, P. 102.

(٥٣) Le Livre des Faicts, II, Ch. XIV, P. 38.

(٥٤) Emmanuel Piloti, Traite, PP. 191 – 192.

(٥٥) Le Livre des Faicts, II, Ch. XIV, P. 37.

(٥٦) Le Livre des Faicts, II, Ch. XIV, PP. 37-38.

(٥٧) الدوقية أو الدوكات Ducat هي عملة ذهبية استخدمت في العصور الوسطى. ضربت في البندقية في عهد الدوق جيوفاني دانـدولو Giovanni Dandolo (١٢٨٠ – ١٢٩٠م / ٦٧٩ – ٦٨٩هـ)، ويقول عنها القلقشندي، بأنها دنانير منخضة على أحد وجهيها صورة الملك التي ضربت في زمنه، والذي يعرف عندهم "دوك"، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس. انظر:

Rubbert, L. B., ' Venetian Money Market 1150 – 1229', In S. V.

XIII. (1971). P. 44; Rable, H., The Financial System of Egypt, (London, 1972), PP. 191, 194.

وانظر أيضاً: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩١٣م، ج٣، ص٢٣٦ – ٢٣٧.

(٥٨) العلائية أو العلايا هو من الموانى الهامة في جنوب آسيا الصغرى، أطلق عليه في العصور الوسطى أيضاً كانديلور Candelore، وكان يعد أحد أهم مصادر الأخشاب لدولة المماليك الجراكسة، وأشار ابن بطوطة عن العلائية بقوله " إنها كثيرة الخشب، ومنها يحمل إلى الإسكندرية، ودمياط"، انظر:

ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "، أربعة أجزاء، باريس ١٨٩٣ – ١٩٢٢م، ج٢، ص٢٥٧ ؛هايد: تاريخ التجارة، ج٣، ص٢٢٢.

(٥٩) Le Livre des Faict, II, Ch. XV, P. 39; Chronique d' Antonio Morosini, P. 58.

(٦٠) Le Livre des Faicts, II, Ch. XVII, P. 46; CF. also: De Laville Le Roulx, La France en Orient, vol. 1, PP. 431 – 432.

وعن نص الاتفاقية التي عقدت بين بوسيكو والملك جانوس، انظر:

Mas – Latrie, Histoire de L'Ile de Chypre Sous Le Regne des La Maison de Lusignans, 3 vols., (Paris, 1852 – 1861), vol. 2, PP. 466 – 471.

(٦١) Le Livre des Faicts, II, Ch. XVIII, P. 47.

(٦٢) Le Livre des Faicts, II, Ch. XVIII, P. 47.

(٦٣) في الوقت الذي ذكر كلٌ من إيمانويل بيلوتي وكاتب سيرة بوسيكو أن أسطول بوسيكو بلغ ثلاثون سفينة، ذكرت حولية أنطونيو موروسيني أنهم ستة وعشرون سفينة. انظر:

Emmanuel Piloti, Traite', P. 191; Le Livre des Faicts, II, Ch.XVIII, P.47;

Chronique d' Antonio Morosini, P.51.

(٦٤) Le Livre des Faicts, II, Ch. XX, P. 54; Emmanuel Piloti, Traite', P. 193.

(٦٥) Le Livre des Faicts, II, Ch. XIII, P. 36.

(٦٦) Le Livre des Faicts, II, Ch. XIII, P. 47.

(٦٧) ذكر كاتب سيرة بوسيكو أن فاماجوستا كانت تمثل أهمية اقتصادية كبرى لبوسيكو والجنوية. انظر:

Le Livre des

Faicts, II, Ch. XI, P. 26.

(٦٨) عقب ما حدث لمدينة الإسكندرية على يد بطرس دو لوزينيان، قرر سلاطين المماليك العناية بالمدينة وزيادة تحصينها، فقد صدرت الأوامر بتحويل الإسكندرية من مجرد ولاية إلى نيابة للسلطنة، يتولاها نائب للسلطان يطلق عليه " ملك الأمراء " يتحمل مسئولية حمايتها ورعايتها، وتنسب معظم أعمال الإصلاح والإنشاء إلى نائبين من نواب السلطنة في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي هما: سيف الدين الأكز، وصلاح الدين خليل بن عزام، فتم تعمير وترميم المدينة، كذلك تم زيادة ارتفاع تلك الأسوار لترتفع إلى ما يقرب من ثمانية أمتار، وهدف سلاطين المماليك من ذلك عدم تكرار ما حدث للمدينة من جراء حملة بطرس عليها. انظر:

أحمد مختار العبادي: البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، ضمن كتاب تاريخ البحرية، الإسكندرية ١٩٧٣، ص٥٩٨ – ٦٠٠.

(٦٩) الجدير بالذكر أن المؤرخ ابن الصيرفي حدد تاريخ وصول أخبار حملة بوسيكو إلى مسامع السلطان فرج بتاريخ ١٤ ذي القعدة ٨٠٥هـ /٧يونيو ١٤٠٣م، انظر:

ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ٣ أجزاء، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٧٠م، ج٢، ص١٦٨. وكذلك أيضاً:

Emmanuel Piloti, Traite', P. 192.

(٧٠) من هؤلاء الأمراء: بيلغا الناصري وبكتمر، وجركس، وتمراز، وتغري بردي، وغيرهم. انظر:

المقريزي: السلوك، ج٣، ص١١٥؛ ابن حجر العسقلاني إنباء الغمر، ج٥، ص٧٨.

(٧١) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص١٦٨.

(٧٢) Le Livre des Faicts, II, Ch. XVIII, P. 47; Emmanuel Piloti, Traite', P. 193.

(٧٣) Le Livre des Faicts, II, Ch. XVIII, P. 47 – 48; Chronique d' Antonio Morosini, P. 54.

(٧٤) De Laville Le Roulx, La France en Orient, P. 438.

(٧٥) Le Livre des Faicts, II, Ch. XVIII, P. 48.

(٧٦) Emmanuel Piloti, Traite', PP. 193 – 194; Le Livre des Faicts, II, Ch. XVIII, P. 48.

(٧٧) Chronique d' Antonio Morosini, P. 55.

(٧٨) Emmanuel Piloti, Traite', P. 193.

(٧٩) الكارم هو التبهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب إلى مصر من بلاد الهند والسند

عن طريق ثغور اليمن، وعرف تجار تلك السلعة باسم الكارمية، وكان لهم رئيس معترف به من قبل السلطات المملوكية ، وأطلق عليه رئيس الكارمية، ويعد برهان الدين المحلي أشهر تجار الكارم وأكثرهم ثراء، وكان من المقربين من السلطان فرج بن برقوق،حيث بعثه الأخير ومعه عشرة آلاف دينار لعمارة ما تخرب من الحرم المكي الشريف نتيجة الحريق الذي وقع فيه عام ١٣٩٩م / ٨٠٢هـ، وعرف عنه مساهمته في تجديد جامع عمرو بن العاص بالقاهرة، ونال برهان العديد من عبارات المدح من جانب الشاعر بدر الدين الدماميني في إحدى قصائده، لمزيد من التفاصيل، انظر: سعود محمد العصفور: تجارة الكارم في العصر المملوكي، مجلة المؤرخ المصري" دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة"، كلية الآداب – جامعة القاهرة، العدد الثلاثون، أبريل ٢٠٠٧م، ص١٥ – ٢٣.

(٨٠) الجدير بالذكر أن المؤرخ ابن إياس نقل أخبار حملة بوسيكو عن المقريزي دون أية اضافة. انظر: المقريزي: السلوك، ج٣، ص١١١٥، ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، خمسة أجزاء، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٢ – ١٩٨٤م، ج١، ص٦٨٠.

(٨١) Emmanuel Piloti, Traite', P. 195.

(٨٢) Johannes, P., Mediators Between East and West: Christians Under Mamluk Rulo, Center for Middle Eastern Studies of The University of Chicago (May 14, 2004),P.42.

(٨٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي، ص١٦١ – ١٦٢.

(٨٤) كان بيلوتي من المقربين من السلطان فرج، مما شجع الأخير على اختياره ليكون رئيساً للوفد المسافر إلى ناكسوس Naxos – إحدى جزر بحر إيجه – من أجل مفاوضة حاكمها جاك كريسبو Jacques Crispo في أمر إعادة مائة وخمسين أسيراً مسلماً كانوا لدى جاك كريسبو، وقد نجح بيلوتي في دوره الدبلوماسي وأنجز المهمة، وعاد إلى مصر يرافقه الأسرى المسلمون، لينال بيلوتي رضا السلطان فرج ويكافئه بإعفائه من دفع ضرائب على تجارته، ليصبح بيلوتي بعدها أشهر الأجانب المقيمين في مصر، انظر: Emmanuel Piloti, Traite', P.201 – 205.

(٨٥) De La Ville Le Roulx, La France en Orient, vol. 1, P. 402.

(٨٦) Le Livre des Faicts, II, Ch. XIX, P. 50.

(٨٧) ذكر كل من إيمانويل بيلوتي وبرناردو مورسيني في تقريره بأن قوات بوسيكو التي خرجت بلغت ثلاثون قطعة حربية منها تسعة من جنوة، واثنين من الملك القبرصي، ومثلهما من سيد استبارية رودس، في حين قدم الملك الفرنسي شارل السادس سبع سفن معظمها خاص بنقل الجنود والخيول، وعدة سفن من مناطق أخرى. وقد اتفق

معهما المؤرخ العربي المقريزي في تحديد عدد سفن حملة بوسيكو بثلاثين سفينة أيضاً. انظر:

Emmanuel Piloti, Traite', P. 196; Lettre de Bernardo Merosini, P. 801.

كذلك أيضاً:

المقريزي: السلوك، ج٣، ص١١١٤

(٨٨) Le Livre des Faicts, II, Ch. XIX, P. 49.

(٨٩) Emmanuel Piloti, Traite', P. 196; Le Livre des Faicts, II, Ch. XIX, P. 50.

كذلك أيضاً:

المقريزي: السلوك، ج٣، ص١١١٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٨١.

(٩٠) ذكر كاتب سيرة بوسيكو أن المقاتلين المسلمين كانوا يرتدون ملابسهم ويبدو عليهم الثراء، وكانت سروج خيولهم تغطى بقماش ذهبي لامع مما يدل على أن هؤلاء الفرسان كانوا يتمتعون بمكانة عالية بين قومهم. انظر:

Le Livre des Faicts, II, Ch. XIX , PP. 50 – 51.

(٩١) في الوقت الذي أشار فيه كل من المقريزي وابن إياس على أن الأمير دمرداش كان في بعلبك وقت وصول حملة بوسيكو إلى طرابلس، أشار كاتب سيرة بوسيكو أن الأمير المذكور كان هارباً في الحدائق المحيطة بطرابلس. انظر:

المقريزي: السلوك، ج٣، ص١١١٤، ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٨٠. انظر أيضاً:

Le Livre des Faicts, II, Ch. XIX, P. 51.

(٩٢) Le Livre des Faicts, II, Ch. XX, P. 52.

(٩٣) المنجنيقات: جمع منجنيق وهي كلمة فارسية، وهي عبارة عن آلة من الخشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنب خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يوضع فيها الحجر. ويجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه، فما أصاب شيئاً حتى أهلكه. ومما يلتحق بالمنجنيق الزيارات وهي اللوب والحبال التي يجذب بها المنجنيق حتى ينحط أعلاه ليرمي به الحجر. وآلة المنجنيق مختلفة الأنواع، فمنها الفارسي والتركي ويعد النوع العربي أفضلها من حيث الصناعة والإتقان. انظر:

القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣ ، ص١٢٦ .

(٩٤) Le Livre des Faicts, II, Ch. XX, PP. 56.

(٩٥) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXI, P. 59.

(٩٦) المقريزي: السلوك، ج٣، ص١١١٤؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج٥، ص١٣٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٨٠.

(٩٧) Lettre de Bernardo Morosini, P. 800; CF .also; De Laville Le Roulx, La France en Orient, vol. 1, P. 442.

(٩٨) هو الأمير شيخ المحمودي الذي كان نائباً على الشام، وقد أعلن فيما بعد الثورة على السلطان فرج، حيث نجح في قتله عام ١٤١٢م / ٨١٥هـ، وتم اختيار الخليفة العباسي المستعين سلطاناً على مصر بصفة مؤقتة، وفي تلك الأثناء نجح الأمير شيخ المحمودي في إعلان نفسه سلطاناً على مصر، ثم تخلص من غريمه نوروز وقتله أيضاً، ثم لقب نفسه بالسلطان المؤيد، لمزيد من التفاصيل، انظر:
العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد "شيخ المحمودي، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٢٥٣ – ٢٥٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ستة عشرة جزءاً، دار الكتب، بيروت ١٩٩٢م، ج١٣، ص١٥٧ – ١٥٨.

(٩٩) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين نشر لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت ١٨٩٨م، ص٥٧.

(١٠٠) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXI, P. 58.

(١٠١) جانب الصواب ما ذكرته حولية أنطونيو موروسيني من أن وصول بوسيكو وفوائه لبيروت كان في ٩ أغسطس، وأيضاً ما ذكره بيلوتي في أنه ١٩ أغسطس. حيث كان من الثابت وتوافقاً مع ما ذكره المؤرخ العربي صالح بن يحيى – شاهد العيان على تلك الأحداث – أن وصول الصليبيين لبيروت كان في ٢٠ محرم / ١٠ أغسطس. انظر:
Emmanuel Piloti, Traite', P. 197; Chronique d' Antonio Morosini, P. 64.

وأيضاً: صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٥٦.

(١٠٢) Emmanuel Piloti, Traite', P. 112.

(١٠٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٥٦ – ٥٧.

(١٠٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٥٦.

(١٠٥) قدر بيلوتي قيمة البضائع التي تخص البنادقة، ونهبها بوسيكو ورجاله بثلاثين ألف دوقية ذهبية، في حين قدرها صالح بن يحيى بعشرة آلاف دينار، كذلك جانب الصواب المؤرخ ابن حجر العسقلاني حين ذكر أن ما حدث تم في مدينة صيدا وليس بيروت، كذلك في إشارته بأن البضائع التي سرقت تخص تجار الفطلان وليس البنادقة. انظر:
Emmanuel Piloti, Traite', P. 197.

انظر أيضاً:
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٥٨، ابن حجر العسقلاني، ج٥، ص١٢٣.

(١٠٦) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٥٦.

(١٠٧) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXI, P. 60; Chronique d' Antonio Morosini, P. 88.

(١٠٨) Chronique d' Antonio Morosini, P. 64.

(١٠٩) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXI, P. 58.

(١١٠) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٥٦.

(١١١) المقريزي: السلوك، ج٣، ص١١١٤؛ ابن إياس بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٨٠.

(١١٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ص١١١٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٨٠.

(١١٣) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXXI, P. 90.

(١١٤) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXXI, P. 89 – 90.

(١١٥) Emmanuel Piloti, Traite', P.198.

(١١٦) Lettre de Bernardo Morosini, P. 801, CF. also; De Laville Le Roulx, La France en Orient, Vol. 1, P. 443.

(١١٧) Chronique d' Antonio Morosini, P. 75.

(١١٨) بدأت الحرب بين جنوة والبندقية، والتي عرفت بحرب كيوجيا Chioggia في مايو ١٣٧٨م، وقد استمرت ما يقرب من ثلاثة سنوات تسببت خلالها في العديد من مظاهر الدمار الاقتصادي على جنوة والبندقية، بل وعلى كل القوى السياسية في إيطاليا في القرن الرابع عشر الميلادي، حتى تدخل البابا أوربان السادس UrbanVI (١٣٧٨ – ١٣٨٩)م، الذي اقترح عقد مؤتمر سلام بين الجانبين، وهو ما حدث بالفعل بتوقيع معاهدة تورين في ٨ أغسطس ١٣٨١م، والتي نصت على عدد من البنود أرست السلام بين جنوة والبندقية حوالي عقدين من الزمان، انظر:
Vita Caroli, P. 102 ; CF. also: Setton, K., The Papcy, P. 385.
انظر أيضاً: هايد: تاريخ التجارة، ج٢، ص١٨١ – ١٨٨.

(١١٩) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٥٧.

(١٢٠) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXII, P. 61.

(١٢١) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXII, P. 62.

عندما حشد الملك الفارسي إكسركسيس Xerxes قواته، والتي بلغت أكثر من عشرة آلاف فارس، وتوغل في جنوب بلاد اليونان كان عليه أن يجتاز الجبال عبر ممر ثرموبيلاي Thermopylae، والذي كان مكلفا بالدفاع عنه ليونيدوس وفرقته البالغة ثلاثمائة محارب إسبرطي، وذلك في عام ٤٨٠ ق. م، وقد نجح القائد الإسبرطي في

الصمود فترة طويلة أمام الهجوم الفارسي الشرس، وعلى الرغم من مقتل ليونيدوس ورجاله جميعاً في تلك المعركة، إلا أنه ظل رمزاً للبسالة والقتال حتى الموت. انظر: لطفي عبد الوهاب: اليونان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٨م، ص١٥٩.

(١٢٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٥٦ – ٥٧.

(١٢٣) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXII, P. 63.

انظر أيضاً: صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٥٧.

(١٢٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ص١١١٤.

(١٢٥) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٥٨.

(١٢٦) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXIII, P. 64.

(١٢٧) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXIII, P. 65; Chronique d' Antonio Morosini, P. 69.

(١٢٨) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXIII, P. 66; Chronique d' Antonio Morosini, P. 70.

(١٢٩) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٥٨.

(١٣٠) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXIV, P. 67.

(١٣١) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXIV, PP. 67 – 68.

(١٣٢) Emmanuel Pilti, Traite', P. 199; Le Livre des Faicts, II, Ch. XXXI, P. 94.

(١٣٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٥٨، المقريزي: السلوك، ج٣، ص١١١٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٢، ص٦٨٠.

(١٣٤) Le Livre des Faicts, II, Ch. XXXI, P. 95.

(١٣٥) ذكر بيلوتي أن التعويض الذي طالب به السلطان ينص على أن يدفع بوسيكو في البداية مبلغ ثلاثين ألاف دوقية ذهبية، ثم في نهاية العام، يدفع مائة وخمسين ألف دوقية ذهبية، وعند ذلك يعود النشاط التجاري للجنوية في أراضي السلطات المملوكية. انظر: Emmanuel Piloti, Traite', PP. 199 – 200.

(١٣٦) Setton, K., The Papcy and The Levant, P. 389.

(١٣٧) Emmanuel Piloti, Traite, PP. 197 – 198; Chronique d' Antonio Morosini, P. 84.

(١٣٨) Emmanuel Piloti, Traite, P. 201; CF. also; Ashtor, E., Levant Trade, P. 243.

(١٣٩) Emmanuel Piloti, Traite, P. 202; CF. also; Ashtor, E., Levant Trade, P. 220.

(١١٠) بالإضافة إلى تدخل البابا، كان الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني، قد توسط بين جنوة والبندقية، ونجح في وقف القتال بين الطرفين، وذلك في ٢٢ مارس ١٤٠٤م، إلى أن وقعت معاهدة الصلح في ٢٨ يونيو ١٤٠٦م، والتي أشار إليها المؤرخ إيمانويل بيلوتي بقوله " إن الجنوية دفعوا مبلغاً كبيراً من المال للبنادقة، وذلك لتعويض البنادقة عن السفينة التي استولى عليها بوسيكو وحملته من القبطان البندقي مارتين لورينزو Martin Lorenzo. وأيضا أشار المؤرخ صالح يحيى عن ذلك بقوله: " أن البنادقة اقتضوا من الجنوية نظيرها – يقصد البضائع التي سرقت – وأزيد انظر:

Emmanuel Piloti, Traite', P. 193; CF also: Hazlitt, W. C., The Venetian Republic (its Rise, its Growth, and its Fall), vol. 1, (London, 1915), PP. 778 – 779; Ashtor, E., Levant Trade, P. 220.

انظر أيضاً: صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٥٨.

(١١١) Chronique d' Antonio Morosini, P. 91.

(١١٢) Chronique d' Antonio Morosini, P. 175.

(١١٣) Housley, N., Casting The Crusade, in M. Bull and Housley,N., (eds), The Experience of Crusading, vol. 1, Western Approaches, (Cambridge, 2003), PP. 45 – 59, P. 53.

(١١٤) فقد الفرنسيين في معركة أزينكورت ما يقرب من ثمانية آلاف رجل، بالإضافة إلى ألف وستمائة أسير منهم العديد من النبلاء والفرسان، وعلى رأسهم المارشال بوسيكو. انظر:

Robin, N., The Hundred Years War, (Routledge, 2001), P. 52; Rothero, C., The Armies of Agincourt, (Oxford, 2003), PP. 7 – 8.

(١١٥) Christopher, P., The French Plan of Battle During The Agincourt Campaign, E. H. R., (1984), XCIX, PP. 59 – 64, P. 60.

(١١٦) Emmanuel Piloti, Traite', P. 201.

(١١٧) Emmanuel Piloti, Traite', P. 194.

(١١٨) Emmanuel Piloti, Traite', P. 155.

(١١٩) Emmanuel Piloti, Traite', P. 200.

(١٢٠) Ashtor, E., Levant Trade, P. 243.

بيان بالمختصرات الوارد ذكرها في هوامش البحث

E.H.R.	:	English Historical Review.
J.M.H	:	Journal of Medieval History.
R. I. S	:	Rerum Italicarum Scriptores.
S.M	:	Studia Monastica.
S. M. I. M :		Studi si Materiale de Istorie Medie.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأجنبية

Chronique d' Antonio Morosini,

- Extraits Relatifs a' L' histoire de France, Introduction et Commentaire Par Germain Lefe'vre – Pontalis, text e'table et traduit par L'eon Dorez, T. 1, (Paris, 1898).

Emmanuel Piloti,

- Traité d'Emmanuel Piloti sur le Passage en Terre saint (1420), ed. P.H. Doop, Publication de L'uiversité Lovanium de Léopoldville, (Louvain, 1958).

Le Livre des Faicts,

- Le Livre des Faicts du Mareschal de Boucicaut, ed. M. Petitot, 4 Parties, (Paris, 1925)

Lettre de Bernardo Morosini,

- Lettre de Bernardo Morosini dans Marino Sanuto, Vite de' duchi di Venezia, in Muratori. L. A., R. I. S., XX (Milan, 1783).

Mahkairas, L.,

- Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus entitled ' Chronicle ', ed. With trans and notes by R. M. Dawkins, 2 vols., (Oxford, 1930)

Pero Tafur,

- Travel and Adventures, trans, by Malcolm Letts ,(London, 1946)

Vita Caroli,

- Vita Caroli Zeni, by Jaco Po Zeno (in Muratori L. A., R. I. S., vol. XIX, Part VI (Bologna, 1940 – 1941).

ثانيا : المصادر العربية

ابن إياس (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي:

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، خمسة أجزاء، تحقيق محمد مصطفى، نشر مركز تحقيق التراث، نسخة الهيئة العامة المصرية للكتاب، طبعة ثانية مصورة عن الأولى، القاهرة ١٩٨٢ – ١٩٨٤.

ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ – ١٣٧٧م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله:

- رحلة ابن بطوطة المسماة " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "، أربعة أجزاء، باريس ١٨٩٣ – ١٩٢٢م

ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) شهاب الدين أبو الفضل أحمد:

- إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تسعة أجزاء، تحقيق محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦م

ابن الصيرفي (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٧م) علي بن داود:

- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ٣ أجزاء، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٧٠م

صالح بن يحيى (عاش في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي): الصالح بن الحسن أمير الغرب:

- تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين، نشر لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت ١٨٩٨م

العيني (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) بدر الدين أبو محمد بن أحمد بن موسى:

- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد " شيخ المحمودي، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٣م

القلقشندي (ت٨٢١هـ / ١٤١٨م) أحمد بن علي بن أحمد عبد الله:

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩١٣م

المقريزي (ت٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقي الدين أبو العباس أحمد:

- السلوك لمعرفة دول الملوك، أربعة أجزاء في اثنى عشر قسماً، حقق الجزئيين الأوليين محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٩ – ١٩٤٢م، وحقق الجزئيين الثالث والرابع سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠ – ١٩٧٣م

ثالثا : المراجع الأجنبية

Ashtor, E.,
- Levant Trade in the Later Middle Ages, (Princeton University Press, 1983)

Aziz, S. A.,
- The Crusade of Nicopolis, (London, 1934).
- The Crusade in The Later Middle Ages, (London, 1938)

Barker, J. W.,
- Manuel II Palaeologus, 1391 – 1425, A Study in Later Byzantine Statesmanship, (New Jersey 1969)

Balard, M.,
- Genoese Naval Forces in The Mediderranean in the 15th and 16th Centuries, (Oxford, 2003)

Bre'hier, L.,
- Life and Death of Byzantium, trans. Margaret Vaughan, (New York, 1977)

Christopher, P.,
- The French Plan of battle during the Agincourt Campaign, E. H. R., (1984), XCIX, PP. 59 – 64.

Delaville Le Roulx,
- La France en Orient au XIVe Si'ecle, (Biblioth'eque des Ecoles Francasies d'Athenes et de Roma, s'er. I, XLIV – XLV), 2 Vols, (Paris, 1885 – 1886)

Devries, K.,
- The Lack of a Western European Military Response to The Ottoman Invasions of Europe from Nicopolis (1396) to Mohaca (1526), J. M. H. Vol. 63, No. 3 (Jul, 1999), PP. 539 – 559.

Hazlitt, W. C.,
- The Venetian Republic: (its Rise, its Growth, and its Fall),vol. 1, (London, 1915).

Housley, N.,
- Documents on the Later Crusade, 1274 – 1580, (New York, 1996).

- One Man and his Wars: the depiction of Warfare by Marshal Boucicaut's Biograoher, in J. M. H. vol. 29 (2003), PP. 27 – 40.
- Casting the Crusade, in M. Bull and N. Housley (eds), The Experience of Crusading, Vol. 1, Western Approaches, (Cambridge, 2003), PP. 45 – 59

Johnnes, P.,

- Mediators between East and West: Christians Under Mamluk Rulo, Center for Middle Easterns Studies of The University of Chicago (May 14, 2004).

La Lande, D.,

- Jean II Le Meingre, Dit Boucicaut, Etude D'une Biographir Heroiaue, (Gen'eve, 1988).

Lane, F.,

- Venice and History, (Baltimore, 1966).

Mate, C.,

- Venise et La Moldavie au d'ebut du XVe Sie'cle, S. M. I. M., XXI, (2003).

Mass – Latrie,

- Histoire de L'Ile de Chypre Sous Le Regne des La Maison de Lusignans, 3 vols., (Paris, 1852 – 1861)

Nicholson, H.,

- The Knights Hospitaliers, (Woodbridge Boydell Press, 2001).

Nicole, D.,

- The Last Centuries of Byzantium 1261 – 1453, (Cambridge, 2002).

Robie, H.,

- The Financial System of Egypt, (London, 1972).

Rothero, C.,

- The Armies of Agincourt, (Oxford, 2003).

Rubbert, L. B.,

- Venetian Money Market 1150 – 1229', in S. V, XIII, (1971).

Setton, K.,

• The Papacy and the Levant (1204 – 1571), vol. 1. (Philadelphia, 1976).

رابعاً: المراجع العربية والمعربة

إبراهيم سعيد (دكتور):
• حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى (١٢٩١ –١٥١٧م / ٦٩٠ – ٩٢٣هـ)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٧م

أحمد مختار العبادي (دكتور):
• البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، ضمن كتاب تاريخ البحرية، الإسكندرية ١٩٧٢.

درويش النخيلي (دكتور):
السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية ١٩٧٤م.

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):
• العصر المماليكي في مصر والشام، ط١ دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٥م.
• أوروبا العصور الوسطى، جزءان، القاهرة ١٩٧٨م
• الحركة الصليبية " صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلام في العصور الوسطى"، جزءان، ط٧، القاهرة ١٩٩٧م.
• قبرص والحروب الصليبية، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢م.

سعود محمد عصفور (دكتور):
• تجارة الكارم في العصر المملوكي، مجلة المؤرخ المصري" دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة"، كلية الآداب – جامعة القاهرة، العدد الثلاثون، أبريل ٢٠٠٧م.

سهير نعينع (دكتور):
• الحروب الصليبية المتأخرة" حملة بطرس الأول لوسينيان على الإسكندرية ٧٤٧هـ / ١٣٦٥م" القاهرة ٢٠٠٢م.

لطفي عبد الوهاب (دكتور):
• اليونان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٨م.

محمد فتحي الزامل (دكتور):
• الحصار الاقتصادي على مصر أواخر العصور الوسطى (١٢٩١ – ١٥١٧)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٩م.

ناجلا محمد عبد النبي (دكتور):
• مصر والبندقية " العلاقات السياسية والاقتصاد عصر المماليك الجراكسة (١٣٨٢ – ١٥١٧م / ٧٨٤ – ٩٢٣هـ) " ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠١م.

نظير حسان سعداوي (دكتور):
• تاريخ انجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى، دار النهضة العربيـة، القـاهرة ١٩٦٨م.
هايد:
• تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد محمد رضا، مراجعة: عز الدين فودة، الهيئة العمة للكتاب، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩٨٥ – ١٩٩٢م.

العلاقات التجارية بين مصر والبندقية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين وتأثيرها علي دور البندقية في الحروب الصليبية

د. آمال سليمان عبد الحميد الزوي
أستاذ مشارك بكلية الآداب جامعة بنغازي

سنتناول موضوع العلاقات التجارية بين مصر والبندقية، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، وتأثيرها على دور البندقية في الحروب الصليبية، وذلك لما لهذه المرحلة التاريخية من أهميه في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب،انعكست بإيجابياتها وسلبياتها على ضفتي البحر المتوسط.

من هذا المنطلق سيطرح هذا البحث: مدى تأثير المصلحة الاقتصادية على مسار العلاقات التجارية بين مصر والبندقية، خلال الحروب الصليبية ، وكيف فرضت هذه المصلحة وجودها خلال الصراع الدائر آنذاك، سواء فيما بين البندقية ودول غرب أوروبا ، أو بين البندقية والشرق الإسلامي، وهو ما كشف لمصر الوجه الآخر للبندقية غير الذى عرفته قبل الحروب الصليبية.

سنناقش هذا الموضوع في المحاور التالية:

أولاً: نظرة تاريخية على العلاقات التجارية بين مصر والبندقية.

ثانياً: مسار العلاقة التجارية بين مصر والبندقية خلال الحروب الصليبية.

ثالثاً: مواقف البابوية المتباينة تجاه العلاقة التجارية بين مصر والبندقية.

رابعاً: حملة بطرس على الإسكندرية وتأثيرها على العلاقات بين مصر والبندقية.

أولاً - نظرة تاريخية على العلاقات التجارية بين مصر والبندقية

ارتبطت مصر والبندقية بعلاقات تجارية قوية قبل قيام الحروب الصليبية، باعتبارهما من البلدان الواقعة على طريق التجارة العالمية، فمصر، بحكم موقعها المتميز، مثلت حلقة وصل بين الشرق والغرب، كما شكلت موانئها ومدنها سوقاً مهمة للتبادل التجاري بين إفريقية وآسيا والغرب الأوروبي، قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح، في أواخر القرن الخامس عشر. وقد كان طريق البحر الأحمر، الذي تطل مصر عليه، من الطرق التجارية التي تدفقت من خلالها سلع اليمن والشرق الأقصى إلى موانئ غرب أوروبا، فحتى أواخر القرن الثالث عشر لم يكن الغرب الأوروبي يعرف شيئا عن التوابل الهندية والحرير الصيني، سوى أنها تأتي عن طريق نهر النيل والبحر المتوسط[١]. كذلك تميزت مصر بموارد اقتصادية مهمة،مثل الشب والسكر والنطرون والبلسم وغيرها[٢]. هذه المزايا شكلت مصدراً لجذب التجار الأوروبيين عامة، وتجار البندقية على وجه الخصوص.

ولم تكن البندقية تقل في الأهمية التجارية عن مصر، فقد كانت صاحبة تاريخ عريق، انفردت به عن غيرها من دول غرب أوروبا،كما تميزت عن زميلتيها جنوه وبيزا.

تأسست البندقية في القرن الخامس الميلادي على شواطئ الأدرياتي الشمالية، على الخليج المعروف باسم (جون البنادقة)، في الركن الشرقي من سهل لمبارديا[٣]، على يد بعض سكان أوروبا الفارين من غارات قبائل الهون[٤]، أثناء اكتساحهم وسط القارة الأوروبية وشمال شرقي إيطاليا. وفي القرن الحادي عشر الميلادي أصبحت مدينة البندقية تتكون من مائة وسبع عشرة جزيرة، تربطها ببعضها بعضا الجسور والقناطر، كما أصبح لها أسطول تجاري وحربي ضخم. وقد استطاعت قبل عام ١١٠٠م أن تطهر الجزء الدلماشي، من الأدرياتيكي، من قراصنة البحر الذين كانوا منتشرين هناك، وأن تحكم قبضتها على كل ساحل البحر الشرقي؛ الذي اعتبرته ضمن نطاق حدودها. وهكذا تمكنت البندقية، التي يطلق عليها "ملكة الإدرياتي"، أن تشيد عظمتها وقوتها المادية

والاقتصادية من خلال التجارة، مما جعلها تتمتع بنفوذ كبير في حوض البحر المتوسط، وخاصة في مصر، فأصبح لها محطات وعلاقات تجارية ومالية،الأمر الذي انعكس بشكل كبير على قوتها التجارية في وسط أوروبا، إذ قامت بتسويق تجارتها في تلك الأنحاء[٤]. وبهذا مثلت البندقية حلقة وصل بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، من خلال نشاطها التجاري مع مصر.

وفي السياق ذاته: حرصت البندقية على إقامة علاقات طيبة مع مصر، وخاصة بعد الامتيازات التجارية التي حصلت عليها، على أثر سياسة التسامح التي انتهجها الخلفاء الفاطميون، لا سيما بعد وفاة الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي(٩٩٦-١٠٢١م)، إذ انتعشت العلاقات التجارية بين البندقية ومصر، فحملت سفن البندقية الأخشاب والحديد إلى الموانئ المصرية[٥]. وفي عهد الإمبراطور حنا تزميسكس(عام٩٦٩-٩٧٦م)، الذي دخل في صراع مع المسلمين في مصر والشام، تعرض تجار البنادقة لتهديدات، من قبل الإمبراطور، بعدم مد مصر وغيرها من المدن الإسلامية بالخشب اللازم لبناء السفن، لكن البندقية، حفاظاً على مصالحها التجارية في المقام الأول، لم ترضخ للتهديدات، وواصلت نشاطها التجاري مع مصر، بل إن دوج[٠٠] البندقية "بطرس أورسيلو" أرسل بعثات إلى مصر عام ٩٩٢م، لتوطيد العلاقات التجارية، من خلال الحصول على مزيد من الامتيازات للتجار البنادقة وسفنهم في الموانئ المصرية، كما حصلت البندقية على مكان لها في أسواق الإسكندرية، خلال القرن الحادي عشر الميلادي، فنقل البنادقة بسفنهم، إلى ميناء الإسكندرية، الرقيق والحديد والخشب، وعادوا منها محملين بالتوابل الهندية والحرير الصيني والمنتجات المصرية[٦]. ويرجع ذلك إلى العلاقات الودية التي احتفظت بها كل من مصر والبندقية في عهد الملك العادل (١١٩٩-١٢١٨م) أخي صلاح الدين الأيوبي، وكان من نتائجها توقيع معاهدة تجارية عام١٢٠٨م، منحت بموجبها مصر البندقية تسهيلات تجارية في الموانئ المصرية، مع تعهدات من السلطان بحماية البنادقة في المناطق التي تتبعها، كما اشتملت المعاهدة على منحهم فندقاً ثانياً لهم في الإسكندرية[٧].

يلاحظ الباحث على هذه الفترة: أنها تميزت بنشاط ملحوظ للبنادقة في مصر. وقد يرجع ذلك إلى العلاقة السيئة التي كانت بين البندقية والإمبراطورية البيزنطية، في عهد الإمبراطور البيزنطي "ميخائيل الثامن بيلوجس"، بعد أن وقع اتفاقية عام١٢٦١م مع جنوه عدوة البندقية ومنافستها في تجارة البحر المتوسط، وفي الإمبراطورية البيزنطية، على القضاء على نفوذ الإمبراطورية اللاتينية، التي تكونت على أثر الحملة الصليبية التي قادها الغرب الأوروبي ضد الإمبراطورية البيزنطية، وانتهت بالسيطرة على القسطنطينية، وتكوين ثلاثة ممالك هي: ايبر، وسونيقيا، وطرابيزون، وكان للبندقية نصيب كبير في هذه الحملة فسيطرت على عدة مواقع تجارية في القسطنطينية،كما حصلت على امتيازات تجارية واسعة. وعندما شعرت البندقية أن مصالحها التجارية مهددة، بعد عودة آل بيلوجس واسترجاعهم القسطنطينية، عملت على تعويض ذلك بتعزيز صلاتها مع مصر، وذلك بتوقيع معاهدة، عام ١٢١٥م، أدت إلى زيادة تدفق التجار البنادقة ومضاعفة رحلاتهم إلى مصر[٨].

خلال هذه الفترة بلغت العلاقات بين مصر المملوكية والبندقية أوج قوتها، حتى إن دوج البندقية كان ينهي مراسلاته إلى سلاطين المماليك بقوله"إنه يقبل الأرض بين يدي السلطان، ويبدي له الشوق والمحبة"[٩]. وفي عهد السلطان المعز أيبك (١٢٥٠-١٢٥٧م) أول سلاطين المماليك، حصلت البندقية على امتيازات جديدة، تتضمن حماية البنادقة ومتاجرهم في الأراضي والمياه المصرية، مع إعفاء تجارهم من بعض الرسوم والضرائب الجمركية، والعمل على تنظيم الشؤون القضائية للبنادقة المترددين والمقيمين في الديار المصرية، وحددت هذه المعاهدة، في الوقت نفسه،حقوق البنادقة في الإسكندرية وتنظيم فنادقهم[١٠].

وفي عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاون(١٢٧٩-١٢٩٠م) تواصل الاهتمام بالمجال التجاري في مصر، فأبرم السلطان معاهدات تجارية مع البندقية، خفض بموجبها الرسوم الجمركية عنهم، إلى جانب منحهم الأمن والحماية على ممتلكاتهم

وأرواحهم. وكان السلطان يهدف من ذلك إلى جذب تجارة البندقة إلى مصر، من خلال منحهم امتيازات واسعة سهلت عليهم سبيل المتاجرة.

ومما يدل على المكانة والمركز الممتاز الذى لعبته البندقية، بالنسبة لتجارة مصر أن الدنانير التي كانت تتعامل بها مصر كانت تعرف باسم (الدوكات)[***]، وخاصة بعد الخلل الذى اعترى الدنانير المملوكية، بسبب تلاعب السلاطين والأمراء بالوزن، بهدف الربح غير المشروع. وقد وصف القلقشندي هذه العملة بأنها (معلومة الأوزان، كل دينار منها معتبر بتسعة عشر قيراطاً ونصف قيراط من المصرى...)[١١].

ثانياً: مسار العلاقات التجارية بين مصر والبندقية خلال الحروب الصليبية:

تعرض الشرق الإسلامي، منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادى، لخطر الهجوم الأوروبى الذي عرف بالحروب الصليبية. وقد انتهت هذه الحروب بنهاية القرن الثالث عشر الميلادي، في حين استمرت تداعياتها حتى القرن الخامس عشر الميلادى.

هذا ويحدد المؤرخون عدد الحملات الصليبية التي خرجت من الغرب إلى الشرق- في المدة الواقعة بين القرن الحادي عشر ونهاية القرن الثالث عشر الميلادي- بثماني حملات، اتجهت أربع منها نحو بلاد الشام هى: الأولى والثانية والثالثة والسادسة، واثنتان ضد مصر هما الخامسة والسابعة، وواحدة ضد القسطنطينية هي الرابعة، وأخرى نزلت في شمالى إفريقيا هي الثامنة[١٢].

كانت البواعث الظاهرة لهذه الحملات الصليبية، على الشرق الإسلامي، هي انتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، في حين تعددت البواعث الحقيقية لتشمل جوانب عدة، منها الاقتصادي والسياسى والاجتماعي. ومع حلول القرن الثالث عشر الميلادي حدث تغير في مسار الحركة الصليبية، لا سيما بعد تنامي القوة الإسلامية في مصر بشكل خاص، فبعد أن كان بيت المقدس هو الهدف الأساسي للحملات الصليبية، أصبحت مصر هي هدفه التالي.

وكان ريتشارد قلب الأسد، أحد قادة الحملة الصليبية الثالثة(١١٨٩-١١٩٢م) قد أوصى بمهاجمة مصر، إذ اعتبرها النقطة الأهم في العالم الإسلامي، وهي مفتاح بلاد

الشام، كذلك أوصى مجمع "اللاتران"، الذي عقد برئاسة البابا "أنوسنت الثالث" في عام١٢١٥م، بضرورة مهاجمة مصر، لأن استيلاء الصليبيين عليها يفقد المسلمين إقليما استراتيجياً وغنياً، مما يؤثر سلبا على قدرتهم العسكرية، فلا يستطيعون المحافظة على أسطولهم في شرق البحر المتوسط، ولن يستطيعوا البقاء في بيت المقدس، بعد أن تقع قواتهم بين القوات الصليبية في عكا ومصر. وعلى ضوء ذلك يمكن تفسير التحول الجديد في مسار الحملات الصليبية، واتجاهات الصليبيين وتوجههم نحو مصر، منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي[١٣].

وفيما يتعلق بموقف البندقية في هذه المرحلة، فإنها حرصت على استمرار نشاطها التجاري في مصر، على الرغم من مساهمتها في الحملات الصليبية، وذلك نتيجة طبيعية لسياستها الاقتصادية القائمة على ترجيح مصلحتها التجارية، قبل أي شيء آخر. من هذا المنظور اتسمت استراتيجية البنادقة في إدارة علاقاتهم التجارية، خلال الحروب الصليبية، بالتأرجح، بحسب ما تمليه عليهم المصلحة الاقتصادية، لذلك نرى أنهم أسهموا بسفنهم وأساطيلهم في نقل الجنود والقادة من الموانئ الأوروبية إلى سواحل مصر والشام، حتى إنهم، على أثر الأرباح التي حققوها من هذه الحرب، سارعوا إلى وضع سفن جديدة تحت تصرف الصليبيين، وشاركوهم أيضا في الاستيلاء على الموانئ الشامية، تحقيقا لمصالحهم وأطماعهم التجارية في المنطقة، كذلك حصلوا على امتيازات كثيرة في المدن التي كانت خدمتها ضرورية لهم، فحصلوا، منذ نهاية القرن الحادي عشر، على تسهيلات ساعدتهم في إقامة فنادقهم ومرافئهم على سواحل بلاد الشام[١٤].

لقد كان هدف التجار البنادقة تحقيق مصلحتهم فقط. ونظراً للمكاسب الكبيرة التي عادت عليهم من السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية، التي أصبحت مصر مصدر ثراء كبير للمشتغلين بها، فإن امتلاك مصر – حيث تنتهي الطرق البحرية الرئيسة لهذه السلع – كان حجر الزاوية في السيطرة على تجارتها، ولذلك لم يكن يعنيهم الباعث الديني إلا بالقدر الذي يحقق مصالحهم. ويكفي أن نعرف أن شعارهم

الذي عرفوا به وقتذاك هو(لنكن أولاً بنادقة، ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين)[١٥]. ولذلك نجد البندقية تتريث في تقديم المساعدات للصليبيين في الحملة الصليبية الأولى،لمعرفة مدى المصلحة التي سوف تعود عليها من هذه الحملة.

وهكذا لعبت البندقية دوراً مزدوجاً في علاقتها مع الصليبيين والمسلمين، فمن جهة كانت تمد يد العون للصليبيين، لمواجهة صلاح الدين الأيوبي، وذلك حرصاً منها على امتيازاتها التجارية لدى الإمارات الصليبية في بلاد الشام، ومن جهة أخرى كانت تقوم بنقل السلع، والمتاجرة في الأسلحة والأدوات الحربية، إلى المسلمين في مصر، كما يلاحظ أن البندقية لعبت دوراً كبيراً في تغيير مسار الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤م) التي كان من المفروض أن تتجه إلى مصر، ولكن بسبب الامتيازات التجارية الكبيرة التي حصلت عليها من مصر، نجدها تلعب دوراً كبيراً في تغيير مسار الحملة نحو القسطنطينية، مستغلة عجز قادة الحملة عن دفع الثمن المتفق عليه، وخاصة بعد وفاة ثيبوت كونت شمبانيا؛ الذي كان أكبر المساهمين في الحملة مادياً[١٦].

ولكن من المفاوضات التى حدثت فى هذه الفترة؛ نجد البندقية ترحب،فى الوقت ذاته، بالحملة الصليبية الخامسة على مصر،التى كانت بقيادة "جان دي برين" (١٢١٨-١٢٢١م)، وتمكن فيها من الاستيلاء على دمياط. وقد نظر البنادقة إلى هذه الحملة على أنها انتصار كبير لتجارتهم، ولهذا رفضوا شروط الصلح التي تقدم بها السلطان الملك الكامل للجلاء عن دمياط؛ التى كانت مركزاً تجارياً مهماً لدى التجار البنادقة،وكانت تفوق من حيث الأهمية التجارية مدينة بيت المقدس، فلاغرابة إذا وجدنا البنادقة فى مقدمة المدافعين مع الصليبيين عن مدينة دمياط، لمنع سقوطها في أيدي المسلمين. والجدير بالملاحظة أن السلطان الأيوبي لم يتخذ أي إجراء ضد البنادقة، بعد طرد الصليبيين من دمياط، بل على العكس نجد البندقية هى التى تتخذ موقفاً من الأيوبيين، بعد إخفاق هذه الحملة، فتمنع رعاياها من تصدير الخشب والحديد والقار إلى مصر، وتعمل على مراقبة تجارها وسفنها، وتفرض عقوبات على أي تاجر أوسفينة تنقل هذه البضائع إلى الموانئ المصرية[١٧].

لكن يبدو أن البندقية لم تستمر طويلاً في هذا الإجراء، وذلك بسبب الضرر الذي قد يلحق بتجارتها مع مصر، إذا استمرت في تطبيق هذه الإجراءات، لذلك نجد دوج البندقية يوقع، عام ١٢٣٨م، اتفاقية مع السلطان الملك العادل الثاني، والتي تمثل نقطة تحول مهمة في تاريخ تجارة البندقية، إذ تعد هذه الاتفاقية هي الأساس لكل المعاهدات التجارية التي وقعتها البندقية مع السلاطين الأيوبيين والمماليك، حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي[١٨].

وإذا كانت البندقية -كما رأينا- قد مدت يد العون إلى الصليبيين، تحقيقاً لمصالحها، فقد امتنعت عن مساعدتهم، في كثير من الأحيان، عندما كانت تجد أن مثل هذه المساعدة سوف تضرب مصالحها التجارية في مصر، ومن ثم رفضت البندقية تقديم المساعدة عندما طلب منها الملك لويس التاسع ملك فرنسا، الذي كان يعد للحملة الصليبية على مصر عام ١٢٤٨م،في نقل الجنود والمؤن والعتاد عبر البحر إلى مصر[١٩]، وذلك بسبب العلاقات الجيدة التي كانت تربطها بمصر في تلك الفترة.

أخذت فكرة الصليبية في التلاشي في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، وبدأ ذلك عندما تعرض بعض التجار البنادقة للمضايقات في الإسكندرية، فتقدم "قدرية جستنيان" قنصل البندقية بشكوى إلى السلطان فرج بن برقوق عام ١٤٠٣م، مهدداً بالرحيل عن البلاد، إذا لم تتحسن معاملة رعاياه،وبأنه سيعود بعد فترة على رأس حملة عسكرية. لم يعبأ السلطان فرج بتهديد البنادقة، لأنه كان يدرك حقيقة الوضع في غرب أوروبا، الذي كان يعاني من الانقسام، إذ انفصلت عدة دول عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة، مع وجود أكثر من شخصية على رأس البابوية، وكانت الدول الأوروبية عاجزة عن القيام بحملات صليبية، بسبب التكاليف الباهظة التي كانت تدفع لتموين الحملات، في حين أن العالم الإسلامي بدا أكثر قوة وتماسكاً[٢٠].

ثالثاً: مواقف البابوية المتباينة تجاه العلاقة التجارية بين مصر والبندقية:

كان من النتائج التي ترتبت على سقوط أمارة عكا الصليبية، عام ١٢٩١م، في يد المماليك، ومتابعة طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام، في العام نفسه، في عهد

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، أن فقدت البندقية امتيازاتها التجارية، التي كانت تتمتع بها في المدن الصليبية على امتداد قرنين من الزمن، كما ترتب على اشتراك البندقية في الدفاع عن إمارة عكا؛ وقوع عدد كبير من التجار البنادقة أسرى في يد السلطان الأشرف خليل، أودعوا في سجون القاهرة .

وقد دفع ذلك البابا نقولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢م)، الذي تأثر من سقوط عكا في أيدي دولة المماليك، إلى محاولة إضعاف هذه الأخيرة، وذلك عن طريق حرمانها من أهم مواردها الاقتصادية وهي التجارة، التي تعد أهم مصدر يمد الدولة بالمال ويقويها في وجه الصليبيين[٢١]. لذا أصدر البابا عدة مراسيم تحرم على التجار الأوروبيين، وخاصة البنادقة، المتاجرة مع دولة المماليك. وكانت هذه المراسيم تتضمن مجموعة من العقوبات على المدن والأفراد والدول التي تتعامل تجارياً مع مصر. وخصّ البابا بالذكر بعض المواد التي كانت مصدر قوة في اقتصاد مصر المملوكية،مثل الحديد والخشب والقار والكبريت، إضافة لبعض المواد الغذائية، مثل القمح والنبيذ والزيتون، وكذلك الرقيق الذي اعتمد عليه المماليك في دولتهم[٢٢].

ولتنفيذ سياسة المقاطعة؛ عمدت البابوية إلى استخدام القوة،عن طريق إرسال السفن الحربية بهدف التصدي لمراكب التجار الفرنجة الذين لا يتقيدون بأوامر الكنيسة وقراراتها، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية ترى أن مجرد الامتناع عن التجارة مع المسلمين؛ سيؤدي حتماً إلى حرمانهم من المورد الرئيس لقوتهم، ومن ثم إضعافهم، فيسهل القضاء عليهم، وبذلك يمكن استعادة بيت المقدس[٢٣]. وقد ردت السلطات المملوكية على هذا الحصار الاقتصادي الذي فرضته البابوية، بالترحيب بتجار الفرنجة عامة، والبنادقة خاصة، وإحسان معاملتهم، ومنحهم الكثير من الامتيازات التجارية. أما البندقية فقد رأت أن هذه الإجراءات تضر بمصالحها الاقتصادية، ومن ثم تؤثر على علاقتها التجارية مع مصر، التي تعد أساس قوة البندقية، ولذلك اعتقد بعض المؤرخين خطأ أن البندقية قد خضعت لمراسيم البابا، وأنها حرمت رعاياها من المتاجرة مع مصر،

فقد شاهد الرحالة "لادولف" – الذي زار مصر مابين عامي(١٣٣٩-١٣٤١م)- بنفسه البنادقة في الإسكندرية يمارسون نشاطهم التجاري،ويتمتعون بحريتهم الدينية[٢٤].

وفي عهد البابا كلمنت السادس، عام ١٣٤٤م، لوحظ تحول إيجابي في موقف البابوية تجاه العلاقات التجارية بين البندقية ومصر، إذ تعاطفت البابوية مع البندقية بأن أصدر البابا كلمنت السادس مرسوماً سمح فيه للبنادقة بالعودة للنشاط التجاري، لمدة خمس سنوات، مع المسلمين في مصر، لما تمثله التجارة مع مصر من مصدر رزق لعدد كبير من العائلات في البندقية. ولكن ذلك لم يمنع البابا من تضمين المرسوم نصاً يحرم البنادقة من نقل الخشب والحديد والأسلحة والرقيق إلى المسلمين،وأن يقوم دوج البندقية بالتفتيش على تجارة البنادقة قبل شحنها إلى مصر[٢٥].

لقد أدركت البندقية أن استمرار تردي علاقتها مع مصر، وبقاء تجارها في سجون القاهرة، سيؤدي إلى انهيار تجارتها، لا في مصر فحسب،بل في الحوض الشرقي للبحر المتوسط أيضاً، ولذلك عملت البندقية على الاستفادة من الاستثناءات التجارية التي منحها لها البابا، فأرسلت سفارتين: الأولى عام ١٣٤٤م، وكان يرأسها "براست نيقولا زينو". والثانية عام ١٣٤٥م،كان يمثلها "انجيلو سيربي". وقد تمكنت هاتان السفارتان من إعادة النشاط التجاري بين البندقية ومصر. كذلك منح البابا انوسنت السادس في عام ١٣٦١م البنادقة الإذن بالمتاجرة مع المسلمين في مصر، فوقعت البندقية معاهدة تجارية، مع السلطان المملوكي الناصر حسن بن قلاوون، زادت الامتيازات التي كانت تتمتع بها،ومعها تعززت مكانة البندقية داخل مصر[٢٦].

رابعاً حملة بطرس على الإسكندرية وتأثيرها على العلاقات التجارية بين مصر والبندقية

اتجه الصليبيون، بعد طردهم من بلاد الشام، نحو جزيرة قبرص، التي تتميز بموقع مهم في البحر المتوسط، واتخذوا منها مقراً لهم، لممارسة القرصنة على سفن المسلمين، وقطع خطوط التجارة على سلاطين الممالك؛ الذين يمثلون القوة الإسلامية في الشرق، ولمهاجمة السواحل المصرية. وبذلك تحولت هذه الجزيرة إلى ملتقى

محاربي الفرنجة من جميع أنحاء أوروبا. وفي تلك الأثناء تولى عرش قبرص "بطرس الأول لوزنيان"، الذي سيطرت عليه الرغبة في إعداد حملة صليبية ضد المسلمين، لاسترجاع بيت المقدس، فقام بنشاط ملحوظ في غرب أوروبا، استمر ثلاث سنوات(١٣٦٢-١٣٦٥م)، دعا خلالها لشن حملة على الشرق الإسلامي، وحث دول غرب أوروبا على تقديم الدعم اللازم لها. وقد حاولت البندقية من جانبها استغلال الموقف لصالحها، فقامت بدور فعال في دعم هذه الحملة،وكانت تأمل من ورائها في توسيع امتيازاتها التجارية. وفي تلك الأثناء لم يعلن بطرس عن وجهة الحملة،وعندما وصلت سفن الحملة عُرض البحر، أعلن أن الحملة متجهة إلى الإسكندرية[٢٧].

كان بطرس يتحرك وفق الاعتقاد السائد لدى الصليبيين: أن من العسير، من الناحية العملية،احتلال بلاد الشام، ما لم يكن هناك قاعدة على الساحل، وكان ميناء الإسكندرية يعد أكثر أهمية من دمياط، إذا ما أصبح قاعدة لاسترجاع بيت المقدس. وللسيطرة على ميناء الإسكندرية،ما يمكن الصليبيين من فرض نوع من الحصار الاقتصادي على دولة المماليك. ولإنجاح هذه الخطة شاركت البندقية من خلال انطلاق القوات الصليبية من أراضيها إلى ميناء الإسكندرية، على الرغم من العلاقة الحسنة التي تربطها بمصر[٢٨].

وصلت الحملة الصليبية إلى الإسكندرية مساء يوم ١٣٦٥/١/٣م، فظن سكان المدينة أن القادمين هم التجار البنادقة، الذين اعتادوا على حضورهم كل عام. ولكن دخول السفن إلى الميناء الغربي، المحظور على السفن المسيحية، أظهر جلياً أنها حملة صليبية، تستهدف الإسكندرية، لاسيما بعد اقتحام قوات بطرس المدينة، وقيامها باعتقال عدد كبير من الفرنجة، كان من بينهم بعض التجار البنادقة، الذين تضررت أملاكهم، وتوقفت تجارتهم مع مصر.هذا ويبدو أن الملك بطرس وأعوانه لم يخططوا لحملة منظمة، تستهدف الاحتلال والاستقرار،فغادروا المدينة بعد وصول أخبار تقدم جيش المماليك نحو الإسكندرية[٢٩].

لقد ترتبت على هذه الحملة عدة نتائج، كان لها الأثر الكبير على العلاقات بين مصر والبندقية، تمثلت في:

١- ارتفاع الأسعار، وخاصة التوابل والمنسوجات الحريرية، وغيرها من السلع الشرقية المألوفة عند سكان غرب أوروبا(٣٠).

٢- توقف تجارة البندقية في مصر، وخاصة بعد تردي مركزها التجاري، على أثر تعرض أملاكها في الإسكندرية للدمار.

٣- أدت الحملة إلى تأجيج روح الغضب تجاه المسيحيين في مصر. وقد تمثل ذلك في الإجراءات الانتقامية ضد الجاليات الأوروبية والطوائف المسيحية المقيمة في مصر.

٤- رفض المماليك الوساطة التي قامت بها البندقية؛ من أجل عقد اتفاقية مع الملك بطرس الأول.

ولإعادة العلاقات التجارية كما كانت في السابق، بادرت البندقية بإرسال وفد إلى مصر لإعلان تنصلها من حملة بطرس على الإسكندرية، ورغبتها في إعادة العلاقات التجارية بينها وبين مصر. وفي تلك الفترة كانت الأوضاع الداخلية في مصر تعاني من بعض الأزمات. وعلى المستوى الخارجي كان نجم القوة العثمانية قد أخذ يسطع في الأفق، ولهذا جنح المماليك إلى الصلح مع البندقية، كما أصدر البابا مرسوماً يلغي جميع المراسيم التي تحظر التعامل التجاري بين البندقية ومصر(٣١).

يستخلص مما تقدم: أن العلاقة التجارية بين مصر والبندقية ترجع إلى ما قبل الحروب الصليبية. وهذا الأمر يعود إلى المكان والمكانة الجغرافية لكل منهما، فضلاً عن العلاقات الودية التي ربطت بينهما في فترات مختلفة. بيد أن العامل الاقتصادي، المتمثل في علاقات البندقية التجارية مع مصر، كان العامل الأبرز في توجيه هذه العلاقات، خلال مرحلة الصراع الصليبي بين الغرب والشرق، بما يخدم مصلحة البندقية، مثلما كان له التأثير ذاته، سواء على مستوى علاقة البندقية مع البابوية أو علاقتها مع دول غرب

أوروبا، ولهذا اتسم أداء البندقية، خلال الصراع الصليبي، بالتذبذب حسب ما تمليه عليها مصلحتها التجارية، وهو ما انعكس بالضرورة على علاقاتها مع مصر.

الهوامـــش

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، (العصر المماليكي في مصر والشام)، (القاهرة، ١٩٦٥م)، ص٢٩٨-٢٩٩.

(٢) عادل زيتون، (العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى)، (دار دمشق، دمشق، ١٩٨٠م)، ص١٨٨.

(٣) ديل شارل، (البندقية جمهورية ارستقراطية)، ترجمة: أحمد عزت وتوفيق اسكندر، (القاهرة،١٩٤٨م)، ص٢٠، ٣٥.

(٤) الهون من القبائل البربرية التي أثارت الخوف والرعب في المناطق التي مرت بها أثناء اكتساحها للإمبراطورية الرومانية. انظر: محمود سعيد عمران، (معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى)، (دار النهضة العربية، بيروت)،ص٨٠.

(٥) محمد مصطفى صفوت، (الجمهورية الحديثة)، (منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٥٨)، ص ٤،٥.

(٦) أرشيبالد.ر.لويس، (القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط)، ترجمة: أحمد محمد عيسى، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة)،ص٢٨-٢٩.

(**) دوج أو الدوق أو الدوك، وهي تعني عند البنادقة لقباً بمنزلة الملك، وهو رمز عظمة البندقية،انظر: أبو العباس أحمد القلقشندي، (صبح الأعشى في صناعة الإنشا)،ج٣،ج٨،(القاهرة ١٩١٣)، ص٤٨٥،٤٠٤.

(٦)-schlumberger,G:L.((Epopee byzantine a la fin du dixemesiecle)) 3vols. (paris 1896-1905). pp239-240

(٧) أحمد بن علي المقريزي، (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، ج١، (مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٧٠هـ)، ص١٠١-١٠٢؛ عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، (المختصر في أخبار البشر)،ج١، (القاهرة، ١٣٢٥هـ)،ص١٢٧.

(٨) آمال سليمان عبد الحميد الزوى، (دور البندقية في الحملة الصليبية على القسطنطينية)، (منشورات صحيفة دار العلوم، القاهرة،العدد٤١، السنة٢٠١٢م)، ص٢٢٧،٢٢٥

(٩) القلقشندي، صبح الأعشى،ج٨، ص١٢٣

(١٠) -Mas La trie,((Traite des paix et de commerce et documents diveresconcernat les Relations des chretians avec les Arabes de L,afrique au moue nage)) .(paris ,1865).p77-80

(***) الدوكات هي عملة ذهبية أصدرتها البندقية عام١٢٨٤م، وكان وزنه ما بين ٣٥ر٣جرام و٦٥ر٣ جرام، ونسبة الذهب فيه ٩٩ر٧%. زيتون، العلاقات الاقتصادية،ص٤٩.

(١١)-Lane, F.C,((venice ,amaritime republic)),(London,1973).p14

(١٢) القلقشندي، صبح الأعشى،ج٣، ص٤٤١، ج٥،٤٠٤،٤٠٥

(١٣) محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٧م، ص٢٨؛ جوزيف نسيم يوسف، (العدوان الصليبي على مصر – هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور)، (دار الكتب الجامعية، الإسكندرية،١٩٦٩م)، ص٤٧-٥٦.

(١٤) جوزيف نسيم يوسف، (دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى)، (مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية، ١٩٨٨م)،ص٧٣.

(١٥)–Matthew paris, ((English history from the year 1235 to 1273,trans, from the latindyJ.A.giles,II)). (London,1853),p306

(١٦) اسمت عليم، (الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية)، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية)، ص٢٥

(١٧) زبيدة محمد عطا، (الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين)، (دار الأمين، القاهرة، ١٩٩٤م)، ص١٢٩-١٣٠

(١٨) سعيد عبد الفتاح عاشور، (الحركة الصليبية)،ج٢، (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١م)، ص٩٧٥.

(١٩) حمدى عبد المنعم حسين، (دراسات في تاريخ الأوروبيين والمماليك)، (دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٠م)، ص١٢٧؛ هنرى بيرين، (تاريخ أوربا فى العصور الوسطى)، ترجمة: عطية القوصى، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٦م)،ص٣٥.

(٢٠) طقوش، تاريخ المماليك، ص٤٣٧-٤٣٨.

(٢١) زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص١٩٨.

(٢٢) سمير على الخادم، (الشرق الإسلامي والغرب المسيحي عبر العلاقات بين المدن الإيطالية وشرق البحر المتوسط)، (مؤسسة دار الريحان،١٩٨٩م)، ص١١-١٣.

(٢٣) زيتون، العلاقات الاقتصادية،ص٢٠٢.

(٢٤) المرجع السابق،ص٢٠٢.

(٢٥) المرجع السابق،ص٢٠٢-٢٠٣.

(٢٦) محمد جمال الدين سرور،(دولة بنى قلاوون فى مصر)، (دار الفكر العربي القاهرة،١٩٤٧م)، ص٣٤٢.

(٢٧) طقوش، تاريخ المماليك، ص٣١٢.

(٢٨) قاسم عبده قاسم، (الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري)،(عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية،القاهرة)، ص٢٠٤.

(٢٩) ستيفن رنسمان، (تاريخ الحروب الصليبية)، ترجمة: السيد الباز العريني، ج٣، (دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م)، ص٧٤٥.

(٣٠) تقي الدين أحمد المقريزي، (السلوك لمعرفة دول الملوك)، ج٣، تحقيق محمد مصطفى زيادة، (القاهرة، ١٩٤٢م)،ص١٠٦-١٠٧.

(٣١) جمال الدين أبو المحاسن ابن تغري بردي، (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، ج١١، (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة)، ص٢٩.